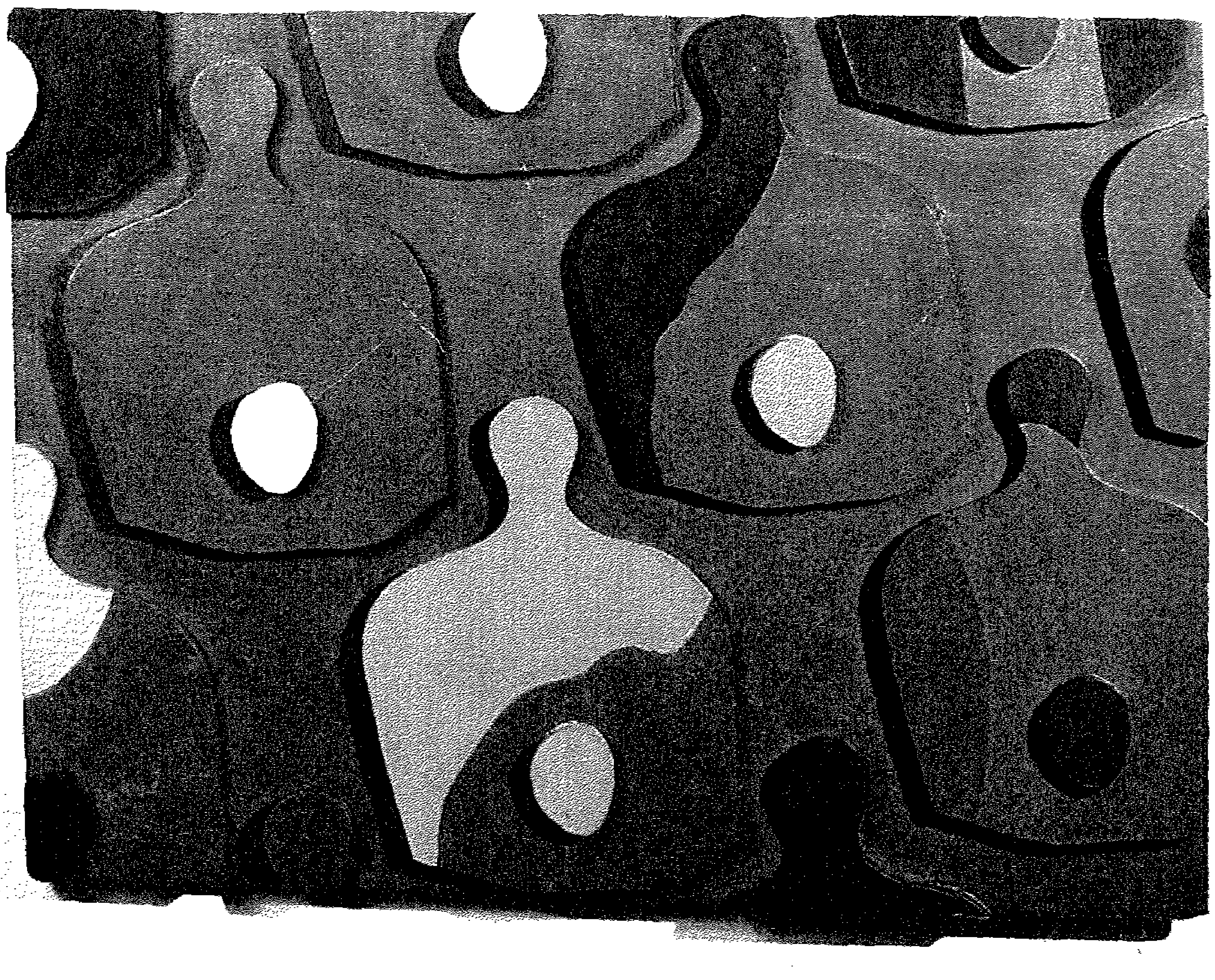
المجلس الأعلى للثقافة

# الجماعات المتخيّلة

تأليف: بندكت أندرسن

ترجمة: محمّد الشرقاوي

المشروع القومي للترجمة



المشروع القومى للترجمة

# الجماعات المتخيلة

تأليف: بندكت أندرسن

ترجمة: محمد الشرقاوى

المجلس الأعلى للثقافة

١٩٩٩

Imagined communities

By

BENDECT ANDERSON

إهـــداء

إلى

أحمد مصطفى ....

المترجم

# مقدمة الطبعة الثانية

من يعتقد أن الريح تعصف أكثر فأكثر كلما ابتَعدتَ عن الجنة؟

بعد مرور اثنى عشر عاما تبدو الصراعات المسلحة فى الهند الصينية (١٩٧٨ – ١٩٧٩) على أنها تنتمى لحقبة مختلفة . وقد كانت تلك الصراعات هى المصدر الأساسى لكتاب "جماعات متخيلة". ومن ثم فقد جذبتنى فكرة مستقبل الحروب على نطاق واسع بين الدول الاشتراكية . والآن اشترك نصف تلك الدول فى الكتلة عند "أسفل الزاوية" ، ويخشى على الدول الباقية من الانضمام إليها . والحروب التى سيواجهها الناجون ستكون حروباً أهلية . وهناك احتمال كبير أنه مع دخول الألف الثانية بعد الميلاد لن يبقى من اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية غير الجمهوريات .

هل كان من الممكن أن يكون ذلك متوقعا؟ وفى ١٩٨٣ كتبت أن الاتحاد السوفيتى "كان وريث دول حكم الأسرات ما قبل القومية فى القرن التاسع عشر ، كما أنه البداية للدولة المتعددة القوميات فى القرن الحادى والعشرين" . ولكن بمتابعة الانفجارات القومية التى دمرت الممالك المتعددة اللغات والأعراق التى كانت تحكمها فيينا ولندن والقسطنطينية وباريس ومدريد ، لم أستطع أن أرى أن ذلك القطار أدرك موسكو. ولكن ثمة مواساة فى ملاحظة أن التاريخ يحمل منطق "الجماعات المتخيلة" ويحافظ عليه أكثر من مؤلف الكتاب.

ولم يكن العالم وحده هو الذى تغير وجهه على مدار الاثنى عشر عاما الماضية ، فدراسة القومية أيضا تحولت تحولا مدهشًا فى منهج الدراسة ومجالها وكمها والتعقيد وحجم الدراسات نفسها ؛ ففى اللغة الإنجليزية وحدها، كتب J. A. Armstrong كتاب "القوميات قبل عصر القومية" فى عام ١٩٨٢، وكتب John Breuilly كتاب "القومية والدولة" فى عام ١٩٨٢، وErnest Gellner كتاب "الأمم والقومية" فى عام ١٩٨٣، و Miroslav Hroch كتاب "المقومات الاجتماعية لليقظة القومية فى أوروبا" فى عام ١٩٨٥و Anthony Smith كتابه "الأصول العرقية للأمم" فى عام ١٩٨٦، وكتب P. Chatterjee كتابه "الفكر القومى والعالم الاستعمارى" فى عام ١٩٨٦، و Eric Hobsbawm كتابه "الأمم والقومية منذ عام ١٧٨٨" فى عام ١٩٩٠. وقد جعلت النصوص القليلة التى ذكرناها – بتغطيتها للحقب التاريخية المختلفة وقوة النظرية فيها – النصوص السابقة عليها فى موضوع الدراسة نصوصا قديمة مستهلكة. وقد تطور عن هذه الكتابات – إلى حد ما – تزايد غير عادى للدراسات التاريخية والأدبية والأنثروبولوجية والاجتماعية والنسائية ، بالإضافة إلى الدراسات الأخرى التى تربط مواضيع تلك الدراسات بالفكرة القومية وبالقوميات . [١]

ومهمة تكييف "جماعات متخيلة" مع معطيات هذا التغير الكبير فى العالم والنص مهمة ليست فى استطاعتي الآن . لذلك، فيبدو من الأفضل تركه ليصبح نصاً زمنياً غير قابل للتغيير ومحتفظاً بسماته الأسلوبية وظلاله وجوه الخاص . وشيئان اثنان يريحانني : فمن ناحية ، فالنتاج النهائي الكامل للتنمية فى العالم الاشتراكى القديم يبقى مغلفا بغلاف الغموض المستقبلى . وعلى الجانب الآخر، فالأسلوب الفريد والاهتمامات التى تشغل كتاب "جماعات متخيلة" تبدو لى على أنها ما تزال ضمن الدراسات الجديدة للقومية ؛ بمعنى أنها ، على الأقل ، لم يتم تجاوزها تماما بعد .

والشيء الذى حاولت عمله فى هذه الطبعة هو – بكل بساطة – تصحيح أخطاء الحقائق والمفهوم والتفسير التى كان يجب عليَّ أن أتجنبها فى إعداد النص الأصلى. وفى هذه الطبعة بعض التغيرات – من قبيل التصويب – عن الطبعة الأولى، بالإضافة إلى فصلين جديدين لهما فى الأساس سمة الإلحاق .

ولقد اكتشفت فى النص الأصلى خطأين فادحين فى الترجمة ووعد واحد لم يتحقق إلى جانب تركيز مضلل . ففى عام ١٩٨٣ لم أكن أستطيع قراءة الإسبانية فاعتمدت على ترجمة ليون ما جريرو الإنجليزية لكتاب خوزى ريزال Noli Me Tongere مع أنه كانت هناك ترجمات سابقة. وفى عام ١٩٩٠ اكتشفت مدى فشل ترجمة جريرو. وقد اعتمدت متكاسلا على ترجمة أوسكار جازى فى نقل اقتباس شديد الأهمية من كتاب أوتو باور Die Nationalitatenfrage und die Sozialdemokratie والمطالعة الحديثة للنص الألمانى الأصلى وضحت لى كيف كانت التوجهات السياسية للمترجم ذات تأثير واضح على ترجمته . وقد تعهدت فى نصين على الأقل تعهداً غير جاد بشرح لماذا تطورت القومية البرازيلية مؤخرا وبهذا الشكل الفريد بالمقارنة مع باقى دول أمريكا اللاتينية . والنص الحالى يأخذ على عاتقه تحقيق الوعد .

وكان التركيز على توضيح أصول القومية فى العالم الجديد أحد أجزاء خطتى ، وكان شعورى أن هناك نوعا من المحلية غير الواعية يشوه التنظير فى هذه المسألة ويعطله . وبحكم التعود على الغرور الذى ينظر إلى كل ما هو مهم فى عالمنا على أنه بدأ فى أوروبا ، تناول الدارسون الأوربيون – بكل بساطة – الجيل الثانى من العرقيات المجرية والتشيكية والبولندية واليونانية وغيرها على أنها نقطة بداية التصنيف لديهم غير واضعين فى الاعتبار كونهم مع القومية أم ضدها . وقد دهشت حين اكتشفت فى العديد من التعليقات على "جماعات متخيلة" أن هذه المحلية المتركزة على أوروبا لم تتغير ، وأن الفصل المهم ، عن ظهور الأمريكتين قد همش . ولسوء الحظ لم أجد أى حل "آنى" لهذه المشكلة إلا إعادة تسمية الفصل الرابع ليصبح "الرواد الكريوليون" (الكريوليون هم : سكان جزر الهند الغربية أو أمريكا اللاتينية المنحدرين من أصل أوروبى) .

والفصلان الإضافيان يحاولان إصلاح أخطاء فادحة على مستوى النظرية فى الطبعة الأولى (٢) ، وكان عدد من النقاد "الطيبين" قد رأوا أن الفصل السابع "الموجة

الأخيرة" قد بسط العملية التى بنيت عليها بدايات القومية فى العالم الثالث . وعلاوة على ذلك، فلم يعالج الفصل ، بصورة جادة ، مسألة دور الدولة الاستعمارية المحلية وليس الدولة الأم فى تشكيل تلك القوميات . وفى نفس الوقت أدركت بما لا يدع مجالا للشك أن ما اعتقدت أنه إسهام جديد ومتميز فى التفكير فى أن القومية تغير الإدراك الزمنى يفتقد نظيره الضرورى ألا وهو الإدراك المكانى . واسترعت رسالة الدكتوراه العبقرية للمؤرخ التايلاندى الشاب "تنجشاى صينيشاكول" انتباهى للتفكير فى دور المسح الجغرافى والخرائط فى تشكيل الخيال القومى .

ولذلك فإن فصل "التعداد والخريطة والمتحف" يحلل الأسلوب الذى ولدت به الدولة الاستعمارية فى القرن التاسع عشر والسياسات التى شجعتها أنظمتها المفكرة – بشكل غير واع – بنية القومية التى نهضت فيما بعد لتحاربها . فى الواقع ، يمكن القول إن الدولة قد توهمت أعداءها الداخليين كحلم منذر متنبئ تنبؤاً جيدا قبل أن يظهر هؤلاء الأعداء ظهورا تاريخيا. وقد شكل التعداد المجرد وسلاسل ترقيم الأفراد وتركيب الخريطة للمساحات والأماكن السياسية وجينيولوجية السكان المهينة إسهاما متساويا متداخلا فى هذا التنبؤ.

وتعود إضافة الملحق الثانى إلى الإدراك ، المهين أنه فى عام ١٩٨٣ اقتبست من "رينان" دون أن أدرك ما قاله تمام الإدراك، فقد تناولت الشيء الشديد الغرابة على أنه مجرد سخرية . وأجبرتنى المهانة أيضا أن أدرك ، أننى لم أقدم تفسيرا مضمونا لكيف ولماذا تتخيل قوميات حديثة النشأة نفسها قوميات عتيقة . وما يظهر فى معظم الدراسات على أنه هراء ميكيافيلى أو خيال برجوازى أو حقائق تاريخية قديمة تظهر للنور يشدنى الآن نظرا لعمقه وإثارته . وبافتراض أن القديم "الأثر" فى مرحلة تاريخية معينة فى عملية توالٍ حتمى مع "التجديد" ، وإذا كانت القومية – كما افترضتها – هى تعبير عن شكل من الوعى يتغير تغيرا راديكاليا ، أليس إذن من الواجب على الوعى بهذا الانفصال والنسيان الضرورى للوعى القديم أن يخلق سياقه الخاص؟ ومن هذه الزاوية فالسمات الرجعية الخيالية فى معظم الفكر القومى بعد العشرينيات تظهر على أنها ظواهر جانبية ، والشيء الأكثر أهمية هو التوحد البنيوى بين "الذاكرة" القومية فى فترة ما بعد العشرينيات والمقدمات المنطقية الداخلية والأصول للسير والسير الذاتية الحديثة .

وبعيدا عن أى مميزات أوعيوب نظرية قد يثبت وجودها فى الملحقين فلكل منهما أيضا حدوده . فمعلومات «التعداد والخريطة والمتحف» مستقاة بشكل أساسى من جنوبى شرق آسيا . ولشيء ما تقدم تلك المنطقة فرصا عظيمة للتنظير المقارن ؛ لأنها تضم مناطق كانت واقعة تحت احتلال معظم القوى الاستعمارية الكبرى ، إنجلترا وفرنسا وهولندا والبرتغال وإسبانيا والولايات المتحدة ، بالإضافة لمناطق لم تقع تحت الاحتلال مثل سيام . ومع ذلك فيبقى أن ننظر ما إذا كان تحليلى –حال كونه مناسبا

وملائما لتلك المنطقة – يمكن أن يقع موقع التطبيق فى جميع أنحاء العالم أم لا . وفى الملحق الثانى ترتبط المادة المبنية على الملاحظة بأوروبا الغربية والعالم الجديد ، وهى مناطق ليس لى معرفة كبيرة بها. ولكن كان يجب التركيز على تلك المناطق ؛ لأن أول إعلان لانهيار القومية كان فيها .

**بندكت أندرسن**

**فبراير ١٩٩١**

## الهوامش

١) كان هوبسباوم شجاعا عندما خرج من هذا الانفجار العلمي بنتيجة : إن عصر القومية يقارب النهاية ، فبومة مينرفا تطير ساعة الغروب .

٢) ظهر الملحق الأول – لأول مرة – في بحث لمؤتمر عقد في كراتشي في يناير عام ١٩٨٩ تحت رعاية المعهد العالمي لتنمية البحوث الاقتصادية لجامعة الأمم المتحدة. وظهر سكتش للملحق الثاني في The Time Literary Supplement في الثالث عشر من يونيو عام ١٩٨٦تحت عنوان 'Narrating The Nation'.

## الفصل الأول

# مقدمة

حدث تغير جوهرى فى تاريخ الماركسية وحركاتها وإن لم يكن هذا التغير ملحوظا بعد . وأهم العلامات وضوحا (على هذا التغير) هى الحروب الحالية بين فيتنام وكامبوديا والصين . ولهذه الحروب أهمية تاريخية عالميا ؛ لأنها أول حروب من نوعها تحدث بين أنظمة لا يمكن إنكار استقلالها وتوجهاتها الثورية ، وأيضا لأنه لا أحد من المتحاربين قدم غير المحاولات المتكررة المحفوظة لتبرير نزيف الدم من وجهة نظر اتجاهات ماركسية نظرية . وبينما يكون من الممكن تبرير الاضطرابات الصينية السوفييتية على الحدود فى عام ١٩٦٩ والتدخل العسكرى السوفييتى فى ألمانيا عام ١٩٥٣ وفى المجر فى ١٩٥٦ وفى تشيكوسلوفاكيا فى ١٩٦٨ وفى أفغانستان فى ١٩٨٠ على أنه "توسع اشتراكى أو دفاع عن الاشتراكية" إلخ ، وفقا لذوق من يختار ، فلا أعتقد أن أحدا يصدق حقا أن تلك الكلمات تعبر – بقدر كبير – عما حدث فى الهند الصينية .

إذا كان غزو فيتنام واحتلالها لكمبوديا فى ديسمبر ١٩٧٨ ويناير ١٩٧٩ يمثل أول حرب تقليدية واسعة النطاق يشنها نظام ثورى ماركسى على نظير له (١)، فإن هجوم الصين على فيتنام فى فبراير يؤكد سلفه بسرعة . والشخص الواثق وحده هو الذى يجرؤ على المراهنة على أنه إذا حدث نزاع عدائى بين الدول فى السنوات الأخيرة من هذا القرن فسوف يتعاضض الاتحاد السوفييتى وجمهورية الصين الشعبية ويحاربان على نفس الجانب ، ناهيك عن باقى الدول الاشتراكية الصغيرة . ومن يستطيع أن يثق بأن يوغوسلافيا وألبانيا لن يتحاربا يوما ما؟ ويجب أن تذكر الجماعات المختلفة التى تسعى لانسحاب الجيش الأحمر من معسكراته بشرق أوروبا نفسها بالحد الذى بلغه الجيش الأحمر فى وجوده الكبير منذ عام ١٩٤٥ ، واستطاعته القضاء على النزاعات المسلحة بين الأنظمة الماركسية فى المنطقة .

كل هذه الاعتبارات تساعد على دعم الحقيقة التى تقول إنه منذ الحرب العالمية الثانية ميزت كل ثورة ناجحة نفسها عن طريق وضع نفسها فى إطار قومى ، منها على سبيل المثال جمهورية الصين الشعبية وجمهورية فيتنام الاشتراكية إلخ ، وبهذا الشكل ثبتت تلك الدول نفسها فى مساحة مكانية واجتماعية موروثة عن ماضى ما قبل الثورة .

وعلى العكس فحقيقة أن الاتحاد السوفييتي يشترك مع المملكة المتحدة وأيرلندا الشمالية فى المميز النادر الذى يرفض القومية ، تقترح أن تلك الدول وريثة ممالك ما قبل القومية فى القرن التاسع عشر ، كما أنها رائدة النظام العالمى فى القرن الحادى والعشرين . (٢)

ويعتبر إدك هوبسباوم صادقا تماما فى قوله : "بدأت الحركات والدول الماركسية فى التحول إلى القومية ليس فى الشكل فحسب بل فى التكوين أيضا . ولا يوجد من يقترح أن هذه النزعة لن تستمر"(٣) . ولا تقتصر تلك النزعة أيضا على المعسكر الاشتراكى ، فكل عام تقريبا تعترف الأمم المتحدة بأعضاء جدد والكثير من "الأمم العريقة" التى كانت تعتقد أنها متماسكة بما فيه الكفاية تجد نفسها فى تحدٍ مع قوميات فرعية فى داخل حدودها ، وتحلم تلك الحركات بتحقيق الاستقلال فى يوم سعيد . والحقيقة واضحة تماما : "فنهاية حقبة الوطنية" التى تنبأنا بها منذ فترة طويلة ليست نائية عن البصر . وفى الواقع فإن القومية أكثر القيم شرعية فى الحياة السياسية فى أيامنا .

ولكن إذا افترضنا أن الحقائق واضحة فشروحها تبقى مثارا للجدل الطويل . الأمة ، الجنسية ، الوطنية ، كلها مصطلحات أثبتت أنها صعبة التعريف صعوبة كبيرة ناهيك عن تحليلها . وعلى النقيض من التأثير العظيم للقومية على العالم الحديث فإن نظرياتها المعقولة نظريات هزيلة جدا . ويلاحظ هوجستون واتسن –مؤلف أفضل النصوص وأكثرها فهما فى اللغة الإنجليزية عن القومية ، ووريث لموروث كبير من الهستوجرافيا الليبرالية والعلوم الاجتماعية – بحزن "لهذا فأنا مدفوع إلى النتيجة التى تقول بأنه لا يمكن استخلاص تعريف علمى لكلمة القومية ، ومع ذلك فالظاهرة كانت وما زالت موجودة" (٤) . و"توم نايرن" مؤلف كتاب "انقسام بريطانيا" ووريث للموروث الذى لا يقل اتساعا من الهستوجرافيا الماركسية والعلوم الاجتماعية يلاحظ أن "نظرية القومية تمثل الفشل التاريخى الأعظم للماركسية ." (٥) وحتى هذا الاعتراف مضلل إلى حد ما طالما أنه يدلل على النتاج المؤسف لفترة كبيرة من البحث الواعى عن وضوح النظرية ، وسنكون أكثر دقة إذا قلنا إن القومية أثبتت انحرافا غير مريح للنظرية الماركسية . وباختصار، ولهذا السبب ، اختفت بدلا من أن تستمر. وكيف يمكن تفسير فشل ماركس فى شرح الصفة الأساسية الجوهرية التى وردت فى صياغته التاريخية فى عام ١٨٤٨: "يجب على البروليتاريا فى كل بلد أن تقرر وتحل أمورها مع البرجوازية فى بلادها أولا" (٦) كيف يمكن تبرير استخدام مفهوم "البرجوازية الوطنية" الذى طال استخدامه أكثر من قرن بدون محاولات جادة لتبرير الصلاحية النظرية لهذه

الصفة؟ إذن ، لماذا يعتبر تقسيم البرجوازية ، والتى هى طبقة عالمية كما يعرفها الناس فيما يخص علاقات الإنتاج ، تقسيما نافعا من الناحية النظرية ؟

إن غاية هذا الكتاب هى تقديم بعض الاقتراحات الأولية لتفسير أكثر إرضاء لمسار القومية ، وأشعر أنه فى هذا الموضوع كلا النظريتين الماركسية والليبرالية أصبحتا عاجزتين عن تقديم جهد بطليموسى جديد "لإنقاذ الظاهرة " ، وأننا فى حاجة ماسة عاجلة لإعادة توجيه المنظور فى عملية ذات روح كوبرنيكية . ونقطة الانطلاق عندى هى أن الجنسية أو إذا فضل المرء استبدالها -فى ضوء الدلالات المتعددة لتلك الكلمة- بكلمة "التقويم" (من القومية) بالإضافة إلى القومية يمثلان نوعا من النتاج الثقافى ذى الطراز الفريد . ولكى نستطيع فهمهما بوضوح نحتاج أن نتدارس كيفية ظهورهما التاريخى ، وكيف تغيرت معانيهما على مر الأزمان ؟ ولماذا أصبحت لهما اليوم كل تلك الشرعية العاطفية ؟ وسأحاول الجدل : إن وجود هذين الناتجين (يعنى الجنسية والقومية) فى نهايات القرن الثامن عشر [٧] كان نتيجة مباشرة لعملية "التقاء" معقدة بين قوى تاريخية متباينة . ولكنهما بمجرد وجودهما أصبحتا قابلتين للتحول وقادرتين على التغير بدرجات مختلفة من الوعى بالذات لتصبحا تنويعة كبيرة من التضاريس الاجتماعية وتندمج فى تنويعة مماثلة واسعة من التشكيلات السياسية والأيديولوجية . وسأحاول أيضا أن أوضح لماذا اجتذب هذان الناتجان الثقافيان على وجه الخصوص كل ذلك الاهتمام .

## مفاهيم وتعريفات

وقبل محاولة الإجابة على الأسئلة سالفة الذكر يبدو من الأفضل محاولة تعريف مفهوم "القومية" تعريفا عمليا مفيدا بإيجاز. لطالما اختلط الأمر على منظرى القومية (ومصطلح Nationalism فى اللغة الإنجليزية قد يعنى القومية ويعنى الوطنية فى نفس الوقت) وأزعجتهم هذه التناقضات الثلاثة: ١) الحداثة الموضوعية للقوميات فى أعين المؤرخين فى مقابل قدمها الذاتى الخاص فى أعين القوميين. ٢) عمومية ورسمية الجنسية كمفهوم اجتماعى حضارى -ففى العالم الحديث يمكن ويجب على كل فرد أن تكون له جنسية كما يكون له جنس- فى مقابل الخصوصية الشديدة فى تجلياتها وتجسيداتها الملموسة ، فالجنسية اليونانية على سبيل المثال والإيضاح جنسية فريدة مميزة . ٣) القوة القومية "السياسية" فى مقابل فقرها الفلسفى وعدم الاتساق . وفى صياغة أخرى يمكن القول إن القومية لم تفلح فى إنتاج مفكريها الكبار كما فعلت باقى العلوم ، فهى لم تنتج مفكرين مثل "هوبس" أو "توكفيى" أو "ماركس" أو "فيبرس" . وفى وسط المفكرين العالميين متعددى اللغات يعطى مثل ذلك الفراغ الفرصة للانحدار.

ويمكن للمرء أن يصل بسهولة للنتيجة التى تقول إنه لا يوجد وجه للمقارنة مثل جرترود شتين فى مواجهة أوكلاند . ويبدو واضحا أنه من المعتاد حتى عند بعض دارسى القومية المتعاطفين المتحمسين من أمثال "توم نيرن" أن يكتب - بالرغم من تعاطفه وحماسه - أن : "*القومية هى باثولوجيا تاريخ التطور الحديث ولا مفر منها مثل الاضطرابات العصبية عند الناس مع نفس الغموض الذى يكتنفها تقريبا وفيها {أى القومية} نفس القدرة الذاتية على الهبوط إلى اللاشىء وهى مغروسة فى قلب الأزمات والضعف الملقى على عاتق معظم بلاد العالم ، فهى تعادل الطفولة فى المجتمعات ولا علاج لها* ." (٨)

ويكمن جزء من الصعوبة فى أن المرء يبدأ - وبلا وعى - فى اعتقاد أن القومية موجودة وجودا ماديا ، وبعد ذلك يصنفها على أنها أيديولوجية . ولاحظ أنه إذا كان لكل امرئ عمر فإن العمر مجرد تعبير تحليلى ، وأعتقد أنه سيكون من الأسهل إذا تعامل المرء معها على أنها من قبيل "صلة القرابة و الدين" ، وليست من قبيل *الليبرالية* أو الفاشية .

ومن هذا المنطلق وبروح إنثروبولوجية أُقدِّم التعريف التالى للقومية : هى مجتمع سياسى متخيل ، وهو متخيل أيضا فى كونه محدد الأصول وذا سيادة .

إنه متخيل لأن أبناء حتى أصغر القوميات لا يعرفون أغلب أفراد قوميتهم ، ولا يقابلونهم ، ولا حتى يسمعون بهم ، ومع ذلك ففكرة تجمعهم وتوحدهم تعيش فى ذهن كل واحد منهم . (٩) وأشار "رينان" إلى هذا التخيل بطريقته المعروفة عندما كتب أن "جوهر الأمة هو أنه ليس لدى كل الأفراد الكثير المشترك ، كما أنهم جميعا نسوا أشياء كثيرة"(١٠). وبمقدار من الوحشية ، يقدم جلنر نقطة أخرى حين يقول "*القومية* ليست صحوة الأمم لإدراك الذات : إنها تخترع الأمم من حيث لا توجد" (١١) ولكن الخطأ الوحيد فى هذه الصياغة هو أن جلنر يجِد فى إيضاح أن *القومية* تتخفى فى المظاهر الكاذبة لدرجة أنه يشبه "الاختراع" (يقصد اختراع القومية ) بـ"التزييف والاصطناع" ولا يشبهه بالتوهم والخلق . وبهذا الشكل فهو يقول بأن هناك مجتمعات حقيقية موجودة والتى يمكن مقارنتها بالأمة . فى الواقع فكل المجتمعات الأكبر من القرى البدائية التى يكون الاتصال فيها اتصالا مباشرا "مجتمعات متخيلة" ، وقد تكون تلك القرى الصغيرة أيضا من حوامل صفات المجتمعات المتخيلة . ولذلك فلا تقسم المجتمعات على أنها حقيقية ولا متخيلة بل على كيفية تخيلها ؛ فالقرويون الجاويون يعرفون أنهم يرتبطون بأناس لم يروهم من قبل ، ولكن الناس تخيلها تلك الروابط فأصبحت تشكل شبكات من القرابة وعلاقات الدم التى لا تنفض وتمتد امتدادا لا نهائيا . وحتى العهد القريب لم تكن فى اللغة الجاوية أية كلمة تدل على المفهوم

"مجتمع" . أما اليوم فقد نفكر فى الأرستقراطية الفرنسية في نظام الحكم القديم (قبل الثورة) على أنها طبقة ، ولكن بالطبع فإن ذلك أصبح متخيلاً حديثا فقط. (١٢) ودائما ما كان السؤال "من هو الكونت كذا؟" ولم تكن الإجابة الطبيعية هى أنه "أحد أفراد الأرستقراطية" ، ولكن "لورد كذا" أو "عم البارون كذا" أو "عميل دوق كذا".

ويتخيل الناس القومية على أنها محدودة ؛ لأن أكبر تلك القوميات التى تضم ربما بليون نسمة لها حدود ولو كانت مرنة تقع خلفها أمم أخرى . ولا تتخيل قومية أن حدودها حدود كل البشر. وحتى أكثر القوميين عدم التزام لا يحلم باليوم الذى ينضم فيه البشر جميعا فى قومية واحدة على أفضل ما يكون فى نسق معين .. قل مثلا إن المسيحيين يحلمون بكوكب مسيحى كامل .

يتخيل الناس الأمة على أنها عظيمة قوية ؛ لأن هذا المفهوم ولد فى فترة كانت فيها الثورة وحركة التنوير تدمران شرعية الممالك المحكومة حكم أسرات منوط من قبل السماء ، وأصبحت مرحلة كاملة فى تاريخ الإنسانية عندما كان المتمسكون بأى دين معروف توجههم إلى الجماعية الحية لكل تلك الأديان والتداخل بين نظرية وطبيعة الوجود فى كل معتقد والمساحة المكانية لهم . وتحلم الأمم بالحرية وإذا كان يجب أن تكون تحت الله فلتكن تحته بصورة مباشرة . ورمز تلك الحرية هو الدولة القوية المسيطرة .

وأخيراً فالناس يتخيلون القومية على أنها مجتمع ؛ لأنها – بغض النظر عن عدم المساواة والاستغلال اللذين قد يسودان فى كل مجتمع – تفهم دائما على أنها زمالة عميقة وأفقية ومساوية بين الجميع . وتلك الأخوة هى التى تجعل الفكرة مقبولة ؛ فعلى مر القرنين الماضيين كانت رغبات الكثير من الناس ألا تقتل الكثير بقدر ما هى مستعدة لأن تموت فى سبيل تلك التخيلات المحدودة .

وتضطرنا تلك الميتات أن نجد أنفسنا وجها لوجه أمام المشكلة الجوهرية الناتجة عن القومية : ما الذى يجعل تلك التخيلات الضئيلة فى التاريخ الحديث ، الذى لا يكاد يتخطى قرنين ، تخلق تلك التضحيات الكبيرة؟ وأعتقد أن بداية الإجابة عن ذلك التساؤل كامنة فى الجذور الحضارية للقومية .

## الهوامش

١ – تم اختيار تلك الصياغة لتدعم مدى الصراع ونمطه لا لإلقاء اللوم . ولنتجنب سوء الفهم المحتمل فيجب أن نقول إن غزو ديسمبر ١٩٧٨ جاء نتيجة لصراع مسلح بين فلاحى حكومتين ثوريتين يرجع تاريخه إلى ١٩٧١ وبعد أبريل ١٩٧٧ انتشرت الغارات الحدودية من قبل الكمبوديين أولا ثم اشترك الفيتناميون وازدادت واتسعت فى الحجم والنطاق انتهاء بالغزو الفيتنامى الكبير فى ديسمبر ١٩٧٧ . ولم تكن أهداف تلك الغارات قلب نظم الحكم المعادية أو احتلال أراض أوسع، ولم يكن عدد الوحدات المستخدمة كبيرا بشكل يماثل تلك التى استخدمت فى ديسمبر ١٩٧٨. وقد تابع ستيفن هيدر الجدل حول أسباب قيام الحرب فى كتابه "الصراع الكمبودى الفيتنامى" وفى كتاب ديفد إليوت "الصراع الثالث فى الهند الصينية" فى الصفحات من ٢١ إلى ٦٧ وعند أنتونى برنب فى "الصراعات بين البلاد الشيوعية وفيتنام" فى جريدة "أخبار الدارس المهتم بآسيا" عدد أكتوبر وديسمبر ١٩٧٩ص ٢ – ٩ . وأخيرا عند لورا سمرز فى "فى مسائل الحرب والاشتراكية يوبخ أنتونى برنت كمبوديا ويكرمها كثيرا جدا" فى نفس الجريدة صفحة ١٠-١٨.

٢ – من لديه شك حول ادعاء أن المملكة المتحدة تشبه الاتحاد السوفييتى يجب أن يسأل نفسه عن الجنسية التى يدلل عليها ذلك الاسم ، آيرلاندى من بريطانيا العظمى .

٣ – إرك هوبسباوم، "تأملات فى تفكك بريطانيا" جريدة New Left Review العدد ١٠٥ لشهرى سبتمبر وأكتوبر ١٩٧٧ ص ١٣.

٤ – انظر كتابه "الأمم والدول" ص ٥ .

٥ – انظر مقاله "جانوس الحديث" New Left Review العدد ٩٤ لشهرى نوفمبر وديسمبر ١٩٧٥ ص ٣. وتوجد تلك المقالة فى كتاب "تفكك بريطانيا" دون تغيير فى الفصل التاسع ص ٣٢٩-٦٣.

٦ – "منفستو الشيوعية" لكارل ماركس وفريدرش إنجلز من كتاب *الأعمال المختارة* ص ٤٥.

٧ – وكما تشير أيرا كيميلين فإن "المؤسسين" للدراسة الأكاديمية للقومية (هانز كون وكارلتون هيس) قد كانا مقتنعين فى تحديدهما لهذا التاريخ . ولم يفهم أحد النتائج التى وصلا إليها إلا من كان من أدعياء القومية فى بلاد معينة . لاحظت كميلين أيضا أن كلمة "القومية" لم تستخدم باتساع إلا فى نهاية القرن التاسع عشر ؛ فلم يظهر فى قواميس القرن المعتمدة إذا كان آدم سمث قد استخدم الكلمة فى ثروات الأمم ، فلم يكن يعنى بالتأكيد أكثر من المجتمعات أو الدول . من كتاب القومية لأيرا كيميلن ص ١٠-٣٣ و٤٨-٤٩ .

٨ – كتاب "تفكك بريطانيا" ص ٣٥٩ .

٩ – كتاب سيتون واتسون "الأمم والدول" ص٥ . "كل ما يمكننى قوله إن الأمة توجد عندما يكون هناك عدد كاف من الناس فى مجتمع معين يعتبرون أنهم يكونون أمة أو يتصرفون كما لو كانوا قد كونوها بالفعل ." نستطيع أن نترجم كلمة "يعتبرون" إلى "يتوهمون" .

١٠ - إرنست رينـــان "مـــا هى الأمـة؟" فى كـتـابه " Oeuvres Completes .١. p.892. ويضيف :"يجب أن يكون كل المواطنين الفرنسين قد نسوا سان بارت لمى ومذبحة ميـــــدى فى القرن الثالث عشر . . . ." .

١١ - إرنست جلنر "الفكر والتغيير" ص ١٦٩.

١٢ - على سبيل المثال فهوبسباوم يثبت ذلك بقوله إنه فى عام ١٧٨٩ كان عددهم أربعمائة ألف من عدد ثلاثة وعشرين مليونا. انظر كتابه "عهد الثورة" ص ٧٨. ولكن هل كان ممكنا تخيل تلك الصورة الإحصائية عن النبلاء فى عهد نظام الحكم القديم ؟

## الفصل الثانى

# الجذور الحضارية

لا يوجد رمز معبر عن ثقافة القومية المعاصرة أكثر من النصب التذكارية ومقابر الجندى المجهول . والتوقير الاحتفالى العام الذى يصبغ على هذه الآثار بسبب كونها إما فارغة عن عمد أو أنه ليس معروفا من يرقد بداخلها وهو ما لم يكن له سوابق فى الأزمان السابقة [١]. ولكى تشعر بقوة هذا التوجه المعاصر يجب على المرء أن يتخيل رد الفعل العام تجاه الفرد الذى شغل نفسه بالكشف عن اسم الجندى المجهول أو أصر على ملء المقبرة الفارغة بعظام حقيقية . ويعد ذلك نوعا من تدنيس المقدسات من وجهة النظر المعاصرة ، بالرغم من أن تلك المقابر خالية من العظام البشرية الميتة أو حتى من الأرواح الخالدة ، لكنها مع ذلك محاطة بهالة من الخيالات القومية [٢]. وهذا هو السبب الذى يجعل العديد من الأمم تمتلك مثل تلك المقابر دون الحاجة لتحديد هوية وجنسية شاغليها الغائبين فلا يمكن أن يكونوا سوى أمريكيين أو ألمان أو أرجنتينيين .

وتبدو الأهمية الحضارية لمثل تلك المبانى والآثار أكثر وضوحا إذا حاول الإنسان أن يتخيل على سبيل المثال قبرا للماركسيين المجهولين أو نصبا تذكاريا لليبراليين ، فهل يمكن تجنب إحساس العبثية فى هذا التخيل؟ والسبب فى هذا هو أنه لا الماركسية ولا الليبرالية مهتمتين بالموت والخلود . وإذا كان التوهم القومى مهتما بهذه الأمور فإن هذا يقترح تماثلا قويا مع التوهمات الدينية . وبما أن هذا التماثل ليس من قبيل الصدفة فربما يكون من المفيد البدء فى البحث فى الجذور الحضارية للقومية ، ويكون الموت آخر سلسلة متكاملة من المصائب .

إذا كان أسلوب وفاة الإنسان يبدو عادة عشوائيا فإن فكرة كونه – لا محالة – ميتا لا مفر منها . والحياة الإنسانية مليئة بمثل تلك التشكيلات من الحتميات والصدف ، فكل منا يدرك حتمية وتصادف تركيبه الوراثى وجنسه وعمره وقدراته البدنية ولغاتنا الأم إلى غير ذلك . والميزة العظيمة لنظرات الدين التقليدية للعالم – والتى يجب عزلها بالطبع عن دورها فى إضفاء شرعية على بعض أنظمة السيطرة والاستغلال – كانت هى انشغال تلك النظرات بالإنسان فى عالمه من حيث كونه مخلوقا ومن حيث كنه الحياة وتغيرها وتنوعها . ويرجع الاستمرار غير العادى للبوذية والمسيحية والإسلام

لآلاف السنين فى تشكيلات اجتماعية متعددة لاستجاباتهم المتخيلة لحمل البشر الهائل من الآلام والمرض والتشويه والأحزان وكبر السن والموت . لماذا ولدت أعمى؟ لماذا يكون أعز صديق لى مشلولا ؟ لماذا تكون ابنتى متخلفة عقليا ؟ كل هذه أسئلة تحاول الديانات الإجابة عنها . ونقطة الضعف العظيمة فى كل اتجاهات الفكر التقدمى الثورى بما فيها الماركسية تكمن فى أن مثل تلك الأسئلة تواجه بصمت متوجل [٣]. وفى نفس الوقت وبطرق مختلفة يستجيب الفكر الدينى أيضا إلى جوهريات الخلود غير الواضحة عن طريق تحويل القضاء (الموت) إلى استمرارية مثل "كرما" أو "*الخطيئة الأولى*" أو ما شابه ذلك. وبهذه الطريقة فإن الفكر الدينى يشغل نفسه بالروابط بين الموتى والذين لم يولدوا بعد ؛ أى بنظرية إعادة البعث Re-generation فمن منا يشهد لحظة ولادة طفله دون أن يشعر – ولو بشكل غير مكتمل – بمزيج من الارتباط والمصادفة والقدرية فى شكل متواصل . وثانية فإن عيب الفكر التقدمى الثورى هو العدائية الشديدة لأى فكرة تحمل صفة الاستمرار والتواصل .

أقدم تلك الملحوظات البسيطة – فى المقام الأول – لأنه فى غرب أوروبا لم يكن القرن الثامن عشر فقط الفجر الأول لعصر القومية ، بل كان ذلك القرن أيضا مغرب الفكر الدينى . وقد جلب عصر التنوير والتفكير العقلانى معه ظلامه الخاص . ومع انحسار المعتقد الدينى كان الألم والمعاناة اللذين سببتهما تلك العقائد باقيين لم يزولا. فعدم الإيمان بالجنة يجعل القدرية والقدر المحتوم أكثر عشوائية ، وعبثية الخلاص هى أكثر شىء يجعل التواصل والاستمرار ضرورة. وكان المطلوب إذن هو التحويل الدنيوى للقدرية (ويعنى بالقدرية الموت المحتوم والنهاية) إلى استمرار وتواصل ، والحوادث الطارئة إلى معنى . وكما سنرى فإن فكرة الوطن والقومية تعد من أكثر الأشياء التى تتناسب مع ذلك التحول . وإذا كانت الدول المبنية على أساس قومى دولاً يسلم بها على أنها جديدة وتاريخية ، فإن الدول التى تكتسب كيانها السياسى منها دائما ما تظهر وكأنها تخرج من ماضٍ سحيق [٤] والأهم من ذلك فهى تسير إلى مستقبل غير محدود . وسحر القومية هو تحويل الحظ إلى مصير. ويمكننا أن نسلم بما يقول دبرى "نعم ، إنه من قبيل الصدفة البحتة أننى ولدت فرنسيا ، ولكن على كل حال ففرنسا خالدة".

ولا أحتاج أن أقول إننى لا أدعى أن ظهور القومية فى نهاية القرن الثامن عشر كان نتاجا لمحو الثوابت الدينية ، ولا أدعى أيضا أن ذلك المحو فى حد ذاته لا يحتاج لشرح مفصل. ولا أقترح أيضا أن يبطل الفكر القومى بطريقة ما الدين وينسخه . وكل ما أقترحه هو وجوب فهم القومية بتوحيدها ليس مع أيديولوجيات سياسية فى دائرة الوعى ، ولكن مع الأنظمة الحضارية السابقة عليها والتي ظهرت من خلالها ، كما ظهرت ضدها .

إن النسقين الحضاريين المناسبين لغرض الكتاب هما المجتمع الدينى وحكم الأسرات ؛ لأن كلا منهما فى أوجهما كانا نسقين حتميين ، وكانا فى أيامهما ، كالجنسية الآن ، فكرة مسلَّم بها . ولهذا فإنه من الأساسى أن ندرس ما الذى أعطى هذين النسقين الحضاريين وجودهما ، وفى نفس الوقت ندرس ونوضح بعض العناصر الأساسية لانحلالهما.

## المجتمع الدينى

لا شئ يثير العجب أكثر من الامتداد المكانى للأمة الإسلامية من المغرب حتى أرخبيل السولو ، وتلك المساحة التى تحتلها المسيحية من براجواى إلى اليابان ، والمساحة التى يحتلها العالم البوذى من سريلانكا حتى شبه الجزيرة الكورية . وكل الحضارات القائمة على أساس دينى – والتى يمكننا أن نضيف إليها الكمفشيوسية – تضمنت مفاهيم عن مجتمعات عملاقة . ولكن المسيحية والأمة الإسلامية وحتى المملكة الوسطى ، التى بالرغم من أننا نرى أنها الصين فى الوقت الحالى ، لم تكن تتخيل نفسها الصين ، بل تتوهم نفسها مركزية متخيلة من خلال لغة مقدسة ونص مكتوب . وخذ الإسلام مثلا ، فإذا تقابل اثنان فى مكة لا يعرف كلاهما لغة الآخر ولا يستطيعان التواصل شفهيا فهما مع ذلك يفهمان رموزهما الكتابية ideographs ؛ لأن النصوص المقدسة التى يشتركان فيها موجودة بالعربية الفصحى . لهذا السبب فإن الخط العربى يقوم بنفس الوظيفة التى تقوم بها الرسوم الكتابية الصينية من خلق جماعة عن طريق الرموز لا الأصوات. وعلى هذا فلغة الرياضيات اليوم تلعب نفس الدور التقليدى ، فما يسميه التايلنديون "زائد" ليس معروفا عند الرومانيين والعكس صحيح ، ولكنهما (التايلندى والرومانى) يفهمان الرمز(+). فكل المجتمعات الكلاسيكية كانت ترى نفسها على أنها مركزية فى العالم اعتمادا على لغة مقدسة مرتبطة بنسق قوة غير أرضى . ولذلك فإن اتساع اللاتينية المكتوبة أو البالية المكتوبة أو العربية المكتوبة أوالصينية المكتوبة كان غير محدود نظريا . فى الواقع ، وبقدر ما كانت اللغة المكتوبة أكثر مواتا وأبعد عن الحديث بقدر ما كانت أفضل ؛ لأن كل فرد يستطيع أن ينفتح على عالم نقى كامل من الرموز النقية الخالصة .

ولكن لهذه المجتمعات الكلاسيكية المترابطة عن طريق لغة مقدسة صفة تميزها عن المجتمعات المتخيلة فى الأمم الحديثة . ويكمن أحد الفروق الجوهرية فى أن المجتمعات القديمة كانت تثق بالقداسة المتفردة للغاتها وبالتالى فى أفكارها عن العضوية. وكان المندريون الصينيون يقبلون الأجانب الذين يستطيعون بعد عناء شديد رسم رموز المملكة الوسطى ، فكان هؤلاء الأجانب فى منتصف الطريق للاندماج فى المجتمع (٥) ؛

لأن نصف المتحضر أفضل بكثير من الهمجي . ولم يكن هذا الاتجاه بالتأكيد حكرا على الصينيين ولا من تراث الأيام الغابرة . فخذ على سبيل المثال هذه ال"سياسة مع البرابرة" التي صاغها الليبرالي الكولبي بيدرو فيرمين دو فيرجاس في بداية القرن التاسع عشر:

**"لكي نتوسع في زراعتنا يجب أن نعلم الهنود الإسبانية فكسلهم وغباؤهم وتجاهلهم لكل ما هو عادي من تطلعات ومحاولات يجعل المرء يعتقد بأنهم يأتون من جنس متدن يتدهور كلما ابتعدت عن الأصل. . . . وأعتقد أنه سيكون من المفضل أن نقضي على هؤلاء الهنود عن طريق الاندماج مع البيض ونعطيهم ملكيات أراض خاصة ونحررهم من القيود والالتزامات (٦)"**

يا له من مدهش أن هذا الليبرالي ما يزال يقترح إفناء الهنود جزئيا من خلال إعفائهم من الجزية وإعطائهم ملكيات خاصة من الأراضي بدلا من القضاء عليهم بالبندقية والميكروب كما فعل أحفاده في البرازيل والأرجنتين ، وكما بدأت الولايات المتحدة تفعل بعد ذلك بقليل. والجدير بالملاحظة مع تلك الوحشية المترفعة والتفاؤل العام بأن الهندي يمكن استرداده (يعني إدخاله إلى عالم البيض المتحضر من وجهة نظره) بالتعايش مع البحارة البيض "المتحضرين" وحيازة الملكيات الخاصة ككل الناس . ويعتبر اتجاه فرنين مختلفا تماما عن اتجاه المستعمرين الأوربيين الذين كانوا يفضلون الملايويين والجارخيين والهاوزا الحقيقيين على أنصاف المتربين وأنصاف المتعلمين من السكان الأصليين كال"ووجز" وغيرهم .

ومع ذلك فلو أن اللغات المقدسة الصامتة كانت الوسيلة التي استطاع الناس من خلالها تخيل المجتمعات القديمة ، فإن حقيقة تلك الخيالات تعتمد على فكرة غريبة لحد كبير على العقلية الغربية المعاصرة ، وهي عدم عشوائية العلامة . فالكتابة الصينية واللاتينية والعربية مستقاة من الواقع وليست تمثيلات مصطنعة عشوائيا للواقع . ولسنا بمنأى عن الصراع الطويل حول اللغة المناسبة اللاتينية أو اللهجة المحلية للجماهير. وفي التراث الإسلامي ، وحتى فترة قريبة ، لم يكن القرآن قابلا للترجمة ، ولذلك لم يترجم لأنه لا يمكن استقاء الحقيقة التي يرسلها الله إلا من خلال رموز الكتابة العربية التي لا يمكن الاستعاضة عنها . فلا توجد هنا فكرة عن عالم معزول عن اللغة ، وأن كل اللغات هي أنظمة رمزية متساوية يسهل التبادل من خلالها. وعلى أثر ذلك فإن حقيقة علاقات الأشياء يمكن إدراكها فقط عن طريق نسق مفضل واحد من التمثيلات ؛ أي لغة الحقيقة مثل لاتينية الكنيسة وعربية القرآن أو صينية التحقيق (٧) . وبما أنها لغات الحقيقة فإنها تتشرب بدافع غريب عن القومية وهو دافع التحول . ولا

أقصد بالتحول قبول عقائد دينية معينة ، بل الامتصاص الكيميائى ؛ فيصبح *البربرى الهمجى* من الملكة الوسطى ، ويصبح ال"ريف" Rif مسلما ، ويصبح ال"إلونجو" مسيحيا . كل طبيعة وجود الإنسان سهلة التغيير والتشكيل بحسب التقاليد الدينية . قارن على هذا الأساس بين عظمة لغات العالم القديم هذه التى تعلو على لهجاتها (ونعنى بلهجاتها التنميطات اللغوية المستخدمة فى كل بلد عربى مثلا فهى تختلف عن الفصحى) مع الإسبرانتو والفولابك المتجاهلتين بينها . وعلى أية حال ، فإن إمكانية التحول من خلال اللغة المقدسة هى التى يسّرت للإنجليزى أن يصبح بابا[٨] ، وللمانشو أن يصبح ابنا للسماء.

ولكن مع أن اللغات المقدسة مكنت من تخيل مجتمعات قديمة كالمسيحية ، فلا يمكن شرح الحجم الواقعى لإمكانية تلك المجتمعات عن طريق الكتابة المقدسة *وحدها*. فقد كان قراؤها على أية حال كأنهم جزر صخرية صغيرة من المتعلمين على سطح محيط كبير من الجهلة [٩]. ويتطلب التفسير المكتمل إلقاء نظرة على علاقة المتعلمين بمجتمعاتهم . فسيكون من الخطأ النظر إلى هؤلاء المتعلمين على أنهم تقنيون اختصاصهم اللاهوت . فاللغات التى كانوا يتكلمونها وإن كانت صعبة الفهم لم تحتو على صعوبات الفهم الموجودة فى لغات المحاميين أو الاقتصاديين ؛ لأنها تقع على هامش فكرة المجتمع عن الحقيقة . ولكن المتعلمين كانوا موهوبين وفئة استراتيجية فى سلم الوجود ذى القمة السماوية [١٠]. وكانت المفاهيم الأساسية عن الجماعات مركزية وتراتبية أكثر منها أفقية وشاملة . ويمكن فهم القوة المثيرة للدهشة التى كانت البابوية تتمتع بها أيام مجدها فقط من خلال طبقة رجال الدين الممتدة فى أنحاء أوروبا والتى كانت تستخدم الكتابة اللاتينية مع فهم للعالم – يشترك فيه – *كل الناس تقريبا* – يقول بأن طبقة المثقفين المستخدمة للغتين تصل الأرض بالسماء عن طريق وصل اللهجات المحلية باللاتينية . وتعكس رهبة العزل الكنسى تلك الكوزمولوجية (الكزمولوجية هى فكرة ترتيب العالم).

ومع كل العظمة والقوة التى كانت عليها المجتمعات المتخيلة القائمة على أسس دينية ، فإن *تماسكها غير الواعى* بدأ يضعف بصورة مضطردة بعد أواخر العصور الوسطى . وسأركز هنا على اثنين من بين الأسباب التى ساهمت فى هذا الضعف يرتبطان بصورة مباشرة بالقداسة الخاصة بتلك المجتمعات.

الأول ، هو أثر الاكتشافات فى العالم غير الأوروبى الذى – بصورة أساسية ولكن

ليس مطلقا – "وسع المجال الثقافى والجغرافى الأوروبى ، ووسع ، بالتالى ، مفاهيم الناس عن الأشكال الممكنة من الحياة البشرية" (١١) . وتظهر هذه العملية بوضوح فى أعظم كتب الرحلات الأوروبية .

فانظر إلى هذا الوصف الفخيم لـ"كوبلا خان" للمسيحى الفينيسى الطيب ماركو بولو فى نهاية القرن الثالث عشر (١٢).

> **بعد تحقيق هذا النصر العظيم عاد الخان العظيم إلى العاصمة كامبالو بالنصر والفخار. وكان ذلك فى شهر نوفمبر ، واستمر فى الحياة هناك فى شهرى فبراير ومارس الذى كان فيه بعد قليل عيد القيامة . ولما كان يعرف أن هذا العيد كان من أكبر أعيادنا أمر كل المسيحيين أن يوافوه ويحضروا معهم كتابهم الذى يتضمن الأناجيل الأربعة للرسل الأربعة . وبعد أن أمر بأن يعطر الكتاب عدة مرات فى مراسيم احتفالية قبله بكل إخلاص وأمر كل النبلاء الموجودين بأن يفعلوا نفس الشىء . وكانت هذه عادته عند كل احتفال مسيحى أساسى مثل القيامة وعيد الميلاد . وكان يفعل ذلك أيضا فى أعياد السرقانيين (المسلمين) واليهود والوثنيين. ولما سُئل عن دافع تصرفه هذا قال "إن هناك أربعة أنبياء عظام يقدسهم ويعبدهم مختلف أجناس البشر ، فالمسيحيون ينظرون إلى المسيح على أنه إلههم ، ويعبد المسلمون (الذين كان يسميهم السرقانيين من قبل) محمدا ، ويعبد اليهود موسى . أما الوثنيون فيعبدون سوجومومبار خان الذى يمثل أعظم الأوثان . وأنا أعظم الأربعة جميعهم وأسئلهم مساعدة من كان منهم متمكنا فى السماء بحق" ولكن من خلال الطريقة التى كان يتصرف بها عظمته تجاههم كان ينظر للمسيحية على أنها الأكثر حقيقية والأفضل .**

وليس الشىء المثير للانتباه فى هذا النص هو النسبية الدينية الهادئة للملك المنغولى العظيم بقدر لغة واتجاه ماركو بولو. فمع أنه كان يكتب لمسيحيين أوروبيين مثله فلم يخطر بباله أن يطلق على كوبلا تسمية منافق أو وثنى . وكان ذلك بلا شك ؛ لأنه بالنظر لعدد الرعية واتساع المساحة وحجم الوقار يتفوق على كل الحكام الذين كانوا أو ما زالوا موجودين فى العالم كله(١٣) . وفى الاستخدام غير الواعى لضمير المتكلمين "نا" الذى أصبح ضمير الغائبين وفى وصف الديانة المسيحية بأنها "الأكثر حقيقية"

بدلا من كونها "الحقيقية" يمكننا أن نستشف بذور مكانية الأديان (أى سيطرة كل دين على مساحة مكانية معينة) التى تتنبأ باستخدام القوميين لتعبيرات مثل "أمتنا هى الأفضل" فى صيغ مقارنة عندما يكون هناك وجه للمقارنة.

وتقدم افتتاحية الخطاب الذى كتبه الرحالة الفارسى "ريكا" لصديقه "إيبان" من باريس عام ١٧١٢ تناقضا دالا [١٤].

**يعتبر البابا زعيم المسيحيين ، فهم يعبدونه كالصنم القديم ، وهو ذو سلطان عظيم حتى على الأمراء ؛ لأنه يستطيع أن يعزلهم بمنتهى السهولة ، كما يستطيع سلاطيننا العظام أن يعزلوا ملوك إيرمينيا أو جورجيا. ولكن لم يعد أحد يخافه الآن وهو يدعى أنه خليفة أحد المسيحيين الأول ، القديس بطرس . وهى بالتأكيد سلفية غنية ، فثرواته طائلة وتحت تصرفه مملكة عظيمة .**

والاصطناع الكاثوليكى المعقد للقرن الثامن عشر يعكس الواقعية الساذجة لسلفه فى القرن الثالث عشر . ولكن النسبية والمكانية أصبحتا الآن واعيتين تماما وتحملان محتوى سياسيا . ويبدو من غير المتعقل رؤية امتداد متناقض لهذا التقليد دائم التطور فى تجسيد آيات الله الخومينى للشيطان ليس على أنه كفر ولا حتى شخصا شيطانيا بل على أنه أمة.

الثانى ، هو النزول التدريجى للغة المقدسة نفسها ، فالكتابة فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى شهدت "أن اللاتينية لم تكن لغة التعليم فحسب بل كانت هى اللغة الوحيدة التى تدرس."[١٥] وهذا فقط يوضح قداسة اللاتينية ، ولم يعتقد أحد أن أية لغة أخرى تستحق التدريس . وتغير ذلك سريعا جدا بحلول القرن السادس عشر. ولسنا هنا فى معرض شرح أسباب ذلك التغير – سيتم مناقشة أهمية الطباعة لاحقا – ولكن من الكافى أن نذكر أنفسنا بمقدارها وأهميتها . يقدر فبفر ومارتن أن ٧٧٪ من الكتب المطبوعة قبل عام ١٥٠٠ كانت باللاتينية ، ويعنى ذلك أيضا أن ٢٣٪ من الكتب كانت بالفعل مطبوعة باللهجات المحلية [١٦]. وكانت ٨ فقط من الـ ٨٨ طبعة –التى طبعت فى باريس فى ١٥٠١ – مطبوعة باللاتينية . وبعد عام ١٥٧٥ كانت أغلبية الكتب مطبوعة بالفرنسية[١٧] . وبالرغم من العودة المؤقتة التى حدثت نتيجة لحركة الإصلاح المضاد فإن سيطرة اللاتينية كانت منتهية لا محالة . ولسنا نتكلم عن نزعة عامة ، فبعد ذلك بقليل ، ولكن ليس بسرعة مذهلة ، توقفت اللاتينية عن كونها لغة مشتركة للمثقفين عبر أوروبا . ففى القرن السابع عشر كان هوبز (١٥٨٨ – ١٦٧٥) شخصا مشهورا فى كل القارة بسبب أنه يكتب بلغة "الحقيقة". وشكسبير (١٥٦٤ –

١٦١٦) الذى يكتب باللهجة المحلية (نعنى هنا الإنجليزية) لم يكن معروفا فيما وراء القناة الإنجليزية [١٨]. ولو لم تكن الإنجليزية قد أصبحت فيما بعد اللغة الاستعمارية الأساسية للعالم بعد مائتى عام ، لكان شكسبير قد ظل مجهولا. وفى نفس الوقت فإن معاصرى هذين الرجلين عبر القناة الإنجليزية ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠) وبسكال (١٦٢٣ –١٦٦٢) كتبا معظم مراسلاتهما باللاتينية ، ولكن كل مراسلات فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨) تقريبا كانت باللهجة المحلية(١٩). "وبعد ١٦٤٠ ومع ظهور كتب أقل باللاتينية وظهور كتب أكثر باللهجات المحلية لم يعد النشر تجارة دولية."[٢٠] باختصار، فإن سقوط اللاتينية يعبر عن عملية أكبر ؛ حيث كانت المجتمعات المقدسة التى تربطها لغة قديمة مقدسة قد بدأت تنحل تدريجيا وتتجمع وتتحدد مكانيا .

## الحكم الوراثى

يبدو الأمر صعبا فى أيامنا هذه أن يضع المرء نفسه فى عالم يظهر فيه لمعظم الناس أن الحكم الوراثى هو الشكل السياسى الوحيد الذى يمكن تخيله للحكم . فالملكيات فى شكلها الأساسى تعتبر معارضة فى الأمور الجوهرية لكل المفاهيم الحديثة عن الحياة السياسية . والملكية تنظم وتجمع كل شىء حول مركز عالٍ يستمد شرعيته من السماء وليس من الشعب –الذى يمثل على أية حال – رعية وليس مواطنين . إن سلطة الدولة وسيادتها – فى المفهوم الحديث – عامة ونافذة بشكل كامل على كل شبر من الأرض الديموقراطية بحكم القانون. ولكن الحدود – فى التخيلات القديمة عندما كانت الدول تعرف بمركزها – كانت مفتوحة غير محددة المعالم ، وكانت السلطات تنوب فى بعضها البعض بلا مفسر[٢١] . وعلى ذلك وبمنتهى التناقض كان من السهل على الممالك والإمبراطوريات القديمة أن تحافظ على سلطانها وحكمها لشعوب متعددة الأجناس بشكل كبير وحتى متباعدة فى غالب الأحيان لمدد طويلة من الزمن[٢٢] .

ويجب أن يتذكر المرء أيضا أن هذه الممالك القديمة لم تتوسع فقط عن طريق الحروب بل أيضا عن طريق سياسات جنسية تختلف تماما فى نوعها عن تلك التى تمارس الآن . ومن خلال قاعدة الرأسية العامة تجمع الزيجات الملكية شعوب مختلفة تحت سلطة واحدة. وتعتبر أسرة هابسبورج مثلا جيدا على ذلك . وكما يعبر القول الشائع هنا باختصار تكون كنيات آخر الملوك Bella gerant alii tu felix Austria nube

**إمبراطور النمسا وملك المجر وبوهيميا ودلماتيا وكرواتيا وسلوفينيا وجليكا ولودميريا وأليريا. ملك أورشليم .. إلخ. الدوق الأكبر للنمسا ودوق توسكانى وكراكو الكبير، دوق لوثارينجيا وسالسبورج وستيريا**

**وكرينثيا ودوق كرنيولا وبوكوفينيا ودوق ترانسلفانيا ومرجرافا ومورافيا الأكبر، ودوق سيليزيا العليا والسفلى ومودينا وبارما وبياكنزا وجواستلا ، دوق أوسشفيتس وساتور وتيشن وفرايوال وراجوزا وزارا، الكونت الأمير لهابسبورج وتيرول وكيبورج وجورتز وجرانيسكا، دوق ترينت وبريزن ومارجريف لاوسيتس العليا والسفلى (مارجريف رتبة قائد عسكرى لإمارة على الحدود وهى رتبة ألمانية)، كونت هوهنامبز وفلدكريش وبرجنز وزوننبرج وغيرها ، ولورد تريست وكاتارو وما أعلى خط الريح ، وفيفود سيرفيا العظيم .. إلخ**

يلاحظ جاسزى – وهو على حق – أنه "لا يخلو تسجيل تلك الزيجات التى لا حصر لها والولايات والمستعمرات لعائلة هابسبورج من عنصر كوميدى"

وفى الممالك التى كان تعدد الزيجات فيها ممنوعا بحكم الدين ، كانت أنظمة المحظيات المعقدة ضرورية لحفظ وحدة المملكة . وفى الحقيقة فإن الأسر الملكية استمدت علوها فى غالب الأحيان – إذا جنبنا أى عامل سماوى – مما نسميه بتمازج الأجناس (٢٤) . فكان هذا التمازج علامة على وضع سيادى . ومن هذا القبيل فإنه لم تحكم أية أسرة "إنجليزية" لندن منذ القرن الحادى عشر أو ربما قبل ذلك. وهل يمكننا أن نعطى جنسية بعينها لأسرة بوربون (٢٥) ؟

ومع ذلك وأثناء القرن السابع عشر – ولأسباب لن توقفنا هنا – بدأت الشرعية الآلية للملكية المقدسة فى أوروبا *الغربية* فى *الزوال البطىء* . ففى عام ١٦٤٩ – أول ثورات العالم الحديث – أعدم شارلز ستيوارت (شارلز ملك إنجلترالذى أعدم أثناء الثورة البيضاء فى إنجلترا بقيادة كرومويل) وفى العقد الخامس من نفس القرن ، حكم واحد من العوام – وليس ملكا – واحدة من الدول الأوروبية الأكثر أهمية . ومع ذلك وحتى فى عصر بوب وأديسون كانت آن ستيورت ما تزال تشفى المرضى عن طريق *اللمسة من اليد الملكية* . وكان أعضاء أسرة البوربون –لويس الخامس عشر والسادس عشر– يمارسون نفس طقس الشفاء فى فرنسا فى عصر التنوير حتى نهاية الحكم القديم (٢٦) . ولكن بعد عام ١٧٨٩ وجب الدفاع بوعى وبصراحة عن مبدأ الشرعية . وفى أثناء عملية الدفاع هذه أصبحت الملكية نظاما نصف معمم ، فأصبح "*التنو*" وابن السماء أباطرة . وفى سيام البعيدة أرسل راما الخامس –شولالونجكورن– أبناءه وأبناء أخيه *إلى* بلاط بطرسبورج ولندن وبرلين ليتعلموا دخائل النموذج العالمى . وفى ١٨٨٧ شرع قاعدة ولاية العهد قانونيا على أساس البكور (هو أن الابن الأكبر يرث

الملك ) فأدخل سيام بهذا الشكل فى "خط ممالك أوروبا "المتحضرة نفسها" [٢٧] وقد جلب النظام الجديد للعرش فى ١٩١٠ ملكا شاذا جنسيا وغريب الأطوار كان ممكنا – بالتأكيد – تخطيه فى النظام القديم ، ومع ذلك فموافقة الممالك على اعتلائه العرش كراما السادس قد توجت بحضور أمراء من بريطانيا وروسيا واليونان والسويد والدنمارك واليابان لحفل تتويجه [٢٨].

بعد ذلك وفى عام ١٩١٤ كانت الدول الملكية تمثل أغلبية أعضاء النظام السياسى العالمى . ولكن –وكما سنفصل لاحقا– فإن بعض الأسر الحاكمة كانت تحاول أن تصل لخاتم قومى مميز بعد ذبول مبدأ الشرعية القديم فى صمت . وبينما كانت جيوش فريدريك الأكبر (١٧٤٠ – ١٧٨٦) مليئة بالأجانب كانت جيوش ابن أخيه العظيم فريدرش فيلهالم الثالث (١٧٩٧ – ١٨٤٠) – نتيجة للإصلاحات الكبيرة لشارنهورست وجنيسناو وكلاوسفايتس – جيوشا قومية بروسية بالكامل [٢٩] .

### إدراك الزمن

سنكون محدودى النظر – مع ذلك – إذا اعتقدنا أن المجتمعات المتخيلة للقوميات خرجت ببساطة من المجتمعات الدينية والدول الملكية وحلت محلها . وفى أثناء زوال المجتمعات المقدسة واللغات المقدسة والأسر المقدسة جرت عملية تغير جذرى فى أساليب فهم العالم ، وهذا –أكثر من كل شىء– مهد السبيل للتفكير فى القومية .

ولكى يدرك المرء هذا التغيير ، فإنه من النافع أن نتحول للتمثيل المرئى لتلك المجتمعات المقدسة مثل النقوش البارزة والشبابيك ذات الزجاج الملون فى كنائس العصور الوسطى أو لوحات الرسامين الإيطاليين والفلامنجيين الأوائل . والسمة المميزة لمثل هذه التمثيلات هى أنها مشابهة بشكل خداع "للرداء الحديث". فالرعاة الذين تبعوا النجم إلى المعلف الذى ولد فيه المسيح يحملون صفات الفلاحين البرجنديين ، كما تصور مريم العذراء على شكل بنت أحد التجار التوسكانيين (توسكانى : مقاطعة كبيرة فى إيطاليا). وفى العديد من اللوحات يمثل القديس الشفيع فى حلة كاملة لحاكم أو نبيل راكعا فى خشوع بجانب الرعاة . وما يبدو الآن غير ملائم للسياق كان يبدو – بكل تأكيد – طبيعيا تماما لعيون العُبَاد فى العصور الوسطى . نحن إذن فى مواجهة عالم يعتمد تصوير واقع متخيل فيه بشكل كبير على السمع والبصر. اتخذت المسيحية شكلها العالمى الواسع من خلال الكثير من الخصوصيات والمميزات : بعض النقوش والشبابيك والمواعظ والحكايات والمسرحيات الأخلاقية (المسرحيات الأخلاقية هى نوع من المسرح الدينى المشهور فى العصور الوسطى ،

وكانت الكنيسة ترعاها لتقدم فيها بعض القصص المستمدة من تعاليم العهد الجديد للناس العاديين الذين لا يعرفون اللاتينية لقراءة الإنجيل) وبعض الآثار. وبينما كان رجال الدين فى مختلف أنحاء أوروبا – ممن يستخدمون اللاتينية – عنصرا أساسيا فى تكوين التخيل المسيحى ، كان توصيل مفاهيمهم للجماهير الأمية عن طريق الإبداعات السمعية والبصرية التى كانت دائما شخصية ومحددة لا يقل أهمية . وكان قس الأبرشية (كنيسة صغيرة فى كل قرية تتبع كنيسة كبيرة قريبة) – المتواضع والذى كانت أصوله وأخطاؤه معروفة لكل من يستمع لوعظاته – كان الوسيط المباشر بين أبناء أبرشيته والسماء . وكان هذا التضاد بين الكونى العام والدنيوى المحدد يعنى أنه مهما كان المجتمع المسيحى واسعا كما كان معروفا ؛ فكان لزاما عليه أن يجسد نفسه بأساليب متعددة للمجتمع السوابى أو الأندلسى على أنه مطابق لكل منهما على حدة . وتصوير مريم العذراء بملامح سامية أو بأزياء القرن الأول بنفس أسلوب الاسترجاع الموجود فى المتاحف الحديثة كان من الصعب تخيله ؛ لأن العقلية المسيحية فى العصور الوسطى لم تكن تعرف التاريخ على أنه سلسلة لا نهائية من العلل والنتائج أو تغيرات جذرية بين الماضى والحاضر [٣٠] . ولاحظ بلوش اعتقاد الناس أنهم قريبون من نهاية العالم ، بمعنى أن العودة الثانية للمسيح قد تكون فى أى وقت ، وقال القديس بولس : "يوم الرب يأتى كاللص فى الليل" وعلى ذلك فكان طبيعيا بالنسبة لمؤرخ القرن الثانى عشر العظيم "بيشوب أوتو من فريزنج" أن يقول مرارا "نحن الموجودين فى آخر الزمان". وختم بلوش قائلا إن رجال العصور الوسطى بمجرد أن "يسلموا عقولهم للتأمل لا يوجد شيء أبعد عن تفكيرهم من مستقبل عريض لجنس بشرى شاب وقوى ." [٣١]

ويعطى أورباخ صورة لا تنسى لهذا الشكل من الوعى [٣٢] :

> **إذا كان حدث مثل تضحية إسحاق يفسر على أنه تمهيد سابق على تضحية المسيح ، فالحدث الأخير (تضحية المسيح) معلن وموعود فى الحدث الأول (تضحية إسحاق) ، والثانى يحقق الأول ، إذن فثمة علاقة بين حدثين لا تربطهما صلة زمنية أو علية ، لا يمكن تفسيرها عقليا فى شكل أفقى بل يمكن فقط أن تتكون إذا كان هذان الحدثان مرتبطين أفقيا بالعناية الإلهية . . وتلك العلاقة تستطيع وحدها أن تبني ذلك التصميم التاريخى وتقدم مفتاحا لفهمه . . لم يعد "الآن ، وهنا" مجرد حلقة ربط فى سلسلة من الأحداث الأرضية بل هما معا بشكل متزامن شيء دائما ما يتحقق وسيظل يتحقق فى المستقبل وهو فى عينى الله شيء خالد يتعدى الزمن ، شيء تحقق بالفعل فى**

نطاق من الأحداث الأرضية المتبعثرة .

ويؤكد – ومعه الحق – أن فكرة كفكرة التزامن غريبة علينا . فهى فكرة تنظر للزمن على أنه شيء قريب مما يسميه بنيامين «الزمن المسيحى» وهو تزامن للماضى والمستقبل فى الحاضر (٢٣). وفى ضوء هذه النظرة للأشياء لا يمكن أن يكون لتعبير مثل "فى نفس الوقت" أى معنى .

بدأ مفهومنا الخاص عن التزامن يتشكل منذ زمن بعيد . ويتصل ظهوره ، بالتأكيد ، بتطور العلوم الدنيوية بطرق يجب دراستها جيدا. ولكنه مفهوم فى غاية الأهمية لدرجة أن تجاهله ولو جزئيا سيصعب علينا سبر أغوار مسألة القومية . والشيء الذى حل محل مفهوم التزامن عبر الزمن فى العصور الوسطى هو، كما نستعيره من بنيامين ، فكرة "زمن متجانس فارغ" يكون فيه التزامن مستعرضا عبر الزمن ولا يحدده التمهيد السابق ثم التحقق ، بل يحدده التصادف الزمنى ، وتقيسه الساعة والنتيجة (٢٤) .

ويمكن أن يتضح سبب كون هذا التحول مهما – فى ميلاد المجتمع المتوهم على أساس القومية – بأجلى صوره إذا ما فكرنا فى البناء الأساسى لشكلين من أشكال التوهم انتشرا فى أوروبا فى القرن الثامن عشر لأول مرة وهما الرواية والصحف.(٢٥) فقد قدم هذان الشكلان الوسائل التقنية ل"إعادة تقديم" نوع المجتمعات المتخيلة ألا وهو الأمة .

خذ أولا بناء الرواية التقليدية التى لم تنطبق فحسب على بنية أعمال بلزاك العظيمة بل أيضا على بنية أى عمل عادى معاصر. فالرواية بالتأكيد وسيلة لتقديم التزامن فى "الزمن المتجانس المفرغ" أو يمكن أن تكون تغطية معقدة لتعبير "فى الوقت نفسه". ومن قبيل الإيضاح خذ عنصرا من حبكة رواية بسيطة وفيها يكون الرجل (ا) زوجة (ب) وعشيقة (ج) التى لها بدورها حبيب (د) . ويمكننا أن نتخيل جدولا زمنيا لهذا العنصر كما يلى :

الزمن ١

يتشاجر (ا) مع (ب) ويمارس (ج) و(د) الجنس

الزمن ٢

يتصل (ا) بـ(ج) و(ب) تتسوق و(د) يلعب البولو

الزمن ٣

(د) يسكر فى الحانة و(ا) يتعشى فى المنزل مع (ب) و(ج) تحلم حلما مشؤوما .

لاحظ أنه فى توالى الأحداث هذا لا يتقابل (ا) و(د) أبدا وفى الواقع فإنهما قد لا

يكونا على علم بوجود بعضهما البعض مطلقا إذا كانت (ج) حازقة فى لعب دورها [٣٦] . إذن فما الذى يربط (أ) ب(د)؟ يربطهما مفهومان مكملان لبعضهما : الأول أنهما فى نسيج "مجتمع" -كمجتمع "وسكس" أو "ليبيك" أو "لوس أنجلس" . هذه المجتمعات وحدات اجتماعية ذات واقع ثابت ومستقر لدرجة أن أعضاءها -(أ) و(د)- يمكن وصفهما على أنهما يمشيان بجوار بعضهما البعض فى الشارع دون التعارف ، ومع ذلك يظلان مرتبطين [٣٧] . والثانى أن (أ) و(د) يسكنان عقل القارئ العالم. فالقارئ وحده مثل الرب يرى (أ) يطلب (ج) فى التليفون و(ب) وهى تتسوق و(د) يلعب البولو . القارئ يرى كل ذلك فى وقت واحد . إن كل هذه الأحداث التى تؤدى فى نفس الساعة والتاريخ ويؤديها مؤدون قد لا يكونون يعرفون بوجود بعضهم البعض، توضح التجديد فى هذا العالم المتوهم الذى يخترعه المؤلف فى عقول القراء [٣٨].

تعتبر فكرة الكائن الاجتماعى الذى يتحرك بشكل موافق للنتيجة من خلال الزمن المتجانس المفرغ مثلا مطابقا لفكرة القومية التى يمكن فهمها كجماعة متماسكة تتحرك باضطراد إلى أعلى أو أسفل فى التاريخ [٣٩]. فلن يقابل الأمريكى ، أو حتى يعرف أسماء ، أكثر من حفنة من بين مائتين وأربعين ملون أمريكى وليست لديه فكرة عما هم بصدده فى أية لحظة ، ولكن لديه ثقة تامة فى أنشطتهم المتزامنة المضطردة المجهولة لديه .

وقد يبدو المنظور الذى أقترحه ملموسا بدرجة أكبر إذا تفقدنا باختصار أربعة نماذج قصصية من ثقافات وحقب مختلفة ، ومع ذلك فإن كل تلك الأعمال، إلا واحدا ، مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحركات القومية . فى عام ١٨٨٧ كتب "أبو القومية الفلبينية" خوزى ريزال رواية Nole Me Tangere التى تعتبر الآن أعظم إنجاز للأدب الفلبينى الحديث. وكانت أيضا أول رواية تقريبا يكتبها "إنديو" [٤٠]. وهكذا تبدأ بإعجاز: [٤١]

> **قرابة نهاية أكتوبر كان الدون سانتياجو دو لوس سانتوس الشهير بكابتن تياجو يقيم حفل عشاء . ومخالفا لعادته ، فقد أعلن عنها بعد ظهر اليوم نفسه فقط . وبالرغم من ذلك ، كان الحفل موضوع كل حديث فى بيناندو وفي أحياء أخرى من المدينة ، وربما أيضا في المدينة المسورة إنتراموروس . وفى هذه الأيام كان الكابتن تياجو يتمتع بسمعة المضيف الكريم السخى ، وكان من المعروف أن منزله -مثل بلده - لا يغلق أبوابه فى وجه شىء فيما عدا التجارة أو أى فكرة جديدة أو جريئة .**
>
> **لذلك جرت الأخبار كالصاعقة الكهربائية فى مجتمعات المتعطلين والمتسلقين والمتطفلين الذين خلقهم الله بجوده اللا محدود بكثرة**

ونماهم في مانيلا . فبعضهم تصيد ورنيشا لحذائه والبعض الآخر بحث عن أزرار لياقته ورابطة عنق . ولكن الجميع كانوا مشغولين بمشكلة كيف يسلمون على مضيفهم بالحميمية الكافية لإظهار الصداقة طويلة الأمد أو - إذا اقتضت الحاجة - ليعتذروا عن عدم الوصول مبكرا .

وقدم العشاء في بيت في شارع أنلوجو . وبما أننا لا نتذكر رقم البيت فسوف نصفه بشكل يجعله - رغم ذلك - معروفاً هذا إذا لم تكن الزلازل قد حطمته ، ولا نعتقد أن صاحبه قد أمر بهدمه ؛ لأن عملا كهذا عادة ما يترك لله أو للطبيعة ، التي تمتلك عقودا كثيرة -إلى جانب هذا - مع حكومتنا .

ولا نحتاج هنا لتعليق مفصل بل سيكون من الكافي أن نلاحظ منذ البداية مباشرة أن صورة حفل العشاء -الجديدة تماما على الكتابات الفلبينية - التي يناقشها مئات الناس غير المشار إلى أسمائهم ولا يعرفون بعضهم البعض في مناطق مختلفة من مانيلا ، ولكنها في شهر معين في حقبة معينة تخلق - فورا - المجتمع المتخيل . وفي عبارة "بيت في شارع أنلوجو" الذي "سوف نصفه بشكل يجعله رغم ذلك معروفا" سيكون الشخص الذي يعرف هو نحن القراء الفلبينيين . فالخروج العادي البسيط للبيت من زمن الرواية "الداخلي" إلى زمن الحياة اليومية لقراء مانيلا "الخارجي" يؤكد - كما يفعل التنويم المغناطيسي - على تماسك مجتمع واحد يضم الشخصيات والمؤلف والقراء ويتحرك للأمام في التاريخ [٤٢]. لاحظ أيضا النغمة ، فبينما لا يعرف ريزال أي شيء عن هويات قرائه الفردية يكتب لهم بحميمية ساخرة كما لو لم تكن علاقاتهم ببعضهم إشكالية في أقل تقديراتها [٤٣] .

ولا شيء يعطي المرء إحساسا فوكولوديا (نسبة إلى فوكو) أكبر بالانقطاع المفاجئ في الوعي أكثر من مقارنة نولي بالعمل الأدبي السابق العظيم الذي كتبه الإنديو فرنسيسكو بالاجتاس {بالتازار} "قصة فلورانت ولورا في مملكة ألبانيا" . Pinagdaanang Buhay ni Florante at ni Laura sa Cahariang Albania ويرجع تاريخ أول طبعة لهذا العمل إلى عام ١٨٦١ بالرغم من أنه قد يكون مكتوبا قبل ذلك في عام ١٨٣٨ [٤٤] . وبالرغم من أن بالاجتاس كان حيا عندما ولد ريزال فإن عالم عمله مختلف كلية عن عالم نولي . المكان في العمل -ألبانيا الخرافية في العصور الوسطى- بعيد كل البعد زمانيا ومكانيا عن بينوندو في ١٨٨٠وأبطاله -فلورانت وهو مسيحي ألباني نبيل وصديقه الحميم علاء الدين المسلم الأرستقراطي الفارسي -

يذكراننا بالفلبين ، فقط ، في العلاقة المسيحية الإسلامية . وبينما يخلط ريزال نثره الإسباني بكلمات من لغة "التاجالوج " ليبنى أثرا "واقعيا" أو ساخرا أو قوميا، يخلط بالاجاتاس -بدون وعى – عبارات إسبانية بلغة التاجلوج التى يستخدمها فى مربعاته ليضفى عظمة وقوة على معجمه . وكان المقصود من نولى أن تقرأ ، بينما كان المقصود من فلورنتا ولورا أن تغنى بصوت عال . والأمر المثير للدهشة هو تناول بالاجتاس للزمن ؛ فكما يلاحظ لومبيرا "لا يتبع تكشف الحبكة نسقا زمنيا ، فالقصة تبدأ من، المنتصف وتأتى لنا كاملة من خلال سلسلة خطب تقوم بدور الاسترجاع "(٤٥). حوالى نصف الرباعيات التى يبلغ عددها ٣٩٩ رباعية عبارة عن شرح لطفولة فلورنت وسنوات دراسته فى أثينا والفترة التى قضاها بعد ذلك فى العسكرية يقدمه البطل فى محادثة مع علاء الدين (٤٦). وكان "الاسترجاع المحكى" هو البديل الوحيد الذى ارتآه بالاجاتاس للقص المباشر الأحادى الخط . فإذا كنا نعرف شيئاً عن الماضى المتزامن لفلورنت وعلاء الدين فإن الذى يربطهما هو تجاور أصواتهما لا تركيب الملحمة . ولكم تبدو تلك التقنية بعيدة عن تقنية الرواية. "وفى الربيع ذاته الذى كان فلورنت ما يزال يدرس فيه فى أثينا نفى علاء الدين من بلاط مولاه. . . . . " وعلى ذلك فلم يعن لبالاجاتاس بأن يضع أبطاله فى "المجتمع" أو أن يقيم بينه وبين متفرجيه حوارا حولهم. وعلاوة على ذلك فلا يوجد الكثير من الفليبينية فى نصه إذا استبعدنا الفيض المنساب الرقيق من الكلمات التاجلوجية المتعددة المقاطع (٤٧).

وفى عام ١٨١٦ وقبل سبعين عاما من كتابة نولى كتب خوزيه جاك فرديناندز دى ليزاردى رواية اسمها «الببغاء الحاك». وهو أول عمل لأمريكا اللاتينية فى هذا الغرض الفنى . وكما يقول أحد النقاد ، فإن هذا النص "اتهام خطير شديد اللهجة للإدارة الإسبانية فى المكسيك ، فالجهل والخرافة والفساد هى سماتها الملحوظة بشكل كبير" (٤٨). والشكل الأساسى لهذه الرواية "القومية" يعبر عنه الوصف التالى للمحتوى (٤٩) :

> **من البداية ، كان بطل الببغاء الحاك يتعرض لتأثيرات سيئة . فالفتيات الجاهلات يغرسن فى أذهانهن الخرافات وأمه تتهمك فى نزواته ولم يكن لمدرسيه القدرة أو الكفاءة لتعويده على النظام . وبالرغم من أن أباه كان رجلا ذكيا يرغب فى أن يمارس ولده تجارة نافعة لا أن يضيف لدائرة المحامين أو المتطفلين فردا آخر إلا أن أم بيريكويلو التى تحبه حبا شديدا كانت الفائزة ؛ حيث أرسلت ابنها إلى الجامعة وبذلك تأكدت من أنه سيتعلم الخرافات الفارغة . وظل بيروكويلو جاهلا بلا أمل فى إصلاحه بالرغم من اللقاءات المتعددة**

**مع أناس عقلاء حكماء كثيرين . فلم يكن راغبا فى العمل أو أن يأخذ أى شيء مأخذ الجد ، وأصبح فيما بعد قسا ومقامرا ولصا وصبيا لصيدلي وطبيبا وموظفا فى مدينة صغيرة ، وهذه الأجزاء تسمح للكاتب أن يصف المستشفيات والسجون والقرى النائية والأديرة. . وفى نفس الوقت فبينما نقر بنقطة جوهرية عندما نقول إن الحكومة الإسبانية والنظام التعليمى يشجعان الكسل والتطفل فإن مغامرات بيريكويلو قادته مرات عديدة إلى وسط الهنود والزنوج . . .**

وهنا مرة أخرى نرى "التخيل القومى" فى لحظة عمل فى حركة البطل الوحيد فى أرضية اجتماعية متماسكة تربط العالم داخل الرواية بالعالم خارجها . وتلك الجولة الأفقية البيكارية ما بين المستشفيات والسجون والقرى النائية والكنائس والهنود والزنوج ليست مع ذلك جولة فى العالم ، فذلك الأفق واضح الحدود فهو أفق المكسيك المستعمرة. ولا شيء أكثر من صيغ الجموع المتكررة يؤكد على ذلك التماسك الاجتماعى . ولأنهم يخلقون مساحة اجتماعية مليئة بالسجون المتقاربة فلا أحد يشكل فى حد ذاته أهمية متفردة ، ولكن الكل بوجودهم المتزامن المتفرق دلائل على قمع تلك المستعمرة [٥٠]. قارن ذلك بالسجون فى الإنجيل فلا يستطيع المرء أن يتخيلها خاصة بهذا المجتمع أو ذاك . فكل واحد فيها قائم بذاته مفرد ، كذلك السجن الذى سحر فيه يوحنا المعمدان سالومى .

ختاما ، ولكى ننفى إمكانية كون الأنساق التى كنا ندرسها أوربية –بالرغم من أن ليزاردى وريزال كلاهما كتب بالإسبانية – ، فإننا نقدم هنا افتتاحية "اسمارنج السوداء" القصة التى كتبها الشاب الأندونيسى سيئ الحظ "ماس ماركو كارتوديكرومو" [٥١] وهو شيوعى قومى . وقد نشرت تباعا فى عام ١٩٢٤ [٥٢] :

**كانت الساعة السابعة من مساء السبت ، ولم يكن الشباب فى اسمارنج يقضون ليل السبت في البيوت ، ومع ذلك لم يكن أحد فى الخارج تلك الليلة ؛ لأن الأمطار الغزيرة التى استمرت النهار كله جعلت الطرق مبتلة وعسيرة فى المشى ، فبقى الكل فى المنازل .**

**وبالنسبة للعاملين فى المحلات والمكاتب كان صباح السبت وقت ترقب . كانوا يترقبون وقت راحتهم ومتعة التجول فى المدينة فى المساء . ولكن أملهم خاب فى هذه الليلة بسبب الكسل الناتج عن الطقس السيئ والطرق التى يصعب السير فيها ، فالطرق الرئيسية التى**

كانت فى العادة تزدحم بمختلف أنواع المرور ، وطالما كانت الأرصفة وطرق المشاة تمتلىء بالناس، أصبح كل ذلك الآن مهجورا . فبين الحين والآخر كانت طرقعات كرابيج العربات التى تجرها الخيول تُسمَع وهى تضرب حصانا أو يمكن أن تَسمَع أصوات طرقعات حدوات الخيل وهى تجر العربات .

هجرت اسمارنج وكانت أنوار مصابيح الغاز ترسل ضوءها بصورة مباشرة إلى الأسفل على طرق الأسفلت اللامع ، وأحيانا ما كان ضوء مصابيح الغاز يخفت إذا هبت الريح من الشرق. . . . . .

كان هناك شاب جالس على أريكة طويلة من خشب الروطان يقرأ الجريدة وكان منهمكا كل الانهماك ، وكانت تقضيبات جبينه وابتسامات وجهه فى بعض الأحيان دليلا على اهتمامه الشديد بالقصة . فقلب صفحات الجريدة معتقدا أنه قد يجد شيئا يبعد عنه الإحساس بالبؤس . وفجأة ، وجد مقالا بعنوان الرخاء "مريض متشرد فقير ومات على الرصيف بسبب العراء" تأثر الشاب بهذا التقرير المقتضب فكان يتخيل ألم ذلك الرجل المسكين وهو راقد يحتضر على الرصيف . . . . . وفى لحظة من اللحظات شعر بغضب ينفجر فى داخله . وفى لحظة أخرى شعر بالعطف . ولكن في لحظة أخرى شعر بالغضب متجها للنظام الاجتماعى الذي ساهم فى تكوين ذلك الفقر بينما جعل فئة قليلة من الناس أغنياء.

وهنا – كما كان الحال فى "الببغاء الحاك"– نحن فى عالم من صيغ الجمع : محلات ومكاتب وعربات ومصابيح الغاز. وكما كان الحال فى "نولى" فنحن القراء الأندنوسيين نغرق فورا فى زمن "النتيجة" ومساحة أرضية معروفة ومألوفة ، فمن الممكن أن يكون بعضنا قد مشى فى شوارع اسمارنج التى يعسر المشى فيها . ومرة أخرى فالبطل المنفرد يقع فى مقابلة الجماعة الموصوفة بعناية عن طريق بعض التفاصيل العامة . ولكن هناك شيئا جديدا ، ألا وهو البطل الذى لا يذكر اسمه ، ولكن يشار إليه فى غالبية الأحيان بـ"شابنا". وباختصار فإن السذاجة الأدبية للنص وخراقته تؤكد على الاتساق غير الواعى مع الصفة القائمة على إضافة الضمير (يقصد هنا ضمير المتكلم فى كلمة "شابنا") فلا ماركو ولا قراؤه يحملون ذرة من شك حول مرجع الضمير. ولو أن فى الرواية الأوروبية المازحة المعقدة فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر العبارة المجازية "بطلنا" فإنها ليست سوى دلالة على محاورة الكاتب

لقارئ بعينه أو أى قارئ . والأمر يختلف مع عبارة "شابنا" عند ماركو التى لا تقل تجديدا ، تعنى أن شابا ينتمى إلى جماعة قراء الأندنوسية ، وبالتالى ينتمى -بصورة باطنية - إلى المجتمع الأندونيسى المتخيل غير مكتمل النضج . ولاحظ أن ماركو لا يشعر بحاجة إلى أن يحدد اسما لهذا المجتمع فهو موجود بالفعل . وحتى لو استطاع مسؤولو الرقابة الهولانديون الذين يتكلمون لغات عدة أن ينضموا لقرائه ، فهم خارج دائرة ضمير "نا" الفاعلين كما هو واضح فى مسألة أن غضب الشاب متجه إلى "النظام الاجتماعى" وليس إلى "نظامنا الاجتماعى".

ويثبت المجتمع المتخيل بقراءتنا عن الشاب الذى يقرأ ، فلم يجد جثة المتشرد على جانب شارع من شوارع اسمارنج المبتلة ، ولكنه يتخيلها من خلال سطور الجريدة (٥٣) ، وهو أيضا لم يهتم بمن كان المتشرد الميت كإنسان فرد ، فهو مهتم بالجثة الرمز لا بالحياة الشخصية .

يبدو الأمر مناسبا فى "اسمارنج السوداء" أن تكون الجريدة مغروسة فى القَصّ ، لأننا إذا نظرنا للجريدة على أنها منتج حضارى فستصدمنا قصصيتها العميقة. ما هو الجنس الأدبى الأساسى للجريدة؟ فإذا نظرنا إلى الصفحة الأولى لجريدة مثل "نيويورك تايمز" مثلا فسنجد هناك قصصا عن انشقاقات فى الاتحاد السوفييتى وعن مجاعة فى مالى وجريمة قتل بشعة وانقلاب فى العراق واكتشاف حفرية نادرة فى زيمبابوى وحديث لميتران . ولماذا توضع تلك الأحداث فى مقابل بعضها البعض ؟ وما الذى يربطها ببعضها البعض؟ لا أعتقد أن يكون الرابط مجرد الهوى الشخصى. ولكن من الواضح أن معظمها حدث بشكل مستقل بدون أن يعرف أصحاب تلك الأحداث بوجود بعضهم أو ما ينوى الآخرون عمله ؛ فعشوائية ضمها ووضعها فى مقابل بعضها البعض - فى طبعة لاحقة سيستبدل ميتران بأخبار انتصار فى البيس بول - يوضح أن الرابطة بينها رابطة خيالية.

وتستقى هذه الرابطة المتخيلة من مصدرين مرتبطين بشكل غير مباشر. الأول - بكل بساطة - هو الصدفة فى الحدوث الزمنى . التاريخ المكتوب فى أول الجريدة ، العلامة الأساسية المهمة المرسومة عليها - يقدم العلاقة الأساسية ألا وهى استمرار تقدم الزمن المتجانس الفارغ للأمام (٥٤). ويتحرك العالم فى داخل هذا الزمن للأمام . وعلامة هذا أنه إذا اختفت مالى من صفحات النيويورك تايمز بعد يومين من الأخبار عن المجاعات لمدة شهور فإن القراء لن يتخيلوا للحظة واحدة أن مالى اختفت أو أن المجاعة اكتسحت كل مواطنيها. والشكل الروائى القصصى للجريدة يؤكد للقراء أنه - هناك فى الخارج ، فى مكان ما - تتحرك شخصية مالى بهدوء فى انتظار ظهورها

الجديد فى الحبكة .

والمصدر الثانى للرابطة المتخيلة يكمن فى العلاقة بين الجريدة كشكل من أشكال الكتاب وبين السوق . فقد قدر أنه ، فى غضون الأربعين عاما بين نشر إنجيل جوتنبرج ونهاية القرن الخامس عشر ، قد تم إنتاج أكثر من عشرين مليون مجلد فى أوروبا (٥٥) . وفيما بين عامى ١٥٠٠ و١٦٠٠ وصل عدد الكتب المصنوعة إلى ما بين مائة وخمسين مليون ومائتى مليون مجلد (٥٦). "ومبكرا . . . . بدت ورش الطباعة كالورش الحديثة أكثر مما كانت تبدو كغرف عمل العصور الوسطى ، وفى ١٤٥٥ كان فوس وشوفر يديران بالفعل عملا ارتقى لحد التصنيع فى هذا المجال . وبعد عشرين عاما كانت هناك اهتمامات كبيرة بالطباعة فى كل أوروبا" (٥٧) وبمعنى أدق كان الكتاب أول سلعة يتم إنتاجها بشكل حديث وعلى نحو واسع (٥٨) . ويمكن توضيح المعنى الذى يدور فى عقلى إذا قارنّا الكتاب بالسلع الصناعية الأخرى المبكرة كصناعات الغزل والطوب والسكر ، فهذه المنتجات يمكن حسابها رياضيا فى كميات كالرطل والقطعة والوزن، فرطل السكر ببساطة كمية مناسبة وليست شيئاً منفصلا ، ولكن الكتاب -الذى يمثل صورة سابقة للسلع المعمرة فى زماننا- شىء متميز مستقل بذاته يعاد إنتاجه على نطاق واسع (٥٩) . ولا يظهر رطل السكر بين كل الأرطال الأخرى ؛ أما الكتاب فله استقلاليته التى تشبه استقلالية الناسك . فليس من المعجز أن تصبح المكتبات والمجموعات الخاصة للسلع المنتجة إنتاجا واسعا منظرا عاديا فى المجتمعات المدنية كباريس بحلول القرن السادس عشر (٦٠).

تكون الجريدة - فى هذا المنظور- شكلا متطرفا للكتاب ، هى كتاب يباع على نطاق جبار ولكن سمعته محدودة . أيمكننا القول إنها أفضل ما يباع ليوم واحد؟ (٦١) وتقدم الجريدة صبيحة طبعها -يبدو من الغريب أن واحدا من السلع القديمة المنتجة إنتاجا واسعا تتنبأ بإمكانية القدم فى المنتجات المعمرة الحديثة - ومع ذلك ، وربما لهذا السبب ، فإن هذا القدم هو الذى يخلق هذه المراسم الجماعية غير العادية ألا وهى الاستهلاك شبه المتزامن المتوهم للجريدة على أنها قصص. ونحن نعرف أن طبعات صباحية ومسائية معينة سوف تستهلك استهلاكا واسعا بين ساعات محددة فى يومها فقط وليس فى أى يوم آخر. قارن هذا بالسكر الذى يسير استهلاكه بشكل مستمر غير منقطع ولا علاقة له بالزمن وقد يفسد ولكنه لن يتقادم. ومدلول تلك المراسم الجماعية مدلول متناقض ، فهى مراسم تؤدى فى خصوصية صامتة فى وكر الدماغ . وقد لاحظ هيجل أن الجرائد تقوم عند الإنسان المعاصر مقام صلوات الصباح (٦٢) . ولكن كل فرد يدرك إدراكا كاملا أن المراسم التى يؤديها يقوم بها آلاف وربما ملايين

آخرون فى نفس الوقت وهو متأكد من وجودهم ، ولكنه لا يعرف أى شىء عن هوياتهم . وعلاوة على ذلك فإن تلك المراسم تتكرر يوميا أو ربما مرتين فى اليوم الواحد بدون توقف على طول الزمن . وتعد هذه أخصب صورة يمكن تصورها للمجتمع المدنى المتخيل المتطور مع الزمن (٦٣) . وفى نفس الوقت فإن قارئ الجريدة الذى يلاحظ أن نسخا مطابقة من جريدته يستهلكها جاره فى المترو أو عند الحلاق أو جاره فى المنطقة السكنية ، يتأكد بصفة مستمرة من أن العالم المتخيل يتأصل فى الحياة اليومية . وكما هى الحال مع نولى مى تانجير فإن القَص يختلط ويندمج بهدوء وبشكل مستمر فى الواقع خالقا بذلك تلك الثقة الملحوظة بالجماعية والتى تمثل الفكرة الجوهرية للقوميات الحديثة مع الجهل بشكل الآخرين .

وقبل أن نتصدى لمناقشة الأصول المحددة للقومية فإنه من المفيد أن نسترجع الأطروحات الأساسية المقدمة حتى الآن . كنت أقول أساسا إن إمكانية تخيل القومية نبعت تاريخيا فقط حيثما فقدت ثلاثة مفاهيم حضارية أساسية ، ذات عمق زمنى عظيم ، سيطرتها الكاملة كمبادئ على العقل البشرى . أولها ، هى فكرة أن لغة كتابة معينة تقدم امتياز الاطلاع على حقيقة الوجود باختصار ؛ لأن تلك اللغة جزء لا يتجزأ من تلك الحقيقة . إن هذه الفكرة هى التى أوجدت الجماعية العظيمة عبر القارات للمسيحية والأمة الإسلامية وغيرهما . والثانى ، هو الاعتقاد بأن المجتمع منظم بشكل طبيعى حول مراكز رفيعة وتحتها ، أى ملوك غير البشر العاديين حكموا بتدبير سماوى إلهى ، وكان الولاء بين البشر بالضرورة ولاء مركزيا وهرميا ؛ لأن الحاكم – ومثله فى ذلك مثل الكتابة المقدسة – كان جزءا من مفتاح الوجود وكان جزءا لا يتجزء من الوجود . والثالث كان مفهوما زمنيا لا يفترق فيه التاريخ عن أصل الكون وتتشابه فيه أصول العالم وأصول البشر. وقد أصلت كل هذه الأفكار مجتمعة ومختلطة حياة البشر كما هى فى طبيعة الأشياء معطية معان معينة لأقدار الحياة اليومية كالموت والضياع والعبودية . وهى التى قدمت – بأساليب متعددة – سبل التحرر من تلك الأقدار.

إن السقوط البطيئ غير المتساوى لتلك العقائد المؤكدة المترابطة أولا فى غرب أوروبا ثم فى مناطق أخرى بعد ذلك تحت تأثير التغيرات الاقتصادية والاكتشافات الاجتماعية والعلمية والنمو السريع للاتصالات قد فصل فصلا حادا بين أصل الكون والتاريخ ، فلا عجب – إذن – إن جرى البحث عما يمكن تسميته بأسلوب جديد للربط بين الأخوة والقوة والزمن ربطا ذا معنى ، وربما لم يكن شىء أسرع فى تطوير البحث وجعله مفيدا من الرأسمالية الطباعية التى مكنت الأعداد الكبيرة من البشر من التفكير فى أنفسهم والارتباط بالآخرين بأساليب جد جديدة .

## الهوامش

١) كان للإغريق شواهد على قبورهم لتخليد ذكرى الميت . ولكنها كانت لأشخاص معلومين محددين وهم الذين لم يكن ممكنا استرجاع أجسادهم ، لسبب أو لآخر ، لمراسيم الدفن العادية . وقد علمت تلك المعلومة من زميلى دارس البيزنطيات "جودث هيرين" . (وذلك عندما يموت الشخص فى حرب خارج الوطن أو لأن الجسد ممزق إلى أشلاء . المترجم )

٢) خذ على سبيل المثال هذه المقولات المجازية المميزة ١) "لم نفقد الخط الرمادى الطويل أبدا وإذا كان لك أن تفعل ذلك فإن ملايين من الأشباح الزيتونية الباهتة أو التى ترتدى "كاكى بنى" أو الزرقاء أو الرمادية سوف يقومون عن صلبانهم البيضاء ويهدرون كالرعد بتلك الكلمات السحرية : الواجب ، الشرف ، الوطن." ٢) "تشكل رأيى فى الجندى الأمريكى المسلح على أرض المعركة منذ سنين عديدة مضت ولم يتغير أبدا . كنت أنظر إليه ساعتها -كما أنظر إليه الآن – كواحد من أنبل الأفراد فى العالم وليس فقط كواحد من أحسن الشخصيات العسكرية ولكن أيضا كواحد من أشرفها . . . . فهو فى التاريخ يضرب واحدا من أفضل أمثلة الوطنية الناجحة وهو فى الأجيال معلم لأجيال مستقبلية مبادئ الحرية وهو ينتمى للحاضر ولنا بفضائله وإنجازاته" دوجلاس ماكرثى فى خطاب "الواجب والشرف والوطن" أمام الأكاديمية العسكرية الأمريكية فى وست بوينت فى الثانى عشر من مايو ١٩٦٢ من كتابه "جندى يتكلم" ص ٣٥٤ و ٣٥٧ .

٣) ريجيس بيبراى ، "الماركسية والمسألة القومية"، New Left Review,105 (September and October 1977) P,29 أثناء عمل دراسات ميدانية فى أندونيسيا فى الستينيات صدمت بالرفض الهادئ للكثير من المسلمين قبول أفكار داروين وفسرت ذلك فى البداية على أنه تفكير ظلامى . وبعد ذلك أدركت أنها محاولة شريفة للاتساق ، فلم تكن نظرية النشوء متوافقة مع تعاليم الإسلام. وما الفائدة التى نجنيها من المادية العلمية التى تقبل شكليا اكتشافات الفيزياء عن الكتلة ، ولكنها لا تبذل مجهودا يذكر للربط بين هذه الاكتشافات والصراع الطبقى أو الثورة أو أى شىء آخر . ألا تخفى الهوة بين البروتونات والبروليتاريا مفهوما ميتافيزيقيا عن الإنسان؟ انظر نصوص سيبستيانو تيمبانارو "فى المادية" وورقة فرويد" وردود ريموند ويليامز العاقلة عليها فى "تحدى تيمبانارو المادى "..New Left Review, 109, (may - June 1978), pp,3-17

٤) طالما تحدث الرئيس الراحل سوكارنو بمنتهى الإخلاص عن الثلاثمائة وخمسين عاما التى رزحت فيها إندونيسيا تحت الاستعمار بالرغم من أن مفهوم إندونيسيا مفهوم حديث من اختراع القرن العشرين ، وأن معظم أندونيسيا الحديثة غزاها الهولانديون فقط فيما بين عامى ١٨٥٠ و١٩١٠ . ومن الأبطال القوميين الراسخين لدى الإندونيسيين المحدثين الأمير الجاوى ديبونيجورو من أوائل القرن التاسع عشر بالرغم من أن مذكرات الأمير توضح أنه كان ينوى اقتحام جاوا لا تحريرها وطرد الهولانديين ، فلم يكن يدرك الهولانديين ويفهمهم على أنهم جماعة . انظر Harry J. Benda and John A. Larkin, eds, The World of Southeast Asia, p. 158; وانظر أيضا Ann Kumar, 'Diponegoro (1778?-1855),' Indonesia 13 (April1972), p.103 . وبنفس الشكل سمى كمال أتاتورك أحد بنوكه الحكومية ببنك هيتيتى وسمى آخر بالبنك السومارى. Seton-Watson, Nations and States P .259 . وهى اليوم بنوك ناجحة وليس هناك سبب للشك بأن الكثير من الأتراك – وقد يكون أتاتورك بينهم – نظروا وما زالوا ينظرون للبنك الهيتيتى والسومارى على أنهما امتداد لأصولهم التركية . وقبل أن تضحك كثيرا من ذلك يجب أن نذكر

أنفسنا ب"آرثر وبوبيكاى" ونفكر فى النجاح التجارى لميثوجرافيات "تولكين" .

٥) من هنا جاءت السكينة والطمأنينة اللتان قبل بهما المنغوليون والمانشو على أنهم أبناء السماء.

٦) John Lynch, The Spanish-American Revolutions, 1808-1826, p.260

٧) لم يبد أن يونانية الكنيسة قد حققت مرتبة لغة الحقيقة . وتتعدد أسباب ذلك الفشل ، ولكن أحد العوامل الجوهرية كان بالتأكيد استمرار اليونانية كلغة حديث للشعب فى معظم شرق أوروبا على عكس اللاتينية. وأنا مدين بهذا ل"جون هيرين".

٨) شغل "نيكولاس بريكسبير" منصب الأسقف فى المدة ما بين ١١٥٤ إلى ١١٥٩ تحت اسم "أدريان الرابع" .

٩) يذكرنا مارك بلوك بأن "أغلبية اللوردات والعديد من البارونات فى العصور الوسطى كانوا إداريين لا يستطيعون تدارس تقرير أو مذكرة بمفردهم." Fudal Society, 1, p.81

١٠) لا يعنى ذلك أن الأميين لم يكونوا يقرأون . لم يكونوا يقرأون الكلمات بل العالم المرئى ، "كان العالم لا يتعدى كونه قناعا فى أعين كل من كان يستطيع التأمل وخلف ذلك القناع كانت الحوادث المهمة تحدث وكان ذلك العالم أيضا يبدو لهم على أنه لغة قصد بها التعبير بالعلامات عن حقيقة أكثر عمقا." المرجع السابق، ص ٨٣

١١) Erich Auerbach, Mimesis, p.282 .

١٢) Marco Polo, The Travels Of Marco Polo, pp. 158-59. تجدر ملاحظة أنه – بالرغم من تقبيل الإنجيل – إلا أنه لم يقرأ.

١٣) The Travels of Marco Polo, p.152 .

١٤) Henri De Montesquieu, Persian Letters, P.81 . ظهر هذا الكتاب لأول مرة فى ١٧٢١ .

١٥) Bloch, feudal society,1, p.77 .

١٦) Lucien Febvre and Henri-jean Martin, The Coming of the Book, pp. 248-49.

١٧) نفسه ، ص ,٣٢١

١٨) نفسه ، ص ,٣٣٠

١٩) نفسه ، ص ٣٣١-٣٣٢

٢٠) المرجع السابق ص ٢٣٢ – ٢٣٣ . الشكل الفرنسى أكثر تواضعا وأدق تاريخيا "Tandis que l'on edite de mois en mois d'ouvrages en Latin, et une proporation toujours plus grande de textes en langue nationale, la commerece du livre se morcelle en Europe." L'Appantion du Livre, p.356 .

٢١) يهمنا ملاحظة التغير فى تسميات القادة والتى تتوافق مع ذلك التحول فأولاد المدارس يعرفون ويتذكرون الملوك بأسمائهم الأولى (فتسألهم ما اسم العائلة لوليم الفاتح؟) ويتذكرون الرؤساء بأسماء العائلة (ما الاسم الأول لإلبرت؟). وفى عالم يتمتع فيه كل المواطنين نظريا بحق أن يكونوا رؤساء ، فلا يكون العدد

المحدود للأسماء الأولى نفع كاف فى التحديد والتعريف . أما فى الملكيات التى يكون الحكم فيها وقفا على اسم عائلة معين فإن ما يصنع التفريق هو الاسم الأول بالإضافة للأرقام أو الألقاب.

٢٢) ولنا هنا أن نذكر بسرعة أن نايرين على حق -بالتأكيد - فى وصفه لحركة توحيد إنجلترا وأسكتلندا فى ١٧٠٧ بأنها "اتفاق بطريقى" بمعنى أن مهندسى الوحدة كانوا سياسيين أرستقراطيين. (انظر وصفه البسيط فى كتاب The Break-up of Britain, pp. 136f.) ومع ذلك فإنه من الصعب تخيل أن يعقد مثل ذلك الاتفاق بين أرستقراطيى جمهوريتين . فمفهوم مملكة موحدة كان -بالتأكيد - عنصر الوساطة الحاسم الذى جعل الاتفاق ممكنا.

٢٣) Oscar Jaszi, The Dissolution of the Habsburg Monarchy, p.34

٢٤) وهو ملحوظ بشكل أكبر فى آسيا ما قبل الحديثة . ولكن نفس المبدأ كان عاملا نشطا فى أوروبا المسيحية التى يكون فيها الزواج مرة واحدة فقط . وفى ١٩١٠، وضع أوتو فورست قائمة بالأسماء الملكية والقيصرية تضمنت أسماء ٢٠٤٧ من نسل الأرشدوقات الذين سيتم اغتيالهم ومن بينهم ١٤٨٦ من الألمان و١٢٤ من الفرنسيين و١٩٦ من الإيطاليين و٨٩ من الأسبان و٥٢ من البولانديين و٤٧ دانيماركى و٢٠ من الرجال والسيدات الإنجليز بالإضافة لأربع جنسيات أخرى هذه "الوثيقة الغريبة" موجودة فى المرجع السابق ص ١٣٦ . ولا أستطيع أن أحجم عن اقتباس رد فعل فرانز جوزيف الرائع على الأخبار العشوائية لقتل وريثه : "وبهذا الشكل تكون قوة أعلى استطاعت أن تسترد النظام الذى لم أستطع أنا -بكل أسف - أن أحافظ عليه." المرجع السابق ص ١٢٥

٢٥) يؤكد جلنر على كون الأسر المالكة غريبة ، ولكنه يفسر الظاهرة تفسيرا ضيقا جدا ؛ إذ يقول إن الأرستقراطيين المحليين يفضلون ملكا غريبا لأنه لن ينحاز لأحد فى الصراعات الداخلية. Thought and Change, p.136.

٢٦) Marc Bloch, Les Rois Thaumaturges, pp. 390 and 398-99.

٢٧) Noel A. Battye, "The Military, Government and Society in Siam, 1868-1910," PhD thesis, Cornell 1974, p.270.

٢٨) Stephen Greene, "Thai Government and Administration in the Reign of Rama VI (1910-1925)," PhD thesis, University of London 1971, p.92.

٢٩) كان أكثر من ألف ضابط من ضباط الجيش البروسى المكون من سبعة آلاف أو ثمانية آلاف فى فترة ١٨٠٦ أجانب . "رجال الطبقة الوسطى البروسيون كانوا أقل عددا من الأجانب فى جيشهم ، وقد أضفى ذلك نوعا من الحقيقة على المقولة أن بروسيا ليست دولة لها جيش بل جيش له دولة ." وفى عام ١٧٩٨ أمر المصلحون البروسيون "بتخفيض عدد الأجانب فى الجيش للنصف وكان عددهم يقرب من ٥٠ بالمائة. . . . ." Alfred Vagts, A History of Militarism, pp. 64 and85.

٣٠) بالنسبة لنا ، فإن فكرة "الزى الحديث" كمعادلة مجازية بين الماضى والحاضر تعد إدراكا غير مكتمل لافتراقهما الشاسع عن بعضهما البعض.

٣١) Bloch, Feudal Society, 1, pp. 84-86.

٣٢) Auerbach, Mimesis, p.64 قارن وصف القديس أوجستين للعهد القديم على أنه "ظل المستقبل" (أى الظل الذى يلقيه المستقبل للوراء) موجود فى Bloch, Feudal Society, 1, p.90 .

٣٣) Walter Benjamin, Illuminations, p.265.

٣٤) المرجع السابق ص ٢٦٣ . إن فكرة استطاعة المرأ القول بأن كل مفهوم حديث جوهرى مبنى على مفهوم "فى نفس الوقت" فكرة كائنة .

٣٥) بينما كانت أميرة كليفى قد ظهرت بالفعل فى ١٦٧٨كانت بداية القرن الثامن عشر هى فترة ريتشاردسون وفيلدنج وديفو. وكانت أصول الجرائد الحديثة فى الجازيتات الهولندية فى أواخر القرن السابع عشر. ولكن الجريدة أصبحت صنفا عاما من صنوف الطباعة بعد ١٧٠٠ ، Febvre and Martin, The Comming of the Book, p.197 .

٣٦) فى الواقع ، قد تعتمد قوة الحبكة فى الأوقات ١ و٢ و٣ على ا وب وج و د الذين لايعرف كل منهم ما يفعل الآخر.

٣٧) وهذه البوليفونية تبين – باختصار – بداية الرواية الحديثة حتى فى بداية لامعة فى عمل مثل ساتينسيوم ل"بترونيوس" . فحكايتها تبدأ على خط واحد فإذا كان إنكولبيوس يندب خيانة عشيقته الشابة فإننا لا نرى جيتو فى الفراش مع أسيلمس فى نفس الوقت .

٣٨) ويبدو من النافع – فى هذا السياق – أن نقارن بين أية رواية تاريخية وبين الوثائق والقصص من الفترة الممثلة روائيا.

٣٩) ولا يوجد شىء أكثر إيضاحا لنشأة الرواية فى الزمن المتجانس الفارغ من غياب تلك الأصول الزمنية التمهيدية التى تصعد غالبا إلى أصول الإنسان والتى هى سمة مميزة للكتابات التاريخية والأساطير والكتب المقدسة القديمة .

٤٠) كتب ريزال هذه الرواية بلغة المستعمر، الأسبانية ، التى كانت وقتها اللغة المشتركة بين صفوة الأوروبيين والآسيويين والسكان الأصليين متعددى العرقيات. وإلى جانب الرواية ظهرت أيضا لأول مرة صحافة وطنية لم تكن تكتب بالأسبانية فقط بل باللغات العرقية كال"تاجالوج" وال"إيلوكانو". انظر Leopoldo Y. Yabes, "The Modern Literature of the Philippines," pp. 287-302, in Pierre-Bernard Lafont and Denys Lombard (eds), Literatures Contemporaines de l'Asie du Sud-Est.

٤١) Jose Rizal, Noli Me Tongere (Manila: Instituto Nacional de Historia, 1978), p.1 . وهى من ترجمتى . وفى الوقت الذى نشر فيه كتاب جماعات متخيلة لأول مرة لم تكن لى معرفة جيدة باللغة الأسبانية ولذلك كنت مضطرا للاعتماد على ترجمة ليون ماريا جويريرو المضطربة .

٤٢) لاحظ على سبيل المثال تحول ريزال المتقن فى نفس الجملة من الماضى فى كلمة "خلق" إلى المضارع المشترك بيننا فى كلمة "يعدد".

٤٣) الجانب الأول من مجهولية القارئ كانت وما زالت شهرة الكاتب الآنية. وكما سنرى فإن تلك المجهولية والشهرة لهما علاقة وثيقة بالرأسمالية الطباعية وفى ١٥٩٣ نشر الدومينيكانيون النشطاء "الدكتورينا كرستيانا" فى مانيلا (الدكتورينا كرستيانا تعنى العقيدة والمبادئ المسيحية) ولكن الطباعة بقيت بعد ذلك لقرون

عدة تحت سيطرة دينية كاملة فبدأت عمليـــات الليبـــرالية في ١٨٦٠ انظـر Bienvenido L. Lumbera,
. Taglog Poetry, 1570-1898, Tradition and Infleuences in its development, pp. 35,-93

٤٤)المرجع السابق ص ١١٥.

٤٥) المرجع السابق ص ١٢٠

٤٦) تشبه هذه التقنية تقنية هوميروس كما يناقشه أورباخ في .Mimesis. ch. 1 ('Odysseus' scar')

٤٧) (ورد النص باللغة الأصلية مع ترجمة إنجليزية اعتمدها المترجم وحذف النص في لغته الأصلية )

"الوداع الآن يا ألبانيا ، مملكة

الشر والوحشية والقسوة والخداع

أنا يا من دافعت عنك وتقتلينني الآن

بالرغم من ذلك أبكي القدر الذي حل بك."

هذه المقطوعة الشهيرة فسرت أحيانا على أنها إعلان مغطى للوطنية الفلبينية ولكن "لومبرا" يوضح بإقناع أن هذا التفسير يعد خطأ تاريخيا. Taglog Poetry, p.125. وترجمة هذا النص للإنجليزية للومبرا. وقد غيرت قليلا في نص التاجلوج ليناسب طبعة عام ١٩٧٣ للقصيدة القائمة على طبعة ١٨٦١ .

٤٨) Jean Franco, An Introduction to Spanish-American Literature, p.34 .

٤٩) المرجع السابق ص ٣٥ و٣٦.

٥٠) حركة البطل الأوحد هذه في أرضية اجتماعية شاقة ، حركة نمطية في العديد من الروايات المبكرة المضادة للاستعمار أو غير المضادة له .

٥١) بعد فترة عمل وجيزة كصحفي راديكالي ، اعتقلت السلطات الاستعمارية الهولاندية ماركو في معسكر "بوفن ديجول" -واحد من أول معسكرات التجميع في العالم وكان في عمق مستنقعات غرب غينيا الجديدة . ومات هناك في عام ١٩٣٢ بعد ست سنوات من الحبس. Henri Chambert-Loir, 'Mas Marco Kartodikromo (c, 1890-1932) ou L'Education Politique,' p.208 مـأخـوذ من Litteratures comtemporaines de l'Asie du Sud-Est. ويمكن أن نجد عرضا أكثر دقة وحداثة لعمل ماركو في Takashi Shiraishi, An Age in Motion: Popular Radicalism in Jawa, 1912-1926, في الفصول الثاني والخامس والثامن.

٥٢) كما ترجمهابول تيكيل في Three Early Indonesian Short Stories by Mas Marco Kartodikromo (c. 1890-1932) p.7 .

٥٣) في ١٩٢٤ نشر صديق حميم وحليف سياسي لماركو رواية تحت اسم "الشعور بالحرية" . وقد كتب "شامبرت لوير" عن بطل هذه الرواية الذي يرتبط -بطريق الحظ – بماركو أنه "ليست لديه أية فكرة عن معنى كلمة اشتراكية ولكنه مع ذلك يشعر بعدم الراحة تلقاء المؤسسات الاجتماعية التي تحيط به ويشعر بالحاجة لتوسيع أفقه بوسيلتين هما السفر والقراءة." ('Mas Marco, p. 208.) وقد انتقل البيغاء الحاك إلى جاوا والقرن العشرين .

٥٤) تشبه قراءة الجريدة قراءة رواية يهجر كاتبها فكرة الحبكة المتماسكة .

٥٥) Febvre and Martin, The Coming of the Book, p.186 . وارتفع ذلك لما لا يقل عن ٢٥

ألف طبعة أنتجت فيما لا يقل عن ٢٣٦ مدينة. وفى ١٤٨٠ كانت المطابع فى أكثر من ١١٠ مدينة -٥٠ منها فيما يسمى الآن إيطاليا و٣٠ فى ألمانيا و٩ فى فرنسا و٨ فى هولاندا وأسبانيا و٥ فى بلجيكا وسويسرا و٤ فى إنجلترا و٢ فى بوهيميا وواحدة فى بولندا . "وابتداء من هذا التاريخ يمكن أن يقال إن الكتاب المطبوع كان يستخدم استخداما واسعا فى أوروبا." ص ,١٨٢

٥٦) المرجع السابق ص ٢٦٢ . يعلق الكاتبان أنه بحلول القرن السادس عشر كانت الكتب متاحة لكل من يستطيع القراءة.

٥٧) وفى بداية القرن السادس عشر ، كانت مؤسسة أنتورب للنشر فى بلانتين تدير ٢٤ مطبعة يعمل فى كل منها ١٠٠ عامل . المرجع السابق ص ١٢٥

٥٨) هذه نقطة ثابتة واضحة وسط عفويات "مجرة جوتمبرج" للمرشال ماكلوهان ص ١٢٥ . ويمكن أن نضيف أنه إذا كانت أسواق السلع الأخرى قلصت سوق الكتب إلا أن دورها الاستراتيجى فى نشر الأفكار عظم من أهميتها فى تنمية أوروبا الحديثة.

٥٩) المبدأ هنا أكثر أهمية من المعيار ، وحتى القرن التاسع عشر كانت الطبعات إلى حد ما قليلة وحتى إنجيل لوثر - الذى حقق أفضل مبيعات بشكل غير عادى - كانت أول طبعة له ٤٠٠٠ نسخة ، والطبعة الأولى لموسوعة ديديروت - التى كانت طبعة كبيرة بشكل غير عادى - لم تكن أكثر من ٤٢٥٠ نسخة. وكان المعدل فى القرن الثامن عشر أقل من ٢٠٠٠ ، Febvre and Martin, The Coming of the Book, pp. 218-220. وفى نفس الوقت كان الكتاب دائما مميزا عن بقية السلع المعمرة بسوقه المحدود ، فكل إنسان يملك مالا يستطيع أن يشترى عربة تشيكية ، ولكن ، لا أحد يشترى الكتاب التشيكي إلا إذا كان يقرء اللغة التشيكية. وسوف نتعرض فيما بعد لأهمية ذلك التفريق .

٦٠) علاوة على ذلك ففى نهاية القرن الخامس عشر تزعم ألدوس الناشر الفينيسى فكرة طبعة كتاب الجيب المحمول .

٦١) وكما وضحت حالة "اسمارنج السوداء" فإن النوعين اللذين يحققان أكثر مبيعات كانتا فى الماضى أكثر ارتباطا عنهما الآن . وقد نشر "ديكنز" أيضا رواياته الشهيرة فى الجرائد الشهيرة فى شكل سلسلة .

٦٢) "شجعت المواد المطبوعة الالتزام الصامت بمؤثرات لا يستطيع أحد تحديد موقع دعاتها فى كنيسة بعينها ويوجه هؤلاء الدعاة فكرهم لجمهور غير مرئى من على بعد." Elizabeth L. Eisenstein, "Some Conjectures about the Impact of Printing on Western Society and Thought," Journal of Modern History, 40: 1 (March 1968), p.42.

٦٣) يلاحظ مارتن فى الكتابة عن العلاقة بين الفوضى المادية لمجتمع الطبقة الوسطى ونظام الدولة السياسى غير المادى أن "الآلية الموجودة حولت التفريق الحقيقى بين الطبقات إلى المساواة العينية بين المواطنين ، وحولت النزعة الفردية لإرادة جماعية موحدة ولا شىء أكثر من ذلك يحقق الفوضى داخل شرعية دولة جديدة" The Break-up of Britain, p.24. لا شك فى ذلك ولكن الآلية الموجودة (الانتخابات) هى حدث نادر ومتحرك وجيل الإرادة العامة فيما أعتقد يفضل أن نبحث عنه فى الأنساق اليومية فى توهم الحياة.

## الفصل الثالث

# أصول الوعى القومى

إذا كان تطور الطباعة كسلعة هو مفتاح جيل من الأفكار الجديدة كل الجدة عن التزامن فإننا نكون - بكل بساطة - عند النقطة التى تصبح فيها المجتمعات من نوع "الدنيوى الأفقى عبر الزمن" ممكنة . ولكن لماذا انتشرت القومية داخل هذا النسق لهذه الدرجة؟ من الواضح أن العوامل المتدخلة فى ذلك معقدة ومتعددة ، ولكن اعتبار الرأسمالية عامل أولى أعتبار قوى الصحة .

وكما سبق وذكرنا ، فإن ما لا يقل عن عشرين مليون كتاب قد طبع بالفعل بحلول عام ١٥٠٠ [١] معلنا بذلك عن بزوغ عصر (يسميه ) بنيامين "عصر الاستنساخ الآلى". وإذا كانت المعرفة المستقاة من المخطوطات معرفة قليلة وعلوما غامضة ، فإن المعرفة عن طريق الطباعة استمرت عن طريق التوالد والاستنساخ والانتشار [٢]. وإذا كان من الممكن أن يكون عدد ٢٠٠ مليون نسخة قد صنعت بحلول عام ١٦٠٠ -كما يعتقد فبفر ومارتن- فلا عجب إذن من اعتقاد فرانسيس بيكون بأن الطباعة غيرت "شكل العالم وحالته" [٣] .

كانت عملية نشر الكتب كواحدة من أقدم أشكال الرأسمالية تشعر بحالة من القلق بحثا عن السوق كأى سلعة رأسمالية أخرى . فقد أسس الطبّاعون الأوائل فروعا لهم فى كل أنحاء أوروبا "فقد تكون بهذا الشكل معادل لدور النشر "الدولية" التى تجاهلت الحدود القومية" [٤] . وبما أن السنوات من ١٥٠٠ إلى ١٥٥٠ كانت سنوات رخاء غير عادية فى أوروبا فقد شارك النشر فى النهضة العامة . فكانت "أكثر من أى وقت آخر صناعة عظيمة تحت سيطرة رأسماليين أثرياء" [٥] . وبطبيعة الحال "شغل باعة الكتب لحد كبير بتحقيق الربح وبيع منتجاتهم ، وبالتالى كانوا مهتمين، بداية وقبل كل شئ ، بالبحث عن تلك الأعمال التى تهم أكبر عدد ممكن من معاصريهم" [٦] .

وكان أول سوق هو متعلمى أوروبا ، وهى طبقة واسعة ، ولكنها رفيعة من قراء اللاتينية . وقد أخذ استغراق هذا السوق حوالى قرنا ونصف ، فالحقيقة المؤكدة عن اللاتينية بصرف النظر عن القداسة هى أنها كانت لغة من يتكلمون لغتين ، فقليل من الناس -لحد ما- ولدوا ليتكلموا بها وأقل ، على ما أتخيل ، كانوا يحلمون بها ، وكان

عدد الذين يتكلمون أكثر من لغة فى أوروبا فى القرن السادس عشر قليلا جدا، وقد لا يكون أكبر من عددهم بالنسبة لسكان العالم الآن وفى القرون القادمة . فمجموع البشرية ساعتها والآن يتكلم فى غالبيته لغة واحدة. وعلى ذلك فقد كان منطق الرأسمالية يقضى بأنه بمجرد أن يتشبع سوق صفوة قراء اللاتينية فإن الأسواق الضخمة التى تمثلها الجماهير التى تتكلم لغة واحدة ستلوح . ومن المؤكد أن حركة الإصلاح المضادة قد شجعت تقدما مؤقتا فى النشر باللغة اللاتينية ، ولكن - بحلول منتصف القرن السابع عشر- كانت تلك الحركة إلى زوال. وشعرت المكتبات الكاثوليكية بالتخمة . وفى نفس الوقت ، جعل نقص المال فى كل أوروبا الناشرين يفكرون بجدية أكثر فى طرح طبعات رخيصة باللهجات المحلية (تلك اللهجات المحلية تطورت بعد ذلك فأصبحت اللغات الرومانسية الحالية المتفرعة عن الأصل اللاتينى) (٧) .

زادت الدفعة الرأسمالية التوجه ناحية اللهجات المحلية اندفاعا ، وحفزتها ثلاث عوامل غير مباشرة ساهم اثنان منها مساهمة مباشرة فى صعود الوعى القومى . الأول ، والأقل أهمية فى النهاية ، هو تغير شخصية اللاتينية نفسها . بفضل مجهودات الإنسانيين فى إحياء آداب تراث ما قبل المسيحية الواسع وتوزيعه على سوق الطباعة . ظهر تذوق جديد للإنجازات الأسلوبية المعقدة للقدماء وسط الطبقة المثقفة عبركل أوروبا. فاللاتينية التى يطمحون لكتابتها الآن أصبحت -أكثر وأكثر- لاتينية شيشرون ، وتحولت بنفس الشكل عن لغة الدين والحياة اليومية فاكتسبت بهذا الشكل صبغة سرية وغموضا مختلفين اختلافا تاما عن لاتينية الكنيسة فى العصور الوسطى ، ولم تكن اللاتينية القديمة مقدسة بسبب مواضيعها أو أسلوبها ولكن كانت كذلك ببساطة ؛ لأنها كانت مكتوبة دائما أى بسبب وضعها كنص ، وأصبحت الآن لغة مقدسة بسبب المكتوب أى بسبب اللغة فى حد ذاتها .

العامل الثانى ، هو تأثير الإصلاح الذى كان فى نفس الوقت مدينا بكثير من النجاح لرأسمالية الطباعة . وقبل عصر الطباعة كانت روما تفوز بكل الحروب ضد الكفر والهرطقة فى غرب أوروبا بسهولة ؛ لأنها كانت دائما تملك خطوط اتصال أفضل من مناهضيها . ولكن عندما علق مارتن لوثر مذهبه على باب الكنيسة فى فيتمبرج فى عام ١٥١٧كان هذا المذهب مطبوعا ومترجما باللغة الألمانية "وفى غضون خمسة عشر يوما شوهد فى كل مكان فى الدولة" (٨) . وفى العقدين من ١٥٢٠ إلى ١٥٤٠ نشرت كتب باللغة الألمانية ثلاثة أضعاف ما نشرت به فى الفترة ما بين ١٥٠٠ إلى ١٥٢٠ ، وكان هذا تحولا مدهشا لعب فيه لوثر دورا مركزيا ؛ فشكلت كتبه ما لا يقل عن ثلث مبيعات كتب اللغة الألمانية فى الفترة ما بين ١٥١٨ و١٥٢٥ . وفيما بين ١٥٢٢

و١٥٤٦ ، ظهرت ٤٣٠ طبعة سواء كاملة أو مجزأة من إنجيله المترجم. "ولأول مرة يكون لدينا جمهرة حقيقية من القراء وأدب منتشر وشائع فى متناول الجميع" (٩). وبناء على ذلك أصبح لوثر أول مؤلف عالى التوزيع نعرفه ، أو نصوغ القول بصياغة أخرى ، فنقول : إنه أول كاتب يستطيع أن يبيع كتبه الجديدة بناء على سمعته (١٠).

وتبع لوثر الكثيرون بسرعة معلنين فاتحين الباب لحرب الدعايا الدينية واسعة النطاق والتى اجتاحت أوروبا حتى القرن التالى . وفى "أثناء تلك الحرب الطاحنة على عقول الناس" كانت البروتوستانتية دائما هى البادئ بالهجوم ، والسبب – باختصار – أنها عرفت كيف تستغل سوق الطباعة الواسع باللغات المحلية الذى خلقته الرأسمالية بينما دافعت حركة الإصلاح المضادة عن قلعة اللاتينية . والدليل على ذلك كان Index Libronum Lrohibitonum المملوك للفاتيكان والذى لم تملك البروتوستانتية مثيلا له وكان كاتالوجا جديدا ومهما ، وكان وراء أهميته المجلد الكامل لأخطاء الطباعة . وأكثر الأشياء إيضاحا لفكرة عقلية الحصار هذه هو حظر فرانسوا الأول المذعور على طباعة أى كتب فى مملكته عام ١٥٣٥ ، والعقاب : الإعدام شنقا لمن يخالف . والسبب فى كل من الحظر وعقوبته هو أنه فى ذلك الوقت كانت حدود مملكته الشرقية فى جوار دول ومدن بروتوستانتية تنتج كميات كبيرة من المطبوعات القابلة للتهريب ، ولنأخذ مثلا جنيف أيام "كالفن" فبين عامى ١٥٣٣ و١٥٤٠ نشرت هناك ٤٢ طبعة فقط وارتفع العدد ليصبح ٥٢٧ بين عامى ١٥٥٠ و١٥٦٤ ، وفى وقت لاحق لم يكن هناك أقل من ٤٠ دار نشر منفصلة تعمل طوال الوقت (١١).

خلق التحالف بين البروتوستانتية والرأسمالية الطباعية التى تستخدم طبعات شعبية رخيصة بشكل سريع جماهير جديدة وكبيرة من القراء لا تخلو من التجار والنساء الذين لم تكن لهن –بطبيعة الحال– معرفة باللغة اللاتينية . وقد حولتهن تلك القراءة لأهداف سياسية ودينية ، فمن الطبيعى أن لم تكن الكنيسة وحدها هى التى تهتز اهتزازا عنيفا فقد أنتج نفس الزلزال أول دولة غير قائمة على مدينة ولا على حكم أسرة ذات قيمة فى أوروبا فى الجمهورية الهولندية وكومنولث البيوريتانيين ؛ فكان رعب فرانسوا الأول رعبا سياسيا ، كما كان دينيا.

والعامل الثالث ، هو الانتشار البطىء وغير المنتظم جغرافيا لبعض اللهجات المحلية المعينة كوسائل للمركزية الإدارية لبعض الملكيات المستقرة المطلقة . ومن النافع هنا أن نتذكر أن عالمية اللاتينية فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى لم تتوافق مع نظام سياسى عالمى . وتناقض ذلك مع أمبراطورية الصين ؛ حيث بلغت البيروقراطية

المندرينية نفس ما بلغته الرسوم الكتابية ، إلى حد كبير ، يُعَد تناقضا دالا ومعبرا. وبالتالى فإن التفكك السياسى فى غرب أوروبا بعد انهيار الإمبراطورية الغربية كان يعنى عدم قدرة أى قائد على استغلال اللاتينية ليجعلها لغة دولته وحدها ، وعلى ذلك لم يكن لسلطة اللغة اللاتينية الدينية معادل سياسى .

وقد سبق ميلاد لهجات الإدارة المحلية كل من الطباعة والغليان الدينى فى القرن السادس عشر ، ولذلك يجب أن يُنظر إليه -فى البداية على الأقل- كعنصر مستقل فى عملية محو المجتمعات المتخيلة المقدسة . وفى نفس الوقت لا شىء يدعو لافتراض وجود أى دوافع عقدية أو على الأقل وطنية أولية خلف عملية التحول لتلك اللهجات المحلية حيث وجدت . وحالة إنجلترا التى تقع على الطرف الشمالى الغربى لأوروبا اللاتينية حالة معبرة بشكل خاص ؛ فقبل الغزو النورمانى كانت اللغة الأنجلوساكسونية هى لغة البلاط والإدارة والأدب. وبعد ذلك ولمدة قرن ونصف كتبت كل الوثائق الملكية باللاتينية . وفى الفترة ما بين ١٢٠٠ و١٣٥٠ تبعت اللغة الفرنسية النورمانية لغة الدولة اللاتينية ونتجت الإنجليزية المبكرة – فى نفس الوقت – من الاختلاط البطىء بين لغة طبقة الحكام الأجانب والأنجلو ساكسونية لغة الشعب المحكوم . وقد مكن هذا الاختلاط اللغة الجديدة من أن تأخذ دورها كلغة للبلاط فى ١٣٦٢ ومكن أيضا من افتتاح البرلمان . وظهرت بعد ذلك مخطوطة "واى كليف" للإنجيل باللهجة المحلية فى عام ١٣٨٢ (١٢) . ومن الواجب أن نضع فى الاعتبار أن هذا التوالى كان سلسلة من لغات دولة وليست لغات قومية ، وأن هذه الدولة كانت تغطى فى أوقات كثيرة ليس فقط إنجلترا وويلز ، اللتين نعرفهما اليوم ، بل أيضا أجزاء من أيرلندا وأسكتلندا وفرنسا. ويبدو من الواضح أن عددا كبيرا من هذه الشعوب لم يكن يعرف شيئا من اللاتينية والفرنسية النورمانية ولا الإنجليزية المبكرة (١٣) . وخرجت قوة لندن من يد فرنسا بعد تتويج الإنجليزية المبكرة بقرن ونصف وليس قبل ذلك .

وحدثت حركة أصغر على ضفاف نهرالسين وإذا كانت خطوات اللغة الفرنسية أبطأ كما يعلق بلوش "ولما كانت هناك نظرة للغة الفرنسية على أنها نموذج فاسد من اللاتينية فقد استغرقت قرونا لترفع نفسها لمرتبة أدبية" (١٤) ، فقد أصبحت اللغة الرسمية للقضاء فى عام ١٥٣٩ عندما أصدر فرنسوا الأول مرسوم Villers-Cotterets (١٥). وعاشت اللاتينية مدة أطول فى ممالك أخرى يحكمها نظام الأسرة الحاكمة فعاشت فى ظل أسرة هابزبورج حتى القرن التاسع عشر وفى ممالك أخرى حلت لهجات أجنبية محل اللاتينية فكانت لغات بلاط رومانوف فى القرن الثامن عشر هى الفرنسية والألمانية (١٦).

وفى كل حالة من تلك الحالات كانت عملية "الاختيار" اللغوى عملية تطور تدريجية غير واعية وعملية وعشوائية ، وعلى ذلك فتلك العملية مختلفة كل الاختلاف عن السياسات اللغوية الواعية التى اتخذها ملوك القرن التاسع عشر عندما واجههم ظهور قوميات لغوية شعبية معادية (انظر الفصل السادس). وعلامة الاختلاف الواضحة هى أن لغات الإدارة القديمة كانت موجودة وكفى ، أى أنها لغات تستخدمها الإدارة لأغراض الإدارة بما يناسبها ، ولم تكن هناك أية فكرة عن فرض اللغة بشكل منظم على رعايا الملك من الشعوب المتعددة (١٧) . ومع ذلك فإن ترقى تلك اللهجات المحلية لتصبح لغة السلطة فتتنافس مع اللاتينية – كما حدث بالنسبة للفرنسية فى باريس . والإنجليزية المبكرة فى لندن – قد ساهم فى زوال المجتمع المسيحى المتخيل .

يبدو أن جعل اللغة اللاتينية لغة غامضة وحركة الإصلاح والنمو العشوائى للغات الإدارة عوامل مهمة فى سياقنا هذا وخاصة من ناحية سلبية ؛ أى فى إسهامها فى تقويض اللاتينية يبدو من الممكن جدا ظهور المجتمعات القومية المتخيلة بدون وجود واحد منها أو بدون وجودها كلها . والشىء الإيجابى الذى مكن من تخيل هذه المجتمعات كان التفاعل ذو صفة الصدفة لحد ما والاندفاع بين نظام الإنتاج وعلاقات الإنتاج ، أى الرأسمالية وتكنولوجيا الاتصالات ، أى الطباعة وحتمية الاختلاف بين اللغات الإنسانية (١٨) .

عنصر الحتمية عنصر جوهرى ؛ فمهما كانت قدرة الرأسمالية على تحقيق أفعال أعلى من قدرة البشر ، فقد وجدت فى الموت واللغة خصمين عنيدين (١٩) . فقد تموت اللغات أو تكتسح ، ولكن لم ولن يوجد احتمال توحد البشر فى لغة واحدة . ولم يكن هذا الفهم المتبادل ذا أهمية تاريخية كبيرة حتى جاءت الرأسمالية والطباعة فخلقت كتل قراء موحدة .

بينما يكون من الأساسى أن نضع فى اعتبارنا فكرة الحتمية بمعنى وجود شرط عام بعدم الرجعة فى ذلك التفرع اللغوى ، يكون من الخطأ أن نسوى بين تلك الحتمية وذلك العنصر العام فى الأيديولوجيات القومية التى تركز على حتمية لغات أزلية بعينها وعلاقتها بوحدات مكانية معينة . فالشىء الجوهرى هو تداخل الحتمية مع التكنولوجيا مع الرأسمالية . وفى أوروبا فى عصر ما قبل الطباعة –وبالطبع فى أماكن أخرى من العالم – كان تعدد اللغات المنطوقة التى كانت وما تزال تشكل لمتحدثيها أساس حياتهم تعددا وتباينا واسعا لدرجة أنه لو حاولت الرأسمالية الطباعية استغلال أى سوق لغة محلية شفاهية لظلت رأسمالية محدودة . ولكن تلك اللهجات المتعددة كانت

قادرة على التجمع فى حدود معينة فى لغات طباعية أقل عددا بكثير. وسهلت عشوائية أى نسق علامات صوتية عملية التجميع هذه [٢٠]. وفى نفس الوقت كلما كانت العلامات أكثر إديوجرافية كانت عملية التجميع أوسع نطاقا . ويستطيع المرء أن يتلمس هنا نسقا هابطا من الجبر عبر الإنجليزية والصينية إلى مقطعيات الفرنسية والإندونيسية . والذى سهل عملية تجميع اللهجات المتقاربة هى الرأسمالية التى خلقت – بشكل آلى وفى داخل الحدود التى فرضها النحو ونظام الجملة – لغات طباعية يمكن إعادة إنتاجها وقادرة على الانتشار فى كل السوق [٢١] .

ووضعت لغات الطباعة هذه أسس الوعى القومى بثلاث طرق منفصلة . الأول والأكثر أهمية : أنها أوجدت حقول اتصال وتبادل موحدة تحت اللاتينية وفوق اللهجات المحلية الشفاهية . ومتحدثو العدد المتنوع الكبير من الفرنسيات والإنجليزيات والإسبانيات الذين يجدون الأمر صعبا وحتى مستحيلا أن يفهموا بعضهم البعض بالمحادثة استطاعوا أن يتفاهموا عبر الورق والطباعة . وفى تلك العملية أدرك هؤلاء المتحدثون وجود مئات الآلاف بل الملايين من الناس فى نطاق لغتهم الخاصة وأدركوا أيضا – فى نفس الوقت – أن مئات الآلاف أو الملايين هؤلاء وحدهم هم المنتمون لهذا النطاق. وهؤلاء القراء الذين كانوا مرتبطين بهم عن طريق الطباعة شكلوا بداية مجتمع قومى متخيل من خلال دنيويتهم وخصوصيتهم وعدم ظهورهم الواضح.

والثانى : أن الرأسمالية الطباعية أضفت على اللغة ثباتا جديدا مما ساعد على المدى البعيد فى بناء صورة الموروث الجوهرى فى فكرة الذاتية للقومية . وكما يذكرنا فبفر ومارتن ، فإن الكتاب المطبوع احتفظ بشكل ثابت قادر على إعادة الإنتاج فى أى زمان ومكان وبشكل غير محدود تقريبا . ولم يعد – بعد ذلك – خاضعا لعادات الرهبان الكتاب بإلقاء الصبغة الشخصية عليه "التحديث غير الواعى" . وعلى ذلك ، فبينما اختلفت فرنسية القرن الثانى عشر اختلافا كبيرا عن الفرنسية التى كتب بها فيلون فى القرن الخامس عشر فإن معدل التغير أبطأ بشكل كبير فى القرن السادس عشر. "وبحلول القرن السابع عشر اكتسبت اللغات الأوروبية بشكل عام أشكالها الحديثة" [٢٢]. ولنطرح الأمر بشكل آخر ، فلمدة ثلاثة قرون الآن بدأت لغات الطباعة هذه فى تجميع ورنيش أسود ، أى أن كلمات أجدادنا فى القرن السابع عشر متاحة لنا بشكل لم تكن به كلمات الأجداد من القرن الثانى عشر متاحة لفيلون.

والثالث : أن الرأسمالية الطباعية خلقت لغة سلطة بشكل مختلف عما كانت عليه لغات الإدارة القديمة . بالطبع كانت هناك لهجات معينة قريبة لكل لغة من لغات

الطباعة التى سيطرت على شكلها النهائى وأبناء عمومة هذه اللهجات سيئة الحظ والتى ، مع ذلك ، يمكن تقريبها للغات طباعية صاعدة ، فقدت أجزاء من نفسها بسبب أنها فشلت – أو نجحت نجاحا محدودا – فى بناء شكلها الطباعى الخاص بها والإصرار عليه . فأصبحت ألمانية ؛ شمال الغرب Platt Deutsch لهجة كلام فى الغالب ، ولذلك أصبحت فرعا من الألمانية ؛ لأنها كانت مطابقة لألمانية الطباعة فى الوقت الذى لم تكن فيه تشيكية بوهيميا الشفاهية كذلك . وترقت الألمانية العالية وإنجليزية الملك وبعد ذلك (التاى) المركزية لآفاق سياسية وثقافية عالية ، ومن ثم جاءت الصراعات الأوروبية فى أواخر القرن العشرين بين قوميات فرعية لتغير من وضعها الدونى عن طريق الدخول بشكل كبير إلى عالم الطباعة والراديو.

ويبقى هنا أن نركز على أن تثبيت لغات الطباعة والتفريق بين مكانة كل منها فى أصولها عمليات غير واعية بشكل كبير نتجت عن التفاعل الشديد بين الرأسمالية والتكنولوجيا وتنوع اللغات الإنسانية . وكما كان الحال مع العديد من الأشياء الأخرى فى تاريخ القومية ، فإنه إذا وجدت تلك العوامل فربما كانت نموذجا يحتذى به وشكلت نفعا كبيرا واستغلت بأسلوب ميكيافيلى . وتعوق الحكومة التايلندية اليوم – بكل نشاط – كل محاولة من قبل الحملات التبشيرية الأجنبية لإمداد الأقليات القبلية بأنظمة كتابية خاصة بها وبتطوير النشر بلغاتها فى الوقت الذى لا تعبأ الحكومة نفسها فيه – بأى شكل – بلغة كلام تلك الأقليات . ويعد قدر الشعوب التى تتحدث اللغات التركية فى المناطق الواقعة فى تركيا والعراق وإيران والاتحاد السوفييتى مثلا مفيدا بصفة خاصة ، فهى عائلة من اللغات المتكلمة مفهومة لبعضها البعض بسبب تقاربها تكتب بخط عربى . وقد فقدت تلك اللغات وحدتها بسبب التلاعب الواعى ، ولكى يتم رفع الوعى القومى التركى فى تركيا على حساب الهوية الإسلامية الأوسع فقد فرض أتاتورك الخط الرومانى فرضا [٢٣] . واتبعت السلطات السوفييتية نفس النسق أولا بفرض الرومانية ضد الإسلام وضد إيران ، وبعد ذلك – وفى عصر ستالين – فى الثلاثينيات بدأ الترويس (التحويل إلى الروسية )عن طريق فرض الكريلية [٢٤].

ويمكننا تلخيص النتيجة التى نخرج بها من النقاش – حتى الآن – بأن نقول إن تداخل الرأسمالية وتكنولوجيات الطباعة مع تعدد اللغات الإنسانية وتفرعها خلق إمكانية شكل جديد من المجتمعات المتخيلة التى تهيئ بتركيبها الأساسى المسرح للأمم والقوميات الحديثة . وكان الامتداد المتاح لتلك المجتمعات محدودا ولم تكن له علاقة فى نفس الوقت بالحدود الحديثة إلا بالصدفة التى كانت فى العموم علامة التوسع الملكى .

ولكن ، يبدو من الواضح أنه بينما تمتلك كل القوميات والدول القومية اليوم تقريبا لغات طباعية قومية فإن الكثير منهما يشترك فى تلك اللغات . وفى بعض القوميات الأخرى يستخدم عدد محدود من الشعب اللغة القومية فى المحادثة أو فى الكتابة ؛ فالدول القومية فى أمريكا الناطقة بالأسبانية أو فى العائلة الأنجلوساكسونية أول مثل ملحوظ على النتيجة الأولى . وتعد العديد من الدول التى تحررت من الاستعمار فى إفريقيا على وجه الخصوص مثلا ملحوظا على النتيجة الثانية . وبصياغة أخرى فإن تشكيل الدول القومية المعاصرة تشكيلا ماديا لا يتشابه بأى حال من الأحوال مع امتداد بعض اللغات الطباعية بعينها . ولكى نعبر عن عدم الاتصال فى العلاقة بين اللغات الطباعية والوعى القومى والدول القومية ، يجب الالتفات لذلك الكم الهائل من الكيانات السياسية التى ظهرت حديثا فى نصف الكرة الغربى فى الفترة ما بين ١٧٧٦ و١٨٣٨ ، وعرفت كل واحدة منها بشكل واع نفسها على أنها أمة باستثناء البرازيل التى كانت جمهورية غير قائمة على حكم الأسرة . ولم تكن تلك الدول فقط أول دول من نوعها تصعد على المسرح العالمى فى التاريخ ، وبالتالى قدمت أول نموذج حقيقى لما يجب أن تكون عليه تلك الدول بل إن أعدادها وولاداتها المعاصرة تطرح مجالا مثمرا للدراسة المقارنة أيضا .

## الهوامش

١) كان عدد سكان أوروبا التى عرفت فيها الطباعة مائة مليون نسمة .

Febvre and Martin, The Coming of the Book, pp. 248-49.

٢) ويعتبر كتاب ماركو بولو "رحلات" علامة ، وظل مجهولا بشكل كبير حتى طبع لأول مرة عام ١٥٥٩ .Ill
Polo, Travels, p. x .

٣) الاقتباس فى . Eisenstein, "Some Conjentures," p.56

٤) Febvre and Martin, The Coming of the Book, p.122 .

٥) المرجع السابق ص ١٨٧ . والنص الأصلى يتحدث عن الرأسماليين الأقوياء لا الأغنياء. -L'Appari
tion, p.281 .

٦) "ومن هنا كان تقديم الطباعة فى هذا السياق خطوة على الطريق ناحية مجتمعنا الاستهلاكى الموحد المعاصر. نفس المرجع السابق ص ٢٥٩ – ٢٦٠ . كانت العبارة فى النص الأصلى "une civilisation de masse et de standardisation," والتى يمكن أن تترجم بشكل أفضل على أنها حضارة جماعية ثابتة.
L'Apparition, p.394 .

٧) المرجع السابق ص ١٩٥

٨) المرجع السابق ص ٢٨٩ – ٢٩٠

٩) المرجع السابق ص ٢٩١ – ٢٩٥

١٠) على ذلك فقد كانت مجرد خطوة للموقف فى فرنسا فى القرن السابع عشر التى استطاع فيها كورناى ولافونتين وموليير بيع نصوص مسرحياتهم الكوميدية والتراجيدية مباشرة للناشرين الذين اشتروا تلك المسرحيات على أنها أفضل استثمار على ضوء سمعة الكتّاب فى السوق . المرجع السابق ص ١٦١ .

١١) المرجع السابق ص ٣١٠ –٣١٥

١٢) Seton-Watson, Nations and States, pp. 28-29; Bloch, Feudal Society, 1, p.75 .

١٣) لا يجب أن نفترض أن عملية توحيد لهجات الإدارة المحلية تمت بشكل كامل وآنى وليس من المعقول أن "جين" التى تحكمها لندن كانت لغة إدارتها أساسا الإنجليزية المبكرة .

١٤) Bloch, Feudal Society, 1, p.98 .

١٥) Seton-Watson, Nations and States, p.48 .

١٦) المرجع السابق ص ٨٣ .

١٧) والإثبات المتفق عليه فى هذه النقطة يقدمه فرنسوا الأول الذى -كما رأينا- حظر طباعة كل الكتب عام ١٥٣٥ وجعل الفرنسية بعد ذلك بأربع أعوام لغة البلاط.

١٨) لم تكن هذه أول حادثة من نوعها ، فيلاحظ فبفر ومارتن أنه بينما وجدت طبقة بورجوازية ملحوظة فى أوروبا فى أواخر القرن الثالث عشر لم يدخل الورق الاستخدام العام إلا فى أواخر القرن الرابع عشر. وسطح الورق الأملس الناعم هو وحده الذى جعل عملية استنساخ النصوص والصور ممكنة ولم يظهر ذلك إلا بعد ٧٥ عاما ولكن لم يكن الورق اختراعا أوروبيا . لقد جاء من تاريخ آخر من التراث الصينى عبر العالم الإسلامى. The Coming of the Book, pp.22.30,45 .

١٩) وليس لدينا عمالقة متعددى الجنسيات فى عالم النشر.

٢٠) لمناقشة نافعة حول هذه النقطة انظر S. H. Steinberg, Five Hundred Years of Printing, الفصل الخامس . الاختلاف فى نطق صوت O يوضح كلا من تعدد اللهجات الخاصة التى نبع منها الهجاء الإنجليزى الرسمى الحاضر والطبيعة الإديوجرافية للمنتج النهائى .

٢١) أقول عن نصيحة تلقيتها إنه "لم يساعد شيء أكثر من الرأسمالية" . وكل من شتينبرج وأيسنشتين يقتربان من القول بأن الطباعة هى عبقرية التاريخ الحديث ولا ينسى فبفر ومارتن أن الطابعين والناشرين يقفون خلف الطباعة . ويجدر بنا فى هذا السياق أن نتذكر أنه بالرغم من أن الطباعة اخترعت أولا فى الصين قبل خمس مائة عام من ظهورها فى أوروبا لم يكن لها أى أثر كبير ناهيك عن كونه ثوريا بسبب غياب الرأسمالية هناك فى الصين .

٢٢) The Coming of the Book, p.319 CF. L'Apparition, p.477. "Au XVIIe siecle , tle Langues nationales apparaissent un peu partout cristallisees."

٢٣) Hans Cohn, The Age of Nationalism, p.108 .ربما يكون من العدل أن نضيف أن كمال أتاتورك كان يأمل أيضا فى توحيد القومية التركية بالحضارة الأوروبية الرومانية الحديثة.

٢٤) Seton-Watson, Nations and States, p.317 .

## الفصل الرابع

# الرواد الكريوليون

تبدو الدول الأمريكية الجديدة فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ذات أهمية غير عادية ، لأنه يبدو من المستحيل أن نبرر وجودها فى ضوء عاملين سيطرا على التفكير الأوروبى المحلى حول نشأة القومية ، ربما لأنهما مستمدان من قومية منتصف القرن فى أوروبا .

فى المقام الأول ، إذا كنا نفكر فى البرازيل أو الولايات المتحدة أو أى مستعمرات إسبانية سابقة فإن اللغة لم تكن عامل تفريق بينها وبين مستعمريها . كل هذه الدول - والولايات المتحدة من ضمنها- كانت دول كريول شكلها وحكمها أناس يشتركون فى لغة وأصل مشتركين مع من يحاربون[1]. إنه من العدل ، فى الواقع ، القول إن اللغة لم تكن أبدا قضية فى تلك الصراعات المبكرة من أجل التحرر القومى .

وفى المقام الثانى توجد أسباب جادة للشك فى تطبيق نظرية مارتن المقنعة فى قضايا أخرى فى نصف الأرض الغربى وفى عملها ، والتى تقول:

ارتبط وصول القومية فى شكلها الحديث المميز بالتعميد السياسى للطبقات الأدنى . . . المعادية أحيانا للديمقراطية . وكانت الحركات القومية شعبية فى شكلها وحاولت إدخال الطبقات الأقل فى الحياة السياسية . وقد أخذ هذا -فى أكثر أشكاله تقليدية - شكل طبقة متوسطة نشطة وقيادة فكرية تسعى لتقييم وتقنين طاقات الطبقات الشعبية لتساند هذه الدول الجديدة[2].

وفى نهاية القرن الثامن عشر لم تكن الطبقات الوسطى بشكلها الأوروبى مهمة فى أمريكا الجنوبية والوسطى على الأقل . ولم يكن هناك أيضا شكل يوحى بوجود الصفوة المثقفة . فى "تلك الأيام التى كان الاستعمار سائدا فيها لم تكن القراءة تقطع العمل السياسى والتفاخرى الذى كان مسيطرا على حياة الناس"[3]. وكما رأينا ، فإن أول رواية أمريكية إسبانية ظهرت فى عام ١٨١٦ فقط بعد انفجار حروب الاستقلال ، وتشير الدلائل بكل وضوح إلى أن القيادة كانت فى أيدى ملاك الأراضى الأغنياء المتحدين مع عدد أصغر نسبيا من التجار وأنماط متعددة من أصحاب المهن من أمثال المحامين ورجال الجيش والموظفين المحليين[4] .

ويعكس محاولة ضم الطبقات الدنيا للحياة السياسية ، فإن العامل الجوهرى الذى حفز على الاستقلال عن مدريد فى حالات هامة كفنزويلا والمكسيك وبيرو كان الخوف من التحرك السياسى للطبقات الدنيا لتنشط انتفاضة الهنود أو العبيد الزنوج(٥). وزاد الخوف عندما اجتاح "سكرتير الروح العالمية" لهيجل إسبانيا فى ١٨٠٨، وبذلك حرم الكريول من التدخل العسكرى لشبه الجزيرة فى حالة الثورات . ففى بيرو كانت ذكريات الثورة بقيادة "توباك آمارو" (١٧٤٠ - ١٧٨١) ما تزال حية(٦) ، وفى ١٧٩١ قاد "توسان لأوفيرتير" ثورة العبيد الزنوج التى أقامت فى ١٨٠٤ ثانى جمهورية مستقلة فى نصف الكرة الأرضى وأخافت ملاك الأراضى العظام وسادة العبيد فى فنزويلا (٧) . وعندما أصدرت مدريد قانونا إنسانيا جديدا فى ١٧٨٩ يخص العبيد نصت فيه بكل تفصيل على واجبات وحقوق السيد والعبد "رفض الكريول تدخل الدولة بحجة أن العبيد نزاعون للشر والاستقلال ، وأنهم أساسيون فى الاقتصاد . ورفض المزارعون القانون فى فنزويلا وفى كل الكاريبى الإسبانى وأوقفوه فى ١٧٩٤ "(٨) . وقد صرح المحرر بوليفار نفسه مرة أن ثورة زنجية "أسوأ بألف مرة من الغزو الإسبانى" (٩). ولا يجب أن ننسى أن الكثير من قواد حركة الثورة فى المستعمرات الثلاث عشرة كانوا من كبار المزارعين ملاك العبيد . وكان توماس جيفيرسون واحدا من مزارعى فرجينيا الذين ثاروا فى السبعينيات من القرن الثامن عشر من جراء قرار الحاكم بتحرير العبيد الذين انفكوا عن ساداتهم المتوحشين(١٠) . إن نجاح إسبانيا فى العودة إلى فنزويلا مرة أخرى فى الفترة ما بين ١٨١٤ و١٨١٦ واستمرارها فى السيطرة على "كيتو" حتى ١٨٢٠ لأمر ذى دلالة كبيرة ، فالسبب فى ذلك أنها اكتسبت تأييد العبيد فى فنزويلا والهنود فى كيتو فى صراعهم ضد الكريول الثائرين(١١). وعلاوة على ذلك فطول مدة صراع القارة مع إسبانيا -التى كانت وقتها قوة أوروبية من الدرجة الثانية قهرت نفسها - تقترح "نحافة اجتماعية" من نوع معين لحركات الاستقلال فى أمريكا اللاتينية.

ولكنها لما كانت حركات استقلال قومية فقد غير بوليفار رأيه فى العبيد(١٢) ، وأعلن زميله المحرر سان مارتن فى ١٨٢١ أنه "لن يقال للأبوريجيين فى المستقبل إنهم هنود أو سكان أصليون بل هم أبناء بيرو ومواطنوها ، وسوف يعرفون بذلك"(١٣). ويجب أن نضيف أن ذلك حدث بينما لم تصل الرأسمالية الطباعية لهؤلاء الأميين بعد .

هذه هى المشكلة ، لماذا كانت مجتمعات الكريول هى التى طورت مفاهيمها عن

القومية مبكرا جدا قبل معظم أوروبا؟ لماذا كانت تلك الأقاليم الاستعمارية التى ضمت شعوبا كبيرة مقهورة ممن لا يتكلمون الإسبانية هى التى شكلت كريولات أعلنت مواطنة تلك الشعوب؟ وكذلك أصبحت إسبانيا[١٤] التى كانوا مرتبطين بها فى أشكال متعددة كعدو كائنا غريبا ، لماذا؟ ولماذا انقسمت الإمبراطورية الإسبانية الأمريكية التى استقرت بهدوء لمدة تقرب من ثلاثة قرون إلى ثمانية عشر دولة منفصلة فجأة؟

والعاملان المستخدمان فى تفسير هذا الغموض بشكل واسع هما إحكام سيطرة مدريد وانتشار الأفكار التحررية فى عصر التنوير فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . ويبدو صحيحا -بما لا يدع مجالا للشك - أن السياسات التى اتبعها "القائد المستنير" الناجح كارلوس الثالث (الذى حكم بين ١٧٥٩ - ١٧٨٨) أحبطت وأغضبت وأنذرت طبقات الكريول العليا بشكل متزايد ، ففرضت مدريد ضرائب جديدة وجعلت أسلوب جمعها أكثر كفاءة ، كما فرضت احتكارات تجارية وحددت التبادل التجارى بين نصفى الأرض لمصلحتها ومركزت الإدارة وطورت هجرة كبيرة من شبه الجزيرة[١٥] فيما يسمى -سخرية- الغزو الإسبانى الثانى لأمريكا . فالمكسيك على سبيل المثال كانت تمد التاج سنويا بثلاثة ملايين بيزيتا فى بداية القرن الثامن عشر . ولكن هذا المبلغ تضاعف بنهاية القرن ليصل إلى أربعة عشر مليونا استخدمت منها أربعة ملايين فقط للإنفاق على الإدارة المحلية[١٦] . ويتوازى مع ذلك تضاعف الهجرة من شبه الجزيرة خمسة أضعاف فى الحقبة بين ١٧٨٠ - ١٧٩٠ عنها فى الحقبة بين ١٧١٠ - ١٧٣٠ [١٧] .

ولا شك أيضا فى أن تحسن الاتصالات عبر الأطلنطى واشتراك مختلف البلدان الأمريكية مع مستعمريها فى لغات وثقافات قد أدى إلى سرعة وسهولة انتقال المفاهيم السياسية والاقتصادية الجديدة التى كانت تظهر فى غرب أوروبا. وقد أثر نجاح الثلاث عشرة مستعمرة فى ثورتها فى السبعينيات من القرن الثامن عشر واشتعال الثورة الفرنسية فى ثمانينيات نفس القرن تأثيرا كبيرا . ولا شىء يؤكد على هذه "الثورة الثقافية" أكثر من النزعة الجمهورية الواسعة للمجتمعات المستقلة حديثا[١٨]. وباستثناء البرازيل ، لم تكن هناك محاولة جادة فى أى مكان لإحياء مبدأ الملكية فى الأمريكتين . وربما لم تكن محاولة الإحياء تلك لتنجح فى البرازيل لولا هجرة الملك البرتغالى نفسه هربا من بونابارت فى عام ١٨٠٨ ؛ حيث عاش هناك لثلاثة عشر عاما ، وعند عودته توج ابنه ملكا محليا ؛ ليكون بدرو الأول ملك البرازيل[١٩].

بالرغم من أن العدائية الإسبانية وروح الليبرالية يلعبان دورا رئيسيا فى فهم دوافع المقاومة فى أمريكا الأسبانية إلا أنهما لا يفسران وحدهما كون كيانات مثل :"شيلى" و"فنزويلا" و"المكسيك" مقبولة عاطفيا وممكنة سياسيا(٢٠) ولا يفسران لماذا أعلن سان مارتن تعريف بعض الأبوريجيين بالاسم الجديد البيرويين (نسبة لبيرو) . وهما أيضا فى النهاية لا يبرران التضحيات . فبينما من المؤكد أن الطبقات العليا الكريولية -المعروفة بأنها تشكيل اجتماعى تاريخى -استفادت من الاستقلال كثيرا على المدى البعيد ، فإن العديد من أعضاء تلك الطبقات والذين عاشوا ما بين ١٨٠٨ و١٨٢٨ تحطموا اقتصاديا. فلنأخذ مثلا واحدا أثناء هجوم إسبانيا المضاد فى الفترة بين ١٨١٤ - ١٨١٦ "عانى أكثر من ثلثى عدد عائلات فنزويلا من ملاك الأراضى من التأميم الواسع النطاق"(٢١) والكثيرون ضحوا بحياتهم فى سبيل الهدف . وتدعونا الرغبة فى التضحية لدى أبناء الطبقات المستريحة للتفكير.

وماذا بعد ذلك؟ بدايات الإجابة تقع فى الحقيقة المدهشة التى تقول إن "كل جمهوريات أمريكا الجنوبية الجديدة كانت وحدة إدارية مستقلة منذ القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر"(٢٢). وهى - إذن - تقدم ، فى هذا المجال ، مثلا مبكرا لدول إفريقيا الجديدة وأجزاء من آسيا فى منتصف القرن العشرين ، وتشكل أيضا تناقضا كبيرا مع دول أوروبا الجديدة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وكان الشكل الأساسى لوحدات الإدارة الأمريكية عشوائيا وكيفما اتفق لحد ما محددا الحدود المكانية لغزوات عسكرية معينة . لكن وبمرور الزمن فقد طوروا واقعا أوضح وأكثر ثباتا تحت تأثير عوامل سياسية واقتصادية وجغرافية ، وقد أضفى اتساع الإمبراطورية الأمريكية الإسبانية والتنوع الواسع فى تربتها ومناخها -وقبل كل شيئ - الصعوبات الهائلة فى الاتصال فى زمن ما قبل الصناعة ، على هذه الوحدات الإدارية صفة الكفاية الذاتية . ففى فترة الاستعمار كانت الرحلة من بوانس أيرس إلى أكابولكو بالبحر تستغرق أربعة أشهر ، وتستغرق رحلة العودة وقتا أطول . وكانت الرحلة البرية من بوانس أيرس إلى سانتيجو تستغرق شهرين ، وتسعة شهور إلى قرطاجنة(٢٣). وبالإضافة إلى ذلك فإن سياسة مدريد التجارية حولت الوحدات الإدارية لمناطق اقتصادية منفصلة. "وكانت كل منافسة مع الدولة الأم ممنوعة على الأمريكيين ، ولم تستطع الأجزاء المنفردة التبادل التجارى مع بعضها البعض . وكان لزاما على البضائع الأمريكية المنتقلة من جانب لآخر فى القارة أن تسافر بشكل

دائرى عبر موانئ إسبانية ، وكانت البحرية الإسبانية محتكرة تجارة المستعمرات"[٢٤]. وتساعد هذه الخبرات فى توضيح لماذا "كان واحد من المبادئ الأساسية فى الثورات الأمريكية" هو "uti possidetis" الذى كانت كل أمة بمقتضاه تحتفظ بحدود الأرض سنة ١٨١٠ ، وهو العام الذى بدأت فيه حركة الاستقلال"[٢٥]. وقد ساهم تأثيرهم – بدون شك – فى إنهاء "جران كولومبيا" القصيرة العمر والتى أسسها بوليفار ، وإنهاء اتحاد أقاليم "ريو دولا بالاتا" وحله ليعود إلى أجزائه القديمة المعروفة الآن بفنزويلا وكولومبيا وإكوادور والأرجنتين وبوليفيا وأوروجواى وباراجواى . ولكن كونها مناطق تجارية ومناطق جغرافية طبيعية ووحدات سياسية إدارية لا يخلق ارتباطا، فمن ذا الذى يموت بمحض إرادته من أجل الكوميكون أو الوحدة الاقتصادية الأوروبية ؟

ولكى نرى كيف أدركت الوحدات الإدارية بمرور الزمن أنها أوطان ليس فقط فى أمريكا بل فى كل مناطق العالم ، فيجب أن ننظر فى الأساليب التى تصبح فيها التنظيمات الإدارية ذات معنى . قد كتب الأنثروبولوجى فيكتور ترنر كتابة مفيدة عن "الرحلة" عبر الأزمان والأماكن والأحوال كتجربة خلق معنى[٢٦]. وتتطلب كل تلك الرحلات تفسيرا ، فمثلا أخرجت الرحلة من الميلاد حتى الموت مفاهيم دينية متعددة الوجود . ولكن – ولنركز على غرضنا هنا – الرحلة المناسبة هنا هى رحلة الحج ، وهو ليس الحج الذى فى عقول المسيحيين والمسلمين والهندوس الذى تكون فيه مناطق روما ومكة وبينارس هى مراكز القداسة الجغرافية . ولكن المرء يستطيع أن يعيش مركزيتها ويدركها بالمعنى المسرحى للكلمة من الفيض المستمر للحجاج النازحين إليها من المناطق النائية والمعزولة . فى الحقيقة ، إن تحديد الحدود الخارجية للمجتمعات الدينية القديمة المتخيلة لحد ما يقوم على الحج الذى يؤديه الناس[٢٧]. وكما قلنا سلفا فإن التباين الفيزيائى بين المالايويين (نسبة إلى سكان الملايو) والفارسيين والهنود والأتراك والبرابرة فى مكة أمر لا يمكن أن يفهم بدون فكرة تجمعهم حول شئ ما . فعندما يقابل البربرى الملايوى أمام الكعبة يجب أن يسأل نفسه لماذا يفعل ذلك الرجل مثل ما أفعل ، ويقول مثل ما أقول بالرغم من أننا لا نستطيع محادثة بعضنا البعض ؟ هناك إجابة واحدة لهذه الأسئلة وهى لأنهما مسلمان . وبالتأكيد ، كان هناك دائما عنصر مزدوج لآلية عمل أنظمة الحج القديمة الكبيرة ، فهناك الأعداد الكبيرة من الأميين الذين يتكلمون لغاتهم المحلية ، والذين كان من شأنهم تقديم الواقع المادى المكثف للأداءات الاحتفالية . بينما تؤدى فئة محدودة من ذوى الخبرة الذين يتكلمون

لغتين – والمأخوذين من كل جماعة لغوية – الطقوس التجميعية ، ويفسرون لتابعيهم معانى حركاتهم الجماعية(٢٨). وفى عصور ما قبل الطباعة ، كانت واقعية المجتمعات الدينية المتخيلة تعتمد اعتمادا كبيرا على رحلات كثيرة لا تتوقف . ولا يستثير إعجاب المرء شىء فى العالم المسيحى القديم فى أعز أيامه أكثر من التدفق غير المدفوع من المريدين المخلصين من كل أوروبا إلى روما عبر "المراكز الإقليمية" المشهورة للتعليم الكنسى . وقد جمعت تلك المؤسسات العظيمة التى – كانت اللاتينية لغتها – من الممكن تسميتهم الآن الأيرلنديين والدنماركيين والبرتغاليين والألمان معا فى جماعات كانت معانيها المقدسة تتكشف كل يوم من تباين أعضائها التى لا يمكن بدونه تفسير تجمعهم .

بالرغم من أن رحلات الحج الدينية قد تكون أكثر رحلات الخيال عظمة ومساسا بالعاطفة فإن لها أندادا دنيوية أكثر تواضعا ومحدودية(٢٩). ولعل أهمها لنا الآن الرحلات المتنوعة التى أوجدتها الملكيات المطلقة ، وبالتالى الدول الإمبراطورية فى العالم والمتمركزة فى أوروبا . وكان من شأن الدفعة الداخلية للحكم المطلق أن يخلق نسق قوة موحد خاضع ومخلص للملك ضد طبقة النبلاء الإقطاعية الخاصة واللامركزية . ويعنى التوحيد التبادل الداخلى للرجال والوثائق والذى يرعى عملية تبادل الرجال هذه هى عملية –لدرجات متفاوتة– لرجال جدد لم تكن لهم لهذا السبب قوة مستقلة . وعلى ذلك يقومون بدور التابع لإرادات سادتهم(٣٠). ويسافر موظفو دول الحكم المطلق فى رحلات مختلفة عن رحلات النبلاء الإقطاعيين (الرحلة هنا ليست رحلة بمعناها المعروف ، ولكن معناها القيام بأدوار الحياة من أولها لآخرها ، فهى تشبه الرحلة وعلاوة على ذلك فهو يستخدم لفظ "رحلة" كما استخدمه الأنثروبولوجى ترنر)(٣١) . ويمكن توضيح الاختلاف بين الرحلتين كالتالى : فى الرحلة الإقطاعية النموذجية يقوم النبيل الوريث عند وفاة الأب بارتقاء سلمه ليأخذ مكانه ويتطلب هذا الصعود رحلة إلى المركز لمراسم التقليد ويعود بعد ذلك لمكان الأجداد . ولكن الأمور تتعقد أكثر بالنسبة للموظف الجديد ؛ فالموهبة لا الموت هى التى تغير مساره ، ويرى أمامه قمة لا مركز ، فيتسلقها فى سلسلة من القفزات المتعرجة التى يتمنى أن تصغر كلما اقترب من تلك القمة . فقد يرسل إلى مدينة (أ) فى وظيفة (س) ويعود إلى العاصمة على درجة (ص) ويذهب بعد ذلك لمحافظة (ب) على درجة (ط) ويترقى لوظيفة حكومية كبيرة على درجة (ك) وينهى حجه فى العاصمة على درجة (ى) . ولا

يوجد فى هذه الرحلة مكان راحة مضمون ، فكل وقفة آنية مؤقتة ، والشىء الأخير الذى يرغب فيه الموظف هو العودة للبيت ، فليس له أى بيت ذو قيمة داخلية . ويقابل فى الطريق الدائرى للأعلى زملاءه الحجاج المتحفزين من الموظفين من أماكن وعائلات لم يسمع بها من قبل ولا يتمنى بالتأكيد أن يضطر لرؤيتهم . ولكن وعيا بالارتباط يظهر فى تجربة مرافقته لهم فى الرحلة (لماذا نحن ... هنا ... معا) من خلال استخدام لغة واحدة مشتركة هى لغة الدولة . ولذلك فإذا كان الموظف (ا) من محافظة (ب) يدير محافظة (ج) بينما يدير الموظف (د) من محافظة (ج) ، محافظة (ب) فإن هذه حالة بدأت أنظمة الحكم المطلق توجدها ، وتحتاج عملية التبادل والإبدال هذه لتفسير ، وهو أيديولوجية الحكم المطلق التى طورها الرجال الجدد أنفسهم كما طورها الملك .

لقد رعى نمو لغة دولة محددة وتطورها عملية تبادل وإبدال الوثائق التى عضضت عملية تبادل وإبدال البشر وساندتها . وكما يبين تتابع الأنجلوساكسونية واللاتينية والنورمانية والإنجليزية المبكرة على الحكم فى إنجلترا من القرن الحادى عشر حتى الرابع عشر، فإن كل لغة مكتوبة تستطيع أن تؤدى تلك الوظيفة إذا تمكنت من السيطرة . كذلك يستطيع المرء أن يجادل فيقول إنه إذا كانت اللغات المحلية – لا اللاتينية – هى التى تمتلك السيطرة فإنها كانت ستؤدى وظيفة أكثر فى المركزية هى تضييق وتحديد انسياب موظفى ملك من الملوك إلى آليات منافسيه ، مؤكدين أن موظفى مدريد للحجاج لن يمكن تبادلهم وإبدالهم بموظفى باريس .

فى الأساس ، قد يكون توسع ممالك أوروبا الحديثة العظيمة خارج القارة مساهما فى توسيع النموذج السابق فى تطوير البيروقراطيات الكبيرة عابرة القارات . ولكن ذلك لم يحدث فى الواقع ، فلم يكن الأداء العقلانى للإدارات المطلقة –بالرغم من كل نزعاتها للضم والترقية بحسب المهارة لا الميلاد – يعمل إلا بصورة متقطعة بعد السواحل الشرقية للأطلنطى[٣٢].

والنسق فى الأمريكتين واضح ، فعلى سبيل المثال ، كان هناك أربعة كريولات فقط من مجموع ١٧٠ فيكاريو فى أمريكا الإسبانية قبل عام ١٨١٣ ، وتعتبر تلك الأرقام مدهشة بشكل أكبر إذا علمنا أنه فى عام ١٨٠٠ كان أقل من خمسة بالمائة من مجموع ٣,٢٠٠,٠٠٠ كريوليون بيض –الذين كانوا دخلاء على حوالى ١٣,٧٠٠,٠٠٠ من السكان الأصليين– إسبان مولودين فى إسبانيا . وعشية الثورة

فى المكسيك كان هناك أسقف كريولى واحد ، مع أن الكريول والقادمين من شبه الجزيرة كانوا بنسبة سبعين لواحد فى الولايات[٣٣] . ولا نحتاج طبعا أن نقول إنه لم يسمع تقريبا بأى من الكريول يرتقى لوظيفة ذات أهمية رسمية فى إسبانيا[٣٤].

وعلاوة على ذلك فإن رحلات الحج الوظيفية للكريوليين لم تكن فقط مغلقة من الناحية الرأسية . فإذا كان الموظفون الإسبان يستطيعون السفر من سرقسطة إلى قرطاجنة أو من مدريد إلى ليما وإلى مدريد مرة أخرى ؛ فإن الكريولى المكسيكى أو الشيلى يستطيع أن يخدم فقط فى النطاق الحدودى للمكسيك أو شيلى الاستعمارية ، فحركته الأفقية محدودة ، كما أن صعوده الرأسى محدود . وبهذا الشكل فإن أقصى قفزته وأعلى مركز إدارى يوكل إليه يكون عاصمة الوحدة الإمبراطورية التى وجد فيها نفسه[٣٥] . ومع ذلك فقد وجد الموظف الكريولى فى هذا الطريق المحدود رفقة سفر بدأوا يحسون أن رفقتهم وزمالتهم مبنية ، ليس فقط على الطول المحدود لتلك الرحلة فحسب ، بل على القدر المشترك فى الميلاد وراء الأطلنطى . فحتى لو أنه ولد فى أول أسبوع من هجرة أبيه فإن حادث الميلاد فى الأمريكتين يحكم عليه بالدونية حتى لو لم يختلف – فى دينه ولغته وأصوله وتصرفاته – عن الإسبان المولودين فى إسبانيا. فلا يمكن عمل أى شىء حيال ذلك وهو من لحظتها كريولى . ويبدو أن استبعاد شخص مثله كان يبدو من الغباء ، ولكن –وخلف ذلك الغباء– كان هناك منطق يقول : لأنه ولد فى الأمريكتين لا يستطيع أن يكون إسبانيا حقيقيا ، والإسبانى المولود فى إسبانيا لا يستطيع أن يكون أمريكيا حقيقيا[٣٦].

وما الذى جعل هذا العزل مقبولا فى العاصمة؟ لا شك أنه الاندماج بين الأفكار المكيافيلية التى كانت مقدسة آن ذاك وبين ازدياد المفاهيم عن التلوث البيولوجى والطبيعى التى صاحبت انتشار الأوربيين والقوة الأوربية فى كل أنحاء العالم منذ القرن السادس عشر فصاعدا ؛ فالكريوليون الأمريكيون الذين يزدادون دائما ويتأصلون فى الأرض المحلية جيلا بعد جيل يمثلون –من وجهة نظر الملك – مشكلة سياسية فريدة من نوعها تاريخيا . فلأول مرة كان على العاصمة أن تتعامل مع عدد كبير –فى هذا الوقت– من "الأوربيين أمثالها" والذين بلغ عددهم أكثر من ثلاثة ملايين فى أمريكا الإسبانية فى عام ١٨٠٠ وتتعامل معهم بعيدا عن أوروبا . وإذا كان من السهل قهر السكان الأصليين بالمرض والسلاح كما تسهل السيطرة عليهم بغيبيات المسيحية والثقافة الغربية عنهم بالإضافة إلى تنظيم سياسى متقدم فى ذلك الوقت فإن

نفس الشيء لا يعمل مع الكريوليين الذين يحملون نفس العلاقة بالأسلحة والأمراض والمسيحية والثقافة الأوروبية التى يحملها سكان الدولة الأم . وبصياغة أخرى ، فإنهم فى الأساس يمتلكون فى أيديهم الوسائل العسكرية والسياسية والثقافية التى تمكنهم من فرض أنفسهم بنجاح ، فقد أسسوا فى ذات الوقت مجتمعا استعماريا وطبقة مرتفعة ، وكانوا تابعين ومستغلين (بفتح الغين) اقتصاديا ، ولكنهم كانوا أساسيين فى استقرار الإمبراطورية . ومن هنا ، يستطيع المرء أن يرى توازيا ما بين وضع الكريول الكبار والبارونات الإقطاعيين الذين كانوا ضروريين لسلطة الملك ، ولكنهم أيضا كانوا تهديدا لها فى ذات الوقت . وعلى ذلك فإن رجال شبه الجزيرة (يعنى بشبه الجزيرة أيبيريا) المبعوثين ليكونوا فيكاريو وأساقفة قد لعبوا نفس الدور الذى لعبه الرجال الجدد فى البيروقراطيات الأولية المطلقة[٣٧]. ومهما يكن الفيكاريو رجلا عظيما نبيلا فى وطنه الأندلسى فإنه هنا على بعد ٥٠٠٠ ميل ، وبالمقارنة بالكريول فهو رجل جديد يعتمد اعتمادا كاملا على رئيسه فى الوطن الأم . وبهذا الشكل فإن التوازن بين الموظف القادم من شبه الجزيرة وبين الكريولى الثرى العظيم تعبير جديد وتجسيد للسياسة القديمة التى تقول بمنطق فرق تسد فى أرض جديدة .

إضافة إلى ذلك ، فإن نشوء مجتمعات الكريول فى الأمريكتين أساسا – إلى جانب أجزاء من آسيا وإفريقيا – أدى إلى ظهور فئة من الآسيويين الأوروبيين والأفارقة الأوروبيين فضلا عن الأمريكان الأوروبيين –بالطبع – الذين لم يكونوا مجرد طفرة عارضة بل فئات اجتماعية ملحوظة . وقد سمح ظهور هذه الفئات لنمط من التفكير يتنبأ بانتشار العنصرية الحديثة . وتقدم البرتغال – أقدم فاتحى أوروبا – مثلا واضحا لهذه النقطة ، ففى آخر حقبة من حقب القرن الخامس عشر استطاع «الدوم مانويل الأول» "حل" "المشكلة اليهودية" عنده بالتحويل الدينى القهرى والجماعى . ومن الجائز أن يكون هو الحاكم الأوروبى الأخير الذى يرى أن هذا الحل مرض وطبيعى[٣٨]. ومع ذلك ، وبعد أقل من قرن ، نرى أليكساندر فاليجنانو منظم الحملات الجزويتية فى آسيا فيما بين ١٥٧٤ و١٦٠٦ يعارض بشدة دخول الهنود والهنود الأوروبيين للكنيسة كالتالى:[٣٩]

> **كل هذه الأجناس المظلمة أجناس غبية وشريرة وأرواحها دنيئة . . . . . وبالنسبة لل"مستيكوس" وال"كاستيكوس" فيجب ألا نقبل إلا القليل أو لا نقبل أحدا إطلاقا وخاصة بالنسبة للمستيكوس ك لأن فيهم دماء أكثر من السكان الأصليين ، وهم بذلك يشبهون الهنود أكثر ، ولا يقدرهم البرتغاليون .**

وقد شجع فاليجنانو بحماس ضم اليابانيين والكوريين والصينيين والهندوصينيين إلى العمل الكنسي ، ربما لأنه لم يظهر في تلك المناطق "الميستيزو" بعد بأي أعداد. (الميستيزو هم المخلطون من أب إسباني وأم أجنبية) . وبنفس الشكل فقد عارض الفرنسيسكان البرتغاليون ضم الكريول في "جوا" بعنف متعللين بأنهم "حتى لو ولد الفرد من أبوين أبيضين خالصين ، فقد أرضعتهم هنود في طفولتهم فأفسدوا دماءهم للأبد" (٤٠). ويوضح بوكسر أن الفروق العنصرية والعزل قد زادا في القرن السابع عشر والثامن عشر عن تلك الممارسات في الفترات السابقة ، وقد أسهمت عملية إحياء الرقيق في أوروبا لأول مرة منذ الأزمان القديمة بزعامة البرتغال عام ١٥١٠ بشكل كبير في تلك النزعة الشريرة . ففي ١٥٥٠ كان عشر سكان لشبونا من العبيد وبحلول ١٨٠٠ كان هناك ما يربو على المليون عبد من بين مليونين ونصف مليون نسمة في البرازيل البرتغالية (٤١).

وقد أثر التنوير بشكل غير مباشر في بلورة الفروق الجوهرية بين أبناء الوطن الأم والكريوليين . وفي فترة حكمه التي دامت ٢٢ عاما من ١٧٥٥ إلى ١٧٧٧ لم ينف الحاكم بومبال المتنور الجزويتيين من الأراضي الواقعة تحت السيطرة البرتغالية فحسب بل عد تسمية الرعايا "الملونين" بأسماء مهينة أو شتمهم مثل "زنجي" أو "مستيكو" عملا إجراميا عدائيا . ولكنه برر هذا القرار باستخدام مفاهيم المواطنة الاستعمارية الرومانية القديمة وليس مذاهب الفلسفة(٤٢). وبنفس الأسلوب فإن كتابات روسو وهردر التي افترضت أن للمناخ والطبيعة تأثيرا بناء في الثقافة والشخصية قد أثرت . (٤٣) وبناء على ذلك ، كان من السهل تقديم الافتراض الشعبي المناسب ، وهو أن الكريوليين المولودين في نصف الكرة المتوحش كانوا بطبيعتهم مختلفين وأدنى من أبناء الوطن الأم ، ولذلك لم يكونوا أكفاء للوظائف العليا (٤٤).

كان اهتمامنا منصبا – حتى الآن – على عالم الموظفين في الأمريكتين الذي كان عالما مهما واستراتيجيا وإن كان صغيرا . وعلاوة على ذلك فقد كان ذلك العالم هو الذي مهد لظهور الوعي القومي في أمريكا في أواخر القرن الثامن عشر عن طريق الصراعات بين أبناء الوطن الأم وبين الكريوليين . ولم يكن لرحلات الحياة الفيكارية العرجاء أية توابع حاسمة إلا بعد أن تخيلوا مساحتهم المكانية أوطانا ، وبعبارة أخرى بعد وصول الرأسمالية الطباعية.

وانتشرت الطباعة نفسها في إسبانيا الجديدة مبكرا ، وإن بقيت لقرنين تحت

السيطرة المحكمة للتاج والكنيسة . وحتى نهاية القرن السابع عشر كانت المطابع موجودة فقط فى مدينتى المكسيك وليما ، وكان إنتاجها - فى الغالب الأعم- إنتاجا دينيا . وفى هذا القرن وفى أمريكا الشمالية البروتوستانتية كانت الطباعة موجودة بالكاد ، ولكن ثورة وقعت فى غضون القرن الثامن عشر. فبين عامى ١٦٩١ و١٨٢٠ نشر ما لايقل عن ٢١٢٠ جريدة عاش منها ٤٦١ أكثر من عشر سنوات(٤٥).

وفى أمريكا الشمالية ، كانت شخصية بنيامين فرانكلن مرتبطة ارتباطا كاملا بالقومية الكريولية. ولكن أهمية تجارته ليست بنفس الوضوح . ويوضح لنا فبفر ومارتن ويذكراننا بأن الطباعة "لم تتم فى أمريكا الشمالية أثناء القرن الثامن عشر حتى اكتشف الطابعون مصدرا جديدا للدخل وهو الجرائد"(٤٦). والطابعون الذين يبدأون العمل الطباعى يضمنون عملهم جريدة عادة ما تكون هى الرئيسية أو الوحيدة فى هذا النشاط . ولذا كان الطابع الصحفى ظاهرة أمريكية شمالية فى الأساس . ولما كانت مشكلة الطابع الصحفى الأساسية هى الوصول للقراء فقد ظهر تحالف متين بينهم وبين المسؤولين عن البريد لدرجة أن كل منهما أصبح الآخر. وعلى هذا فقد أصبح مكتب رجل الطباعة مفتاح الاتصالات والحياة العقلية للمجتمع فى أمريكا الشمالية . وفى أمريكا الإسبانية وبالرغم من البطء والتقطع فقد خلقت عمليات مماثلة أول مطابع محلية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر(٤٧).

فما هى مميزات الجرائد الأمريكية المبكرة سواء فى الشمال أو الجنوب؟ بدأت الجرائد كملحق للسوق وقد تضمنت الجرائد المبكرة بجانب أخبار العاصمة أخبارا تجارية مثل مواعيد وصول السفن ومغادرتها وأسعار تداول البضائع الموجودة فى الموانئ . بالإضافة إلى علاقات المستعمرة السياسية وزيجات الأغنياء وما إلى ذلك . وبعبارة أخرى فإن الشىء الذى جمع على صفحة واحدة الزواج والسفن والأثمان والأساقفة هو بناء إدارة المستعمرة نفسه ونظام السوق فيها. وبهذا الشكل فمن الطبيعى - وربما أيضا من السياسى - أن توجد جريدة فى كركاس مجتمعا متخيلا بين جماعة معينة من القراء الذين تنتمى إليهم تلك الأسعار والسفن والأساقفة والزيجات. وبالطبع ، مع مرور الزمن كان ، من المتوقع أن تدخل العناصر السياسية أيضا.

وكانت المحلية ، دائما ، واحدا من الملامح الخصبة لتلك الصحف . فمن الممكن أن يقرأ الكريولى فى مستعمرته الجريدة المدريدية إذا أتيحت له الفرصة ، ولكنها لن تقول

له شيئا عن عاله ، ولكن الموظف من البلد الأم والذى يعيش فى نفس الشارع يود إذا استطاع لذلك سبيلا ألا يقرأ الإنتاج الكركاسى ، ويمكن تطبيق هذه المعادلة غير المتكافئة على عدد لا حصر له من المواقف الأخرى فى المستعمرات . وتعد التجميعية ملمحا آخر من تلك الملامح الخصبة ؛ فقد كتبت الصحف الأمريكية الإسبانية التى تطورت فى نهاية القرن الثامن عشر وهى على علم كامل بالصحف المحلية الموجودة فى عوالم أخرى موازية لعالمهم . وحتى لو لم يقرأ قراء الجرائد فى مدينة المكسيك أو بوانس أيرس أو بوجوتا صحف بعضهم البعض ، فإنهم مع ذلك على دراية كاملة بوجودها . ومن هنا كانت الازدواجية المعروفة فى القومية الأمريكية الإسبانية المبكرة وهى التراوح بين امتدادها الكبير وخصوصيتها المحلية . ومع أن القوميين المكسيكيين الأوائل كتبوا عن أنفسهم أنهم nosotros los americanos ، وكتبوا عن بلدهم أنها nuestra America فقد فسر الأمر على أنه يبين غرور الكريوليين المحليين الذين رأوا أنفسهم مركز العالم الجديد ، لأن المكسيك كانت أغلى ممتلكات إسبانيا فى أمريكا[٤٨]. ولكن الناس فى كل مكان من أمريكا الإسبانية – فى الحقيقة – كانوا يعتقدون أنهم "أمريكيون" لأن هذا المصطلح يشير باختصار للقدر المشترك فى الميلاد خارج إسبانيا[٤٩] .

وقد رأينا فى ذات الوقت أن مفهوم الصحف ذاته يقترح تفتيت حتى "الأحداث العالمية" فى عالم متخيل محدد من قراء لغة محلية . كما تعد فكرة التزامن الثابت المستقر هامة لهذا المجتمع . وقد صعب الاتساع الهائل للإمبراطورية الإسبانية فى أمريكا وانعزال أعضائها من تخيل ذلك التزامن[٥٠]. فقد يعلم المكسيكيون ببعض التطورات فى بوانس أيرس بعدها بشهور ويعرفونها عن طريق الصحف المكسيكية وليس من صحف ريو دو لا بالاتا ، وتبدو الأحداث مشابهة لما يحدث فى المكسيك وليست جزءا منها .

بناء على ذلك ، يعكس "فشل" التجربة الأمريكية الإسبانية – فى إنشاء قومية تضم كل أمريكا الإسبانية – كلا من المستوى العام لتطور الرأسمالية والتكنولوجيا فى أواخر القرن الثامن عشر والتخلف "المحلى" للرأسمالية والتكنولوجيا الإسبانية مقارنة بالامتداد الإدارى للإمبراطورية . وربما كان للفترة التاريخية التى ولدت فيها كل القوميات فى العالم تأثير كبير على دائرتها . ألم تكن القومية الهندية متصلة بتوحيد الإدارة فى أسواق المستعمرة عن طريق أكثر القوى الإمبراطورية تقدما وقوة؟

وكان وضع الكريوليين البروتوستانتيين الذين يتكلمون الإنجليزية فى الشمال أكثر حظا فى تحقيق فكرة "أمريكا" . وفى الواقع فقد نجحوا بعد ذلك فى فرض لقب "الأمريكيين" كلقب يومى . وقد كان حجم الثلاث عشرة ولاية الأصلية أصغر من فنزويلا وثلث مساحة الأرجنتين(٥١). ولأنها كانت متجاورة جغرافيا فقد تداخلت أسواقها التجارية فى بوستن وفلاديلفيا ونيويورك مع بعضها البعض وارتبط سكانها ببعضهم البعض ارتباطا وثيقا لحد ما عن طريق الطباعة والتجارة. واستطاعت "الولايات المتحدة" أن تتكاثر عدديا بالتدريج على مدى المائة وثلاثة وثمانين عاما التالية عندما نزح سكان قدامى وجدد ناحية الغرب خارجين من قلب الساحل الشرقى . ومع ذلك وفى حالة الولايات المتحدة توجد عناصر "فشل" نسبى أو عجز فى حالة عدم ضم كندا المتحدثة بالإنجليزية وفترة الاستقلال المؤقت لتكساس من ١٨٣٥ إلى ١٨٤٦ ، فلو وجد مجتمع يتحدث الإنجليزية فى كاليفورنيا فى القرن الثامن عشر ألم يكن من الممكن أن تقوم دولة مستقلة لتلعب نفس الدور الذى لعبته الأرجنتين فى بيرو ذات الثلاث عشرة ولاية؟ وحتى فى الولايات المتحدة كانت روابط القومية المؤثرة مع التوسع السريع فى الحدود الغربية والتناقضات التى تولدت بين اقتصاد الشمال والجنوب مرنة بدرجة كافية للتعجيل بحرب انفصالية بعد قرن تقريبا من إعلان الاستقلال . وتذكرنا هذه الحرب اليوم بتلك الحروب التى فصلت فنزويلا وإكوادور عن "جران كولومبيا" ، وتلك الحروب التى فصلت أوروجواى وباراجواى عن اتحاد أقاليم ريو دو لا بالاتا(٥٢).

وقد يكون من المناسب –لننهى بشكل مؤقت – أن نركز على الدوافع المحدودة والموحدة لموضوعنا حتى الآن . فلم يكن فى النية توضيح الأسس الاجتماعية الاقتصادية لمقاومة الوطن الأم فى نصف الكرة الغربى بين ١٦٧٠ و١٨٣٠ بقدر ما كانت النية شرح سبب إدراك تلك المقاومة فى شكل جماعى "قومى" وليس فى أشكال أخرى ، فالمصالح الاقتصادية على حافة الخطر كانت معروفة جيداً وذات أهمية كبيرة. ومن الواضح أنه كان لليبرالية والتنوير أثر قوى قبل كل شيء فى توفير ترسانة الانتقادات الأيديولوجية للحكم الاستعمارى القديم . أفترض أنه لا المصالح الاقتصادية ، ولا الليبرالية ، ولا التنوير خلقت – ولا تستطيع أن تخلق ، بمفردها – نوعاً ولا شكل المجتمعات المتخيلة التى يدافع عنها الناس ضد استنزاف ذلك الحكم . وبتعبير آخر لم يقدم أحد إطار الوعى الجديد –هوامش النظر غير المرئية – بالمقارنة مع الأشياء المحبوبة أو المكروهة فى وسط المجال البصرى(٥٣). وفى تحقيق هذه المهمة المحددة لعب الموظفون الكريول ورجال الطباعة الكريول دورا تاريخيا حاسما .

## الهوامش:

١) الكريول Criollo : شخص من أصل أوروبي خالص -نظريا على الأقل- ولكنه ولد في الأمريكتين وبعد ذلك اتسع المعنى ليشمل كل من ولد خارج أوروبا.

٢) The Break-up of Britain, p.41 .

٣) Gerhard Masur, Simon Bolivar, p.17 .

٤) Lynch, The Spanish-American Revolutions, pp. 14-17. وقد نبعت هذه المعايير من حقيقة أنه بينما كانت الوظائف الإدارية والتجارية الهامة تحت احتكار الإسبان المولودين في إسبانيا كان امتلاك الأرض مفتوحا للكريوليين.

٥) هناك تشابه واضح في هذا المجال مع القومية البيورية بعد ذلك بقرن .

٦) ربما يكون من الجدير بالذكر أن "توباك أمارو" لم ينكر التحالف مع الملك الإسباني كلية فهو وأتباعه الذين كانوا في معظمهم من الهنود -وإن كان فيهم بيض ومهجنون- ثاروا في غضب ضد الحكم في ليما.
Masur, Bolivar, p.24 .

٧) Seton-Watson, Nations and States, p.201 .

٨) Lynch, The Spanish-American Revolutions, p.192 .

٩) المرجع السابق ص ٢٢٤

١٠) Edward S. Morgan, "The Heart of Jefferson," The New Work Review of Books, August 17, 1978, p.2 .

١١) Masur, Bolivar, p. 207; Lynch, The Spanish-American Revolutions, p.237 .

١٢) ولم يخل الأمر من بعض التحولات والالتواءات ، فقد استطاع أن يحرر عبيده بعد إعلان فينزويلا الاستقلال في ١٨١٠ - بقليل وعندما هرب لهيتي في ١٨١٦ حصل على مساعدات عسكرية من الرئيس ألكسندر بتيون في مقابل وعد بإنهاء العبودية من كل الأرض المحررة . وقد نفذ الوعد بعد ذلك في كركاس في عام ١٨١٨ ، ولكن يجب أن نتذكر أن نجاحات مدريد في فنزويلا في عامي ١٨١٤ و١٨١٦ كانت راجعة لحد ما لتحرير العبيد الموالين لأسبانيا . وعندما أصبح بوليفار رئيسا لـ"جران كولومبيا" -التي تضم فنزويلا ونيو جرانادا وإكوادور في عام ١٨٢١ - طلب من البرلمان قانونا لتحرير أبناء العبيد واستصدره منه "ولم يطلب من الكونجرس أن يمحو العبودية لكي لا يؤلب عليه كبار ملاك الأراضي". Masur, Bolivar, pp. 125, 206-207, 329 and-388 .

١٣) Lynch, The Spanish-American Revolutions, p.276 .

١٤) هناك مفارقة تاريخية . كان المصطلح المتعارف عليه في القرن الثامن عشر لا يزال هو Las Espanas أي إسبانيات وليس Espana أي أسبانيا Seton-Watson, Nations and States, p.53 .

١٥) وكان هذا العداء الجديد من قبل الدولة الأم نتاجا - في بعضه - لأفكار التنوير ولمشاكل اقتصادية مزمنة ونتاجا جزئيا بعد ١٧٧٩ للحرب مع إنجلترا. Lynch, The Spanish-American Revolutions, pp. 4-17.

١٦) المرجع السابق ص ٣٠١ . ذهب أربعة ملايين لدعم الإدارة فى أجزاء أخرى من أمريكا الأسبانية بينما كان ستة ملايين فائدة خالصة .

١٧) المرجع السابق ص ١٧ .

١٨) كان دستور الجمهورية الأولى فى فنزويلا عام ١٨١١ مأخوذا حرفيا -فى مواضع كثيرة - من دستور الولايات المتحدة Masur, Bolivar, p.131 .

١٨) يمكن العثور على تحليل كامل وواف للأسباب البنيوية التى جعلت من البرازيل استثناء فى Jose Murilo De Carvalbo, 'Political Elites-and State Building: The Case of Nineteenth-Century Brazil', Comparative Studies in Soceity and History, 24:3 (1982), pp. 378-99. وهناك اثنان من أكثر العوامل أهمية هما: ١) الفروق التعليمية فبينما "كان هناك حوالى ٢٣ جامعة موزعة فيما سيكون ١٣ دولة مستقلة" فى أمريكا الأسبانية "فقد رفضت البرتغال إنشاء أى مؤسسة للتعليم العالى فى مستعمراتها بغض النظر عن المتقيات الدينية" . وكان التعليم العالى فقط فى جامعة كيومبارا وذهب أبناء الصفوة الكريول للبلاد الأم ودرس معظمهم فى كلية الحقوق . ٢) إمكانيات وظائف مختلفة للكريوليين. ويلاحظ دو كارفالبو "عمليات عزل الأسبان المولودين فى أمريكا عن الوظائف الهامة على الجانب الإسبانى". انظر أيضا Stuart B. Schwartz, 'The Formation of a colonial Identity in-Brazil,' Chapter 2 in Nicholas Canny and Anthony Pagden, eds, Colonial Identity in the atlantic World, 1500-1800. ويقدم هذا الكتاب ملحوظة عابرة فى ص ٣٨ وهى "لم توجد فى البرازيل مطبعة عاملة فى أول ثلاثة قرون من الفترة الاستعمارية ."

٢٠) ويمكن قول ذلك أيضا بشكل كبير على لندن ، مقارنة بالثلاث عشرة مستعمرة ، وعن أيديولوجية ثورة ١٧٧٦ .

٢١) Lynch, The Spanish-American Revolutions, p. 208; cf. Masur, Bolivar, pp. 98-99 and-231 .

٢٢) Masur, Bolivar, p.678 .

٢٣) Lynch, The Spanish-American Revolutions, pp. 25-26.

٢٤) Masur, Bolivar, p.19 .كانت تلك المعايير بالطبع مدعومة جزئيا فقط ، وكانت أعمال التهريب جارية بشكل كبير.

٢٥) المرجع السابق ص ٥٤٦ .

٢٦) انظر The Forest of Symbols, Aspects of Ndembu Ritual, وانظر بشكل خاص فصل 'Betwixt and Between: The Liminal Period in Rites de Passage.' ولمستوى أعقد من التفاصيل انظر Dramas, Fields, and Metaphors Symbolic action in Human Soceity, chapter 5 ('Pilgrimages-as Social Processes') and 6 ('Passages, Margins, and Poverty: Religious Symbols of Communitas').

٢٧) انظر Bloch, Feudal Soceity, 1, p.64 .

٢٨) توجد هنا مماثلات واضحة مع الأدوار التى تلعبها كل من طبقة المثقفين الذين يتكلمون لغتين وطبقة

العمال والفلاحين الأمية بشكل واسع فى قلب كل حركة ثورية قبل ظهور الراديو الذى اخترع فقط فى ١٨٩٥ وقد جعل الراديو من الممكن تخطى الطباعة واستحضار تمثيل مسموع للمجتمع المتخيل حيثما لم تستطع *الطباعة الاختراق* . وقد همش دوره فى الثورة الفيتنامية والأندونيسية وفى الحركات القومية فى منتصف القرن العشرين عموما ولم يدرس بعناية .

٢٩) لا يجب أن يؤخذ "الحج الدنيوى" على أنه استعارة خيالية وقد كان كونراد ساخرا ولكن دقيقا ، فى نفس الوقت ، عندما وصف مندوبى ليوبولد الثانى فى رواية "قلب الظلام" على أنهم حجاج .

٣٠) خاصة أينما كان ١) الزواج بطرف واحد مدعوما قانونيا ودينيا ٢) ونظام انتقال *الميراث* للابن الأكبر هو القاعدة. ٣) والألقاب غير الملكية قابلة للتوريث ومنفصلة قانونيا ومفهوميا عن *المراتب الرسمية* ، بمعنى أن الأرستقراطية المحلية كانت تتمتع بقوة مستقلة لحد كبير كما هو الحال فى إنجلترا فى مقابل سيام .

٣١) انظر : Bloch, Feudal Society, II, PP.422 ff.

٣٢) من *الواضح* أنه لا يجب تضخيم تلك العقلانية فحالة المملكة المتحدة التى كان الكاثوليك فيها ممنوعين من المناصب حتى ١٨٢٩ لم تكن فريدة من نوعها. وهل يمكن أن يشك المرء فى أن ذلك العزل قد لعب دورا هاما فى رعاية القومية الأيرلندية؟

٣٣) Lynch, The Spanish-American Revolutions, pp. 18-19,298 كان نصف أبناء شبه الجزيرة ال ١٥٠٠٠ جنودا

٣٤) وفى العقد الأول من القرن التاسع عشر بدا أن هناك ٤٠٠ مقيم أمريكى جنوبى فى إسبانيا فى وقت واحد بما فيهم سان مارتن الأرجنتينى الذى أُخذ لإسبانيا وهو طفل وقضى هناك ٢٧ عاما والتحق بالأكاديمية الملكية لشباب النبلاء وقد أدى دورا مميزا فى الصراع المسلح ضد نابليون قبل أن يعود *إلى* بلاده ، *عندما* سمع بإعلان الاستقلال . وكان من ضمنهم أيضا بوليفار الذى أقام فى مدريد مع مانويل *ميلو الأمريكى* عاشق *الملكة مارى لوى* ، ويصفه ماسور (١٨٠٥) "بأنه ينتمى لمجموعة من الشباب *الأمريكيين الجنوبيين*" – *الذين كانوا* مثله – "أغنياء وعاطلين ومبعدين عن عطف البلاط . وشعور الكريول بالكراهية والدونية بالنسبة *للبلد الأم تطور لدفعات ثورية*" Bolivar, pp. 41-47 and 469-70 (San Martin)

٣٥) وبمرور الزمن أصبح الحج العسكرى بأهمية الحج المدنى . "لم يكن لأسبانيا الأموال ولا القوة البشرية لتحتفظ بكتائب كبيرة دائمة فى أمريكا . واعتمدت بشكل أساسى على *مليشيات المستعمرات التى* توسعت وأعيد *تنظيمها* من منتصف القرن الثامن عشر". المرجع السابق ص ١٠ . وكانت تلك المليشيات محلية بالدرجة الأولى فلم تكن *جزءا* من جهاز أمنى للقارة بأكملها . ومنذ ١٧٦٠ فصاعدا لعبت تلك المليشيات دورا كبيرا بشكل متزايد كلما تزايدت هجمات بريطانيا وكان والد بوليفار قائدا عسكريا كبيرا ودافع عن موانئ فنزويلا ضد المتدخلين وقد خدم بوليفار نفسه فى وحدة أبيه عندما كان شابا Masur, Bolivar, pp. 30 and 38 . فكان – *بهذا الشكل* – مثلا لكثير من أبناء *الجيل الأول* من القادة القوميين *الأرجنتينين والفنزويليين والشيليين*. انظر Robert L. Gilmore, *Caudillism and Militarism in Venzuela, 1810-1910*, chapter 6 ['The Militia'] and 7 ['The Military'].

٣٦) لاحظ التحولات التى *جرها الاستقلال* على الأمريكيين ، فقد أصبح مهاجروا *الجيل الأول* فى الوضع الأدنى لا الأعلى فهم الأكثر تلوثا بسبب مكان الميلاد وينقلب الوضع أيضا فى رد الفعل مقابل العنصرية فكان الدم الأسود يعنى أكثر الأشياء تلويثا ال"أبيض" فى ظل الاستعمار أما اليوم فى الولايات المتحدة على الأقل

دخل الإنسان الهجين المتحف وأصغر أثر "للدم الأسود" يجعل الفرد جميلا أسود . قارن ذلك ببرنامج "فيرمن" الطموح للتهجين وعدم اهتمامه بلون الهجين المتوقع.

٣٧ ولأن إسبانيا كانت مهتمة أشد الاهتمام بأن تكون إدارة المستعمرات في أيد أمينة "فكان من الحتمي أن تكون الوظائف العليا في أيدي الإسبان المولودين في إسبانيا." Masur, Bolivar, p. 10.

٣٨) Charles R. Boxer, The Portuguese Seaborne-Empire, 1415-1825, p. 266.

٣٩) المرجع السابق ص ٢٥٢

٤٠) المرجع السابق ص ٢٥٣

٤١) Rona Fields, The Portuguese Revolution and the Armed Forces Movement, p.15.

٤٢) Boxer, The Portuguese Seaboren Empire, pp. 257-58.

٤٣) Kemilainen, Nationalism , 72-73.

٤٤) ركزت هنا على الفروق العنصرية بين أبناء شبه الجزيرة وبين الكريوليين ، لأن الموضوع الأساسي للنقاش هو القوميات الكريولية ، ولا يجب أن يفهم ذلك على أنه تحقير من شأن الارتفاع الموازي للعنصرية الكريولية ضد المخلطين -عندما يكون أحد الأبوين إسباني والثاني كريولي - والزنوج والهنود ولا يجب أن يفهم أيضا أنه تحقير من شأن إرادة أبناء الدولة الأم في حماية تعساء الحظ أولئك لحد ما.

٤٥) Febvre and Martin, The coming of the Book, pp. 208-11.

٤٦) المرجع السابق ص ٢١١

٤٧) Franco, An Introduction, p. 28.

٤٨) Lynch, The Spanish-American Revolutions, p.33.

٤٩) " اشتكى أحدهم من أن مراقبا إسبانيا من مقاطعته ضربه فثار سان مارتن ، ولكنها كانت غضبة قومية لا اشتراكية "ماذا ترى؟ بعد ثلاثة أعوام من الثورة ، يتجرأ إسباني متوحش أن يرفع يده على أمريكي."" المرجع السابق ص ٨٧

٥٠) وتعتبر رواية ماركيز "مائة عام من العزلة" عن "ماكوندو" الخرافية استدعاء لانعزال الشعوب الأمريكية الإسبانية وبعدها .

٥١) كانت المساحة الكلية للمستعمرات الثلاث عشرة ٣٢٢,٤٩٧ ميلا مربعا وكانت مساحة فنزويلا ٣٥٢,١٤٣ ومساحة الأرجنتين ١,٠٧٢,٠٦٧ ومساحة أمريكا الجنوبية الإسبانية ٣,٤١٧,٦٢٥ ميلا مربعا

٥٢) وتمثل "برجواي" محل اهتمام خاص . وبفضل الدكتاتورية المعتدلة التي أسسها الجزويت هناك في القرن السابع عشر ، فقد عومل الهنود أفضل مما عوملوا به في بلاد أخرى من أمريكا الإسبانية . وأصبحت الجوراني لغة طباعة . وقد أدى طرد الملك للجزويت من أمريكا الإسبانية في ١٧٦٧ إلى وضع البلاد تحت حكم ريو دو لا بالاتا بعد مدة طويلة ولفترة لا تتعدى جيلا واحدا انظر Seton-Watson, Nations and States, pp. 200-201.

٥٣) ومن الدال أن يتكلم إعلان الاستقلال في ١٧٧٦ فقط عن "الشعب" بينما لا تظهر كلمة الأمة إلا في دستور ١٧٨٩ Kemilainen, Nationalism, p. 105.

## الفصل الخامس

# لغات قديمة ونماذج حديثة

تزامنت نهاية حقبة حركة التحرير القومى الناجحة فى أمريكا تقريبا مع بداية عصر القومية فى أوروبا . وإذا أخذنا بعين الاعتبار شخصية تلك القوميات التى غيرت شكل العالم القديم فيما بين ١٨٢٠ و١٩٢٠ فإن صفتين مميزتين تفصلانها عن سابقاتها . الأولى ، فى كل هذه القوميات تقريبا، كانت "لغات الطباعة القومية" تحمل أهمية سياسية وأيديولوجية كبيرة بينما لم تكن اللغتان الإسبانية والإنجليزية محل اهتمام على الإطلاق فى أمريكا الثورية . الثانية أن كل هذه القوميات استطاعت أن تحذو حذو أمثلة مرئية قدمتها سابقاتها البعيدة والقريبة بعد اضطرابات الثورة الفرنسية القريبة العهد . ولذلك فقد أصبحت "الأمة" كيانا يستطيع الناس أن يتطلعوا إليه من خلال منظور قريب . وفى الواقع – وكما سنرى – فقد أثبتت "الأمة" أنها اختراع يستحيل أن توفر له علاجا فقد أصبحت فكرة متاحة لأيدٍ مختلفة وأحيانا غير متوقعة . لذلك سيكون التحليل فى هذا الفصل منصبا على لغات الطباعة والقرصنة .

وحوالى نهاية القرن الثامن عشر أعلن يوهان جوتفريد فون هردر (١٧٤٤-١٨٠٣) – متجاهلا بعض الحقائق غير الأوروبية – أن " كل شعب فى حد ذاته وله صورته القومية كما أن له لغته"[1]. وقد أثر هذا المفهوم الإنجوأوروبى –الرائع عن القومية المرتبط بلغة خاصة – تأثيرا كبيرا فى أوروبا فى القرن التاسع عشر وأثر بشكل أكثر محدودية على التنظير اللاحق لطبيعة القومية . ما جذور هذه الأحلام؟ وقد استقرت هذه الجذور فى الغالب فى تضاؤل العالم الأوروبى بشكل كبير زمانيا ومكانيا والذى بدأ بالفعل فى القرن الرابع عشر بسبب دعاة الحركة الإنسانية فى البداية وبعد ذلك بسبب –وللتناقض– التوسع الأوروبى فى كل الأرض.

وقد عبر أورباخ عن الأمر تعبيرا مناسبا فقال:[2]

> **ومع بداية الحركة الإنسانية بدأ فى الظهور شعور بأن أحداث التاريخ والأسطورة الكلاسيكية ، وأيضا أحداث الإنجيل لم يعزلها عن الحاضر بعد الزمن فقط ، بل – كذلك – ظروف حياة مختلفة**

**تمام الاختلاف . وقد خلقت الحركة الإنسانية منظورا تاريخيا لم تمتلك أية حركة سابقة معروفة لنا مثل عمقه ، وذلك ببرنامجها لتحديد الأشكال التعبيرية والحياتية القديمة . فإن الإنسانى يرى التراث فى عمقه وبعده التاريخى ويرى – فى مقابل هذه الخلفية – الحقب المظلمة في العصور الوسطى التى تداخلت بين الفترتين . . . . . عازيا بذلك حياة الحكم الفردى للثقافة القديمة أو لسذاجة تاريخية للقرنين الثانى عشر والثالث عشر .**

قاد ظهور ما يمكن تسميته "بالتاريخ المقارن" إلى المفهوم الذى لم يسمع به حتى ساعتها وهو مفهوم "الحداثة" مقارنة بال"قدم" وتلك المقارنة ليست لصالح "القدم" بالضرورة . وقد ضمنت تلك المسألة فى "معركة القدماء والمحدثين" التى سيطرت على الحياة العقلية الفرنسية فى الربع الأخير من القرن السابع عشر(٣) وسأقتبس هنا من أورباخ مرة أخرى "أثناء حكم لويس الرابع عشر ، كان للفرنسيين الشجاعة فى أن يعتبروا ثقافتهم نموذجا صالحا على صعيد واحد مع ثقافات الأقدمين . وفرضوا هذه النظرة على باقى أوروبا"(٤).

وفى غضون القرن السادس عشر اقترح اكتشاف أوروبا ، لحضارات عظيمة كانت حتى ساعتها معروفة بقدر ضئيل كحضارات الصين واليابان وجنوب شرق آسيا وحضارة شبه الجزيرة الهندية واكتشافها لحضارات مجهولة تماما كالأستيك فى المكسيك والإنكا فى بيرو ، جماعية إنسانية عامة لا مناص منها . نمت معظم هذه الحضارات وانتشرت بعيدا عن تاريخ أوروبا المعروف وعن المسيحية والتراث أى بعيدا عن الإنسان المعروف ، ولا تمتد جذورها خارج جنة عدن كالأوروبيين . ولم تكن تلك الحضارات مقاربة لحضارات الأوروبيين بأى شكل . والشىء الوحيد الذى قد يسمح له بالوجود هو الزمن المتجانس الفارغ . ويمكن قياس تأثير "الاكتشافات" عن طريق الخصائص الجغرافية الخاصة للوحدات السياسية المتخيلة فى ذلك العصر. وتظهر المدينة الفاضلة التى كتبها مور فى ١٥١٦ على أنها حكايات بحار قابله الكاتب فى أنتورب والذى اشترك فى بعثة أميرجو فيسبوتشى للأمريكتين ١٤٩٧ ألى ١٤٩٨ . وكانت "أطلنطا الجديدة" ١٦٢٦ لفرناسيس بيكون جديدة –قبل كل شىء – لأنها دارت فى المحيط الهادى ، وجزيرة هويهنهم الخرافية ١٧٢٦ لسويفت جاءت بخريطة خيالية لجنوب الأطلنطى . ويمكن أن يكون معنى هذه الأماكن أكثر وضوحا إذا أدرك المرء

استحالة تخيل وضع جمهورية أفلاطون على أى خريطة سواء حقيقية أو خيالية . فكل هذه المدن الفاضلة المبنية على اكتشافات حقيقية لا يعاملها أحد على أنها جنات عدن المفقودة بل على أنها مجتمعات معاصرة. ويستطيع المرء القول : كان يجب أن تكون كذلك لأنها ألفت وكتبت على أن تكون نقدا للمجتمعات المعاصرة ، وعلاوة على ذلك فقد أنهت الاكتشافات ضرورة البحث عن نماذج من التراث المتلاشي(٥). وجاء على أثر المدن الفاضلة مشاعل التنوير فيكو مومنسيكيو وفولتير وروسو الذين استغلوا بشكل متزايد عالما غير أوربى "حقيقى" فى عدد كبير من الكتابات موجهة ضد المؤسسات الاجتماعية والسياسية الأوروبية . وعلى ذلك ، فقد أصبح من الممكن أن نفكر فى أوروبا على أنها واحدة من ضمن حضارات متعددة ، وليست مختارة ، ولا هى الأفضل بالضرورة(٦).

وعند الوقت المناسب ، سببت الاكتشافات والغزوات ثورة فى الأفكار الأوروبية عن اللغة . ومنذ الأيام الأولى جمع البحارة والمبشرون والتجار والجنود البرتغاليون والإسبان والهولنديون ، لأسباب عملية كالحرب والتجارة والمحادثة والبحرية ، قوائم كلمات للغات غير أوروبية لجمعها فى قواميس بسيطة . ولكن الدراسة العلمية للغة بدأت بداية حقيقة ، فقط ، فى نهاية القرن الثامن عشر . وقد جاءت دراسة وليام جونز الرائدة للغة السانسكريتية ١٧٨٦ كنتيجة للغزو الإنجليزى للبنغال . وقد أدت تلك الدراسة إلى إدراك أن الحضارة الهندية أقدم بكثير من الحضارة اليونانية أو اليهودية . وجاء فك "جان شامبليون" لرموز الهيروغليفية فى ١٨٣٥ كنتيجة لحملة نابليون على مصر فزاد ذلك الكشف من التراث غير الأوروبى(٧). وقد قللت تطورات الدراسات السامية من شأن فكرة كون العبرية لغة موغلة فى القدم أو أنها لغة ذات وقار سماوى . ومرة أخرى فقد أدرك الناس الأصول التى لا يمكن إدخالها فى النسق إلا عن طريق الزمن المتجانس الفارغ. "لم تعد اللغة كائنا متواصلا بين قوة خارجية والمتكلم الإنسان بقدر ما أصبحت عالما داخليا يخلقه ويحققه مستخدمو اللغة فيما بينهم"(٨). وجاءت الدراسات اللغوية الفيلولوجية نتاجا لتلك الكشوف . جاءت بدراسات النحو المقارن وتصنيف اللغات فى عائلات لغوية وإعادة بناء اللغات الأولية المنسية باستخدام البحث العلمى ، وكما يلاحظ هوبسباوم بصدق هنا أنها "أول علم يعترف بالارتقاء كأساس له "(٩).

ومن وجهة النظر هذه كان على اللغات المقدسة القديمة كاللاتينية واليونانية والعبرية

أن تختلط على مستوى الأصول اللغوية مع خليط من اللغات الشعبية المنافسة فى حركة أكملت العملية السابقة لخفض مكانتها فى السوق عن طريق الرأسمالية الطباعية . وإذا كانت كل اللغات اليوم تشترك فى مكانة واحدة مشتركة فى وجودها فى هذا العالم فإنها جميعا ، فى الأساس، تستحق الدراسة والإعجاب . ولكن ، مَنْ يعجب بها؟ من المنطقى ، وبما أن أياً من تلك اللغات لا تنتمى لله فسيعجب بها ملاكها الجدد – متحدثوها وقراؤها.

وكما يوضح سيتون واتسن فقد كان القرن التاسع عشر فى أوروبا والهوامش المحيطة بها مباشرة فترة ذهبية لتحويل معدى القواميس والنحاة والفيلولوجيين والأدباء للغات المحلية(١٠). وكانت أعمال هؤلاء المثقفين النشطة أساسية فى تشكيل قوميات أوروبا فى القرن التاسع عشر . ويتناقض ذلك تناقضا كاملا مع الموقف فى الأمريكتين فيما بين ١٧٧٠ و١٨٣٠ . وكانت معاجم اللغة الواحدة عبارة عن معلومات وافية واسعة للكنوز الطباعية لكل لغة يحملها الناس –إذا استطاعوا– من المتجر إلى المدرسة ومن المكتب إلى المنزل . وبينت معاجم اللغتين المساواة المستقبلية بين كل اللغات مهما كان الوضع السياسى الخارجى ، فبين دفتى المعجم التشيكى الألمانى –الألمانى التشيكى كانت اللغتان المزودجتان متساويتين ، وكان كتاب المعاجم الأبطال الذين كرسوا من عمرهم أعواما لإكمال المعاجم مرتبطين بالضرورة بمكتبات أوروبا العظيمة ، وخاصة مكتبات الجامعات أو أن هذه المكتبات ترعاهم . وكان الكثير من زبائنها طلبة المرحلة الجامعية وما قبل الجامعية ، وكانت نظرة هوبسباوم التى تقول : "يقيس تقدم المدارس والجامعات تقدم القوميات ؛ فقد أصبحت المدارس والجامعات بشكل خاص أبطال تلك القوميات" ، نظرة سليمة بالتأكيد فى أوروبا فى القرن التاسع عشر إن لم يكن ذلك فى أزمان وأماكن أخرى(١١).

وعلى ذلك يمكن للمرء أن يتتبع هذه الثورة فى عالم المعاجم ، كما يستطيع أن يتتبع الصرخة الصاعدة فى ترسانة الأسلحة عندما يشعل الانفجار الصغير انفجارات أخرى إلى أن يحول الانفجار النهائى الليل إلى نهار.

وبحلول منتصف القرن الثامن عشر ، لم تقدم أعمال العلماء الألمان والفرنسيين والإنجليز المجدة الحجم الكامل تقريبا للكلاسيكيات اليونانية فى شكل طبعات متاحة مع اللواحق الفيلولوجية والمعجمية الضرورية فحسب ، بل أعادت تقديم الحضارة الهلينية الوثنية القديمة اللامعة فى عشرات الكتب . وفى الربع الأخير من نفس القرن ،

أصبح هذا "الماضى" متاحا بشكل متزايد لعدد قليل من المثقفين الشباب المسيحيين الذين يتكلمون اليونانية والذين درس معظمهم أو سافر خارج حصار الإمبراطورية العثمانية(١٢). ولما راقتهم الهلينية فى مراكز الحضارة الأوروبية الغربية فقد أخذوا على عاتقهم تخليص اليونانيين المحدثين من البربرية . ويعنى ذلك تحويلهم إلى مخلوقات تستحق بريقليس وسقراط(١٣). والدليل على هذا التحول الواعى ، تلك الكلمات التى قالها أحد هؤلاء الشباب أدمنتيوس كورايس الذى أصبح بعد ذلك معد معاجم كبير ، وقد قال هذه الكلمات فى خطاب أمام مشاهدين فرنسيين فى باريس عام ١٨٠٢(١٤).

> **لأول مرة تتفحص الأمة منظور جهلها المفجع ، وترتعد عندما تنظر بعينيها على المسافة التى تفصل بينها وبين مجد أسلافها . ولكن ذلك الاكتشاف المؤلم لم يدخل اليونانيين لعالم اليأس ونحن سلالة اليونانيين الذين قالوا لأنفسهم يجب علينا إما أن نحاول أن نصبح مرة أخرى جديرين بحمل هذا الاسم أو أن لا نحمله .**

وبنفس الأسلوب ، وفى نهاية القرن الثامن عشر ، و ظهر نحو اللغة الرومانية وقواميسها وتاريخها متبوعا بنزعة ناجحة فى البداية تحت حكم هابسبورج ، وبعد ذلك تحت حكم العثمانيين فى إحلال الأبجدية الرومانية محل الكريلية ، وبذلك فصلت الرومانية بشكل حاسم عن جيرانها الأورثوذكس السلافيين(١٥). وفى الفترة بين ١٧٨٩ و١٧٩٤ أخرجت الأكاديمية الروسية المؤسسة على غرار الأكاديمية الفرنسية معجما روسيا فى ست مجلدات ، ووتبعه كتاب رسمى فى النحو فى عام ١٨٠٢ . ويمثل هذان الكتابان انتصارا للغة المحلية على سلافونية الكنيسة . بالرغم من أن التشيكية فى القرن الثامن عشر كانت لغة الفلاحين فقط فى بوهيميا ، وكانت الطبقة الوسطى الصاعدة والأرستقراطيون يتكلمون الألمانية ؛ إلا أن القس الكاثوليكى جوزيف دبروفيسكى ١٧٥٣–١٨٢٥ أخرج فى ١٧٩٢ كتابه تاريخ اللغة البوهيمية والأدب البوهيمى القديم . وكان أول تاريخ منظم للغة والأدب التشيكى وفى ١٨٣٥–١٨٣٩ ظهر معجم جوزيف يونجمان الرائد للتشيكية الألمانية فى خمسة مجلدات(١٦).

ويكتب إيجنوتوس عن ميلاد القومية المجرية على أنها حدث "حديث بالدرجة الكافية حتى يمكن تأريخه بعام ١٧٧٢ ، وهو العام الذى نشرت فيه بعض الأعمال غير القابلة للقراءة للكاتب المجرى متعدد المواهب جورجى بسنايى الذى أقام بعد ذلك فى فيينا ثم خدم فى حرس ماريا تريزا . وكان المقصود من "ماجنا أويرا" التى كتبها لكى تثبت أن

اللغة المجرية مناسبة (لكل جنس أدبى) راق"[١٧] ومن الحوافز أيضا النشر الواسع للكاتب فيرينك كازنسكى (١٧٥٩-١٨٣١) أبو الأدب المجرى والذى نقل ما سمى بعد ذلك بجامعة بودابست فى عام ١٧٨٤ من مدينة ترانافا الصغيرة إلى بودابست . وكان أول تحرك سياسى لها هو رد الفعل العدائى للنبلاء الماجيريين الذين يتكلمون اللاتينية فى ثمانينيات القرن الثامن عشر لقرار الإمبراطور جوزيف الثانى بإحلال الألمانية محل اللاتينية كلغة الإدارة الأولى فى الإمبراطورية[١٨].

وفى الفترة ما بين ١٨٠٠ و١٨٥٠ تشكلت ثلاث لغات أدبية فى شمال البلقان وهى السلوفينية والصربوكرواتية والبلغارية كنتيجة للأعمال الريادية لعلماء من أبناء لتلك اللغات . إذا كان من المعتقد فى عام ١٨٣٠ أن "البلغاريين" ينتمون لذات الأمة التى ينتمى إليها الصرب والكروات وشاركوا فعلا فى الحركة الإليرية ، كان من الممكن أن تقوم دولة قومية بلغارية فى ١٨٧٨ وفى القرن الثامن عشر كان مسموحا للغة الأكرانية -الروسية الصغيرة- على مضض ، أن تكون لغة الفلاحين البسطاء . ولكن إيفان كوتلافيسكى كتب فى عام ١٧٩٨ "أنيد" وهى قصيدة مشهورة تسخر من الحياة الأكرانية . وتأسست جامعة كراكوف فى ١٨٠٤ ، وسرعان ما أصبحت مركزا لتيار من الأدب الأكرانى . وفى ١٨١٩ ظهر أول كتاب للنحو الأكرانى بعد ١٧ عاما فقط من ظهور نظيره الروسى ، وتبع ذلك فى الثلاثينيات من نفس القرن أعمال تاراس شفيشنكو الذى قال عنه سيتون واتسن "إن تكوين لغة أدبية أكرانية مقبولة مدينة له أكثر منها لأى فرد آخر . وكان استخدام هذه اللغة الخطوة الحاسمة لنشأة الوعى القومى الأكرانى"[١٩] ، وبعد ذلك بفترة قصيرة وفى ١٨٤٦ أسس أحد المؤرخين فى كييف أول منظمة قومية أكرانية.

وكانت لغة الحكم فى ما يعرف الآن بفنلندا فى القرن الثامن عشر هى السويدية . وبعد اتحاد الأرض مع كزاردوم فى ١٨٠٩ أصبحت الروسية هى اللغة الرسمية . ولكن صحوة قامت بعد ذلك فى الاهتمام بالفنلندية والتراث الفنلندى كان التعبير عنها أولا بالنصوص اللاتينية والسويدية فى أواخر القرن الثامن عشر ، وجاء هذا التعبير فى عشرينيات القرن ذاته باللغة المحلية[٢٠] بشكل متزايد . وكان قادة الحركة القومية الفنلندية المتنامية هم "من ترتبط أعمالهم باللغة بشكل كبير كالكتاب والمدرسين والمحامين والكهنة . وتزامنت دراسة الفلكلور وتجميع ملاحم الشعر الشعبى بعد اكتشافها مع نشر كتب النحو والمعاجم ، وقد أدى ذلك إلى ظهور الدوريات التى

ساعدت فى تقعيد الفنلندية الأدبية الطباعية والتى أمكن من خلالها التقدم بطلبات سياسية كبيرة.[٢١] ، وفى حالة النرويج التى اشتركت مع الدانيمركيين فى لغة مكتوبة واحدة لمدة طويلة – رغم اختلاف النطق تماما – فقد ظهرت القومية مع كتاب إفار إسن الجديد فى النحو النرويجى ١٨٤٨ ومعجم النرويجية فى ١٨٥٠ ، وهى النصوص التى استجابت للمطالب بلغة نرويجية طباعية خاصة ونفذتها .

وفى مكان آخر ، وفى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر ، نجد أن كهنة البوير وأدباءهم تزعموا حركة القومية الأفريكانية (فى جنوب أفريقيا) الذين نجحوا فى سبعينيات القرن التاسع عشر فى تحويل اللهجة المحلية الهولندية إلى لغة أدبية وسموها اسما غير أوروبى . وقد كان المارونيون والأقباط الذين تخرج معظمهم من الكلية الأمريكية التى تأسست فى بيروت عام ١٨٦٦ وكلية القديس جوزيف الجزويتية التى تأسست فى ١٨٧٥ ، مساهمين عظام فى إحياء العربية الكلاسيكية وانتشار القومية العربية[٢٢]. ويمكن تتبع بذور القومية التركية بسهولة إلى ظهور مطبعة نشطة للغة التركية فى استانبول فى سبعينيات القرن التاسع عشر[٢٣].

ولا يجب أن ننسى أن نفس الحقبة شهدت تحويل نوع آخر من الصفحة المطبوعة إلى اللغة المحلية وهو الكتابة الموسيقية ، فجاء سميتانا بعد دوبروفسكى ودفوراك وجاناكك ، وجاء جريج بعد آسن وجاء بيلا باراتوك بعد كازانتسكى ، وهكذا حتى قرننا الحالى .

ويبدو من الثابت فى ذات الوقت ، أن هؤلاء الفلاسفة ومعدى المعاجم والنحويين والفلكلوريين والموسيقيين لم يزاولوا أعمالهم الثورية فى الفراغ . فقد كانوا على كل حال منتجين لسوق الطباعة ، وكانوا أيضا مرتبطين بالجمهور المستهلك عن طريق ذلك السوق الصامت . ولكن ، من كان هؤلاء المستهلكون؟ فى المفهوم العام كانوا عائلات الطبقات التى تقرأ ، ليس الأب العامل وحده ، ولكن الأم أيضا التى تخدم البيت ، والأولاد فى سن المدرسة . وإذا ذكرنا أنه حتى وقت متأخر عام ١٨٤٠ حتى فى بريطانيا وفرنسا ، أكثر دول أوروبا تقدما ، كان نصف الشعب تقريبا أميًا ، وكانت نسبة الأمية فى روسيا المتخلفة ٩٨ بالمائة فإن "الطبقات القارئة" تعنى نوى بعض القوة . وبشكل أكثر وضوحا فبالإضافة إلى الطبقات الحاكمة القديمة من النبلاء وأصحاب الأراضى من الأشراف كان هناك قساوسة ورجال بلاط وطبقات متوسطة صاعدة من صغار الموظفين من عامة الشعب والحرفيين والبرجوازيين الصناع والتجار.

شهدت أوروبا فى منتصف القرن التاسع عشر تزايدا سريعا فى النفقات الحكومية وحجم الموظفين المدنيين والعسكريين بالرغم من اختفاء أى حروب محلية كبيرة "وفيما بين ١٨٣٠ و١٨٥٠ ارتفعت النفقات الحكومية بمقدار ٢٥ بالمائة فى إسبانيا وبمقدار ٤٠ بالمائة فى فرنسا و٤٤ بالمائة فى روسيا و٥٠ بالمائة فى بلجيكا و٧٠ بالمائة فى النمسا و٧٥ بالمائة فى الولايات المتحدة وأكثر من ٩٠ بالمائة فى هولندا"(٢٤). وقد فتح التوسع الوظيفى ، وبالتالى التخصص الوظيفى ، باب الترقى الوظيفى لأعداد أكبر بكثير من أصول اجتماعية أكثر تعددا من ذى قبل . وخذ حتى مثل الإدارة المجرية النمساوية الواهنة ذات المهايا المرتفعة والخالية من النبلاء ، فالنسبة المئوية للموظفين من الذين تنتمى جذورهم للطبقات المتوسطة فى أعلى السلم الوظيفى فى القطاع المدنى ارتفع من الصفر عام ١٨٠٤ إلى ٢٧ بالمائة عام ١٨٢٩ و٣٥ بالمائة عام ١٨٥٩ و٥٥ بالمائة عام ١٨٧٨ وظهر الاتجاه نفسه فى الجيش مع أن ظهوره كان أبطأ وأكثر تأخرا ، فقد ارتفع عدد أبناء الطبقات الوسطى فى العدد الكلى للضباط من ١٠ بالمائة إلى ٧٥ بالمائة فى الفترة بين ١٨٥٩ و١٩١٨(٢٥).

إذا كان اتساع الطبقات الوسطى من الموظفين يعتبر ظاهرة تحدث بشكل متوازن فى نسب متفاوتة فى كل من الدول المتقدمة والمتخلفة فى أوروبا ، فإن ظهور البرجوازيين التجاريين والصناعيين كان بالطبع غير متوازن ؛ حيث كان سريعا وعاما فى بعض الأماكن وبطيئا ومتقطعا فى أماكن أخرى . ولكن المكان ليس مهما ؛ فالمهم هو أن يُفهمَ ذلك الظهور من خلال علاقته بالرأسمالية الطباعية للغات المحلية .

خلقت الطبقات الحاكمة قبل البرجوازيين تجانساتها بعيدا عن اللغة أو على الأقل خارج لغة الطباعة . فإذا أخذ ملك سيام نبيلة مالوية لتعيش معه كزوجة دون الزواج الرسمى أو إذا تزوج ملك إنجلترا أميرة إسبانية فهل يتكلم كل منهما مع الآخر بشكل جاد؟ وكان التضامن نتيجة للقرابة والعمالة والانتماءات الفردية . فيستطيع النبلاء"الفرنسيون" أن يعاونوا الملوك "الإنجليز" ضد الملوك "الفرنسيين" ، ليس انطلاقا من اللغة أو الثقافة المشتركة بل بعيدا عن الحسابات المكيافيلية . فكان المنطلق هو القرابات المشتركة والصداقات . ويعنى الحجم الصغير نسبيا للأرستقراطية التقليدية وأسسها السياسية الثابتة وتخصيص العلاقات المتمثل فى العلاقات الجنسية والميراث أن تجانسها فى طبقات كان ماديا بمقدار ما كان متخيلاً . فالنبلاء الأميون يتصرفون على أنهم نبلاء ، ولكن ماذا عن البرجوازيين؟ ونحن الآن أمام طبقة نجحت فى أن

تكون طبقة فقط من خلال تكرار كثير (لأفراد الطبقة) فصاحب المصنع فى "ليل" مرتبط بصاحب المصنع فى ليون فقط عن طريق الصدى . ولم يكن من الضرورى أن

يعرف أحدهما بوجود الآخر ، ولم يتزوجا من بنات بعضهما البعض ، ولم يرث أحدهما ثروة الآخر . ولكن ، قد بدأ يتكشف لهما بشكل عام وجود آلاف وآلاف من أمثالهما عن طريق اللغات الطباعية ، لأنه يصعب أن يتصور المرء وجود برجوازى أمى . وبناء على ذلك وفى الظروف التاريخية العالمية فالبرجوازيون هم أول الطبقات التى تحقق التضامن على أساس متوهم خيالى بشكل أساسى . ولكن فى أوروبا فى القرن التاسع عشر التى هزمت فيها الرأسمالية الطباعية للغات المحلية اللاتينية منذ قرنين تقريبا ، كان لهذا التضامن امتداد خارجى محدود بامتداد فهم كتابة أو طباعة اللغة المحلية . وبصياغة أخرى يستطيع الإنسان أن يضاجع أى إنسان ، ولكنه يستطيع فقط أن يقرأ كلمات بعض الناس .

كان النبلاء وملاك الأراضى والحرفيون والموظفون ورجال السوق هم مستهلكو نتاج الثورة الفيلولوجية المحتملين . ولكن هذا الحجم من العملاء لم يكن فى مكان من الأماكن ليتحقق بشكله الكامل . واختلفت تشكيلات المستهلكين الحقيقيين من منطقة لمنطقة اختلافا واسعا . ولكى يدرك المرء سبب ذلك عليه أن يعود للتناقض الجوهرى الذى رسمناه سلفا بين أوروبا والأمريكتين . فقد كان فى الأمريكتين تماثل تام تقريبا بين مساحة الإمبراطوريات المتعددة وبين لغاتها المحلية . ولكن تلك المصادفات ندرت فى أوروبا . والإمبراطوريات الوراثية الأوروبية كانت ذوات لغات متعددة بشكل أساسى ، وبتعبير آخر فقد رسمت السلطة واللغات الطباعية خرائط مختلفة .

لقد خلق التطور العام فى التعليم والتجارة والصناعة والاتصالات ونظم إدارة الدولة -التى ميزت القرن التاسع عشر- دفعات قوية جديدة للتوحيد اللغوى لكل لغة محلية داخل المملكة الواحدة . واستمرت اللاتينية كلغة دولة فى المجر النمساوية حتى الأربعينيات من القرن التاسع عشر واختفت بعد ذلك مباشرة تقريبا . من الممكن أن تكون لغة دولة ، ولكنها لا تستطيع فى القرن التاسع عشر أن تكون لغة التجارة والعلوم والصحافة أو لغة الأدب خاصة فى عالم اخترقت فيه كل تلك اللغات بعضها البعض بشكل مستمر.

واكتسبت اللغات المحلية -التى أصبحت لغات دولة – فى الوقت نفسه قوة ومكانة أكثر وأكثر فى عملية لم تكن مخططة بشكل كبير فى البداية على الأقل ، وعلى ذلك

فقد أخرجت الإنجليزية الجاليكية من معظم أيرلندا ، ودفعت الفرنسية البريتون إلى الحائط ، وهمشت القشطالية الكاتالية . ففى هذه الممالك كبريطانيا وفرنسا حدث فى منتصف القرن ، لأسباب خارجية تطابق تام بين لغات الدولة ولغة الشعب(٢٦). ولم يكن للتداخل العام الذى ذكرناه سابقا أثرا سياسيا دراميا وهذه الحالات -إنجلترا وفرنسا- أقرب الحالات للأمريكتين . وفى ممالك أخرى كثيرة تمثل فيها المجر النمساوية أكثر الأمثلة تطرفا - كانت النتائج متفجرة بشكل حتمى . لقد وعد إحلال أى من اللغات المحلية محل اللاتينية - فى إطاره الضخم المتفرق المتنوع المتزايد التعليم فى منتصف القرن التاسع عشر- أناساً ممن استخدموا *اللغات الطباعية* بالفعل بفوائد عظيمة . وظهر هذا التحول بمنتهى السوء لمن لم يستخدم تلك اللغات الطباعية . وأركز هنا على كلمة "أى" ؛ لأننا -كما سنناقش بتفصيل أكبر فيما بعد - فإن ترقية بلاط هابسبورج للألمانية فى القرن التاسع عشر لم يكن مرتبطا بالقومية الألمانية إطلاقا . وتحت هذه الظروف فإن آخر ما يتوقع المرء أن تقوم قومية واعية فى كل مملكة بين قراء اللغة الرسمية الأصليين. وقد نتجت تلك التوقعات من التسجيلات التاريخية .

وبالنسبة لحجم عملاء المعاجم ، فليس من الغريب ، بناء على ما سبق ، أن تجد أنواعا مختلفة من الزبائن باختلاف الظروف السياسية . ففى المجر ، على سبيل المثال ، حيث لم يوجد أى برجوازى ماجيرى كان ثمن العدد يدعى أصلا أرستقراطيا ، وقد دافعت فئات بسيطة من النبلاء الضعفاء وملاك الأراضى الفقراء عن اللغة المجرية الطباعية ضد تيار الألمانية(٢٧) ، ويمكن قول الكلام نفسه عن القراء البولنديين . ولكن -كما هو معروف - كان هناك تحالف بين الطبقات الأقل علوا مع الأكاديميين والحرفيين ورجال الأعمال ، وقد قدم الطرف الأول فى هذا التحالف غالبا الزعماء "العظام" ، وقدم الطرف الثانى والثالث الأسطورة/الفكرة والشعر والصحف والتشكيل الأيديولوجى ، وقدم الطرف الأخير المال وتسهيلات التسويق . ويقدم لنا كوراس وصفا لطيفا لحجم عملاء القومية اليونانية الذين كان معظمهم من المثقفين والمقاولين والمخططين:(٢٨)

> **بدأت الثورة مبكرا فى تلك المدن التى كانت أقل فقرا ، والتى كان فيها بعض السكان الموسرين والقليل من المدارس ، وبالتالى يوجد فيها القليل ممن يستطيعون -على الأقل- قراءة كتاب الأقدمين**

**وفهمهم ، وتقدمت فيها بشكل أسرع وأكثر طمأنة . وقد بدأ العمل على توسيع المدارس فى بعض تلك المدن بالفعل ، ويقدم فيها تعليم اللغات الأجنبية والعلوم التى تعلم فى أوروبا ويرعى الأغنياء طباعة الكتب المترجمة عن الإيطالية والفرنسية والألمانية والإنجليزية . ويرسلون الشباب المتحمس للعلم إلى أوروبا على نفقتهم الخاصة ويعلمون أولادهم تعليما أفضل ، غير مستثنين الفتيات. . . . ..**

وقد تطور اتحاد القراءة عبر وسط وشرق أوروبا وفى الشرق الأدنى عندما تقدم القرن بذات الشكل مع مؤلفات تقع على المنحنى الواصل بين اليونان والمجر(٢٩). واختلف مدى اشتراك الجماهير الحضرية والريفية فى المجتمعات المتخيلة الجديدة القائمة على اللغات المحلية اختلافا كبيرا . وقد اعتمد هذا المدى كثيرا على العلاقات بين هذه الجماهير وبين المبشرين بالقومية . وربما يمكن للمرء من ناحية أن يشير إلى أيرلندا ؛ حيث لعبت طبقة القساوسة الكاثوليك الخارجة من الفلاحين والمرتبطة بهم ارتباطا وثيقا دور وساطة حيوى . ويقترح هوبسباوم الناحية الأخرى ، ويقول فى ملحوظته الساخرة : "لقد عارض الفلاحون الجاليكيون الثائرين البولنديين فى ١٨٤٦ بالرغم من أنهم أعلنوا إلغاء نظام القنانة مفضلين قتل النبلاء . ووثق الفلاحون فى موظفى الإمبراطور"(٣٠). ولكن ، وفى كل مكان فى الواقع ، وبازدياد التعليم ، أصبح أسهل أن تستنفر معونة الناس عندما اكتشفت الجماهير مجدا جديدا فى ترقية الطباعة للغات التى كانوا يتكلمونها بتواضع .

وعلى ذلك ، وإلى نقطة معينة ، كانت صياغة نايرن التى تقول ، "كان لزاما على مفكرى القومية الجدد من الطبقة والسطى أن يدعوا الجماهير لدخول التاريخ . وكان على بطاقة الدعوة تلك أن تكون مكتوبة بلغة يفهمونها"(٣١) سليمة . ولكن ، سيكون من الصعب أن ندرك لماذا أصبحت تلك الدعوة جذابة بهذا الشكل ، ولماذا أصبحت التحالفات المختلفة تصدرها ، إلا إذا التفتنا للقرصنة ، ولم يكن مفكرو الطبقة الوسطى عند نايرن وحدهم المضيفين لهذه الدعوة .

ويلاحظ هوبسباوم "لم يقد أو يقم بالثورة الفرنسية أى حزب مشكل أو حركة بالمعنى المعاصر ، ولم يقدها رجال يحاولون القيام ببرنامج منظم ، وكذلك لم تفرز تلك الثورات قوادا كهؤلاء الذين تعرفهم ثورات القرن العشرين حتى ظهرت شخصية نابليون فيما بعد الثورة"(٣٢). ولكن كان ذلك بمجرد أن ظهر تدخل الذاكرة التراكمية

للطباعة . وقد أصبح التتابع المذهل للأحداث التى عاشها الصناع والضحايا شيئا يطلق عليه اسم "الثورة الفرنسية" . ومثل الحجر الضخم المربوط بعدد لا يحصى من نقط الماء ، فقد تشكلت الخبرة عن طريق ملايين الكلمات المطبوعة فى "مفهوم" على صفحة مطبوعة ، وفى الوقت المناسب تشكلها على هيئة نموذج (تحتذى به الثورات الأخرى) . ولكن لماذا حدثت ؟ وماذا كان الهدف ؟ ولماذا نجحت أو فشلت؟ فأصبحت كل هذه الأسئلة موضعاً لمناقشات عنيفة ومجادلات بين الأصدقاء والأعداء ، ولكن لم يشُكّ أحد ولو للحظة بعد ذلك فى وجودها(٣٣) .

وبذات الشكل ، أصبحت حركات الاستقلال الأمريكية "مفاهيما" ثم "نماذج" ، وبعد ذلك أصبحت علامات بمجرد أن كتب عنها كلام . وفى الحقيقة فإن "خوف بوليفار من ثورة الزنوج واستدعاء سان مارتن للهنود ليكونوا بيرويين دفعت بعضها البعض بفوضى . ولكنها محت الكلمات المطبوعة فورا ، ولذلك إذا ذُكرت على الإطلاق فتذكر على أنها حدث غير عادى . وجاءت هذه الحقائق المتخيلة من الفوضى والخليط الأمريكى فجاءت الدول القومية والمؤسسات الجمهورية والمواطنة العامة وسلطة الشعب والأعلام القومية والسلام الوطنى وما إلى ذلك ونتج عن ذلك . تذويب أضدادها المفهومية كالإمبراطوريات القائمة على حكم الأسرة والمؤسسات الملكية والحكم المطلق وتبعية المحكومين ووراثة النبالة والعبودية والجيتوهات وما إلى ذلك. ولا يوجد فى هذا السياق شىء أكثر إدهاشا من "المحو" العام للرق الجماعى من "ظاهرة" الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر أو من اللغة المشتركة ل"ظاهرة" الجمهوريات الجنوبية . وعلاوة على ذلك ، فقد كانت صلاحية هذه العلامة وتعميمها مؤكدتين – بدون شك – فى جماعية الدول المستقلة .

وبالتالى ، وفى العقد الثانى من القرن التاسع عشر ، إن لم يكن قبل ذلك ، أتيح نموذج للدولة القومية المستقلة للقرصنة(٣٤) . وأول جماعات تقوم بذلك العمل كانت التحالفات المهمشة القائمة على اللغات المحلية من المتعلمين الذين ركز هذا الفصل عليهم . ولأنه ، باختصار، النموذج المعروف آنذاك فقد وضع بعض "المعايير" التى لم يكن من المسموح الحياد عنها بشكل سافر. وحتى النبلاء المجريين والبولنديين المتخلفين والرجعيين تبعوها بصعوبة كى لا يجعلوا من دعوتهم لمواطنيهم المطحونين عرضا حتى ولو كانت هذه الدعوة جزئية . وإن أرادت ذلك ، فإن منطق سان مارتن فى جعل الناس بيرويين هو الذى يعمل ، وإذا كان "المجريون" يستحقون دولة قومية ،

فهذا يعنى أن كل المجريين هم الذين يستحقون[٢٥]. ويعنى ذلك أنها دولة يكون مركز السلطة الأعلى فيها فى يد الذين يتكلمون ويقرأون بالمجرية ، وتنوب فيها *العبودية* فى الوقت المناسب وتطوير التعليم العام وتوسيع قاعدة التصويت وما إلى ذلك . وعلى ذلك فقد كانت الشخصية الشعبية للقوميات الأوربية المبكرة - حتى إذا قادتها بشكل ديماجوجى أكثر الجماعات الاجتماعية تخلفا - أعمق منها فى الأمريكتين . فكان لزاما أن تزول العبودية ، ولم يكن الرق القانونى *متصورا* . وكان من الأسباب الجوهرية فى ذلك وضع النموذج المفهومى فى مكان ثابت.

## الهوامش

Kemilainen, Nationalism, p. 42 (١

Mimesis, p. 282. (٢

٣) بدأت المعركة رسميا فى ١٦٨٩ عندما نشر شارل بيرولت البالغ من السن ٥٩ عاما قصيدة Siecle de Louis Le Grand التى تقول أن العلوم والفنون بلغت شأوها فى عصره ومكانه.

٤) Mimesis, p.343 لاحظ أن أورباخ يتكلم عن "الثقافة" لا اللغة" ويجب أن نكون حذرين فى إعزاء "القومية" لهم .

٥) وبنفس الشكل هناك مقارقة لطيفة بين المنغوليين الشهيرينَ فى الدراما الإنجليزية. "تاميورلين العظيم" لمارلو (١٥٨٧-١٥٨٨) تصف ملكا مشهورا مات منذ ١٤٠٧ و"أورانجزب" لدريدن ١٦٧٦ تتحدث عن إمبراطور معاصر( ١٦٥٨-١٧٠٧)

٦) لذلك ، بينما فرضت الاستعمارية الأوروبية سيطرتها على الأرض وجدت الحضارات الأخرى نفسها مواجهة التجمعية بشكل قاس ، مما قضى على ميراثهم المقدس . ويعد تهميش المملكة الوسطى للشرق الأقصى دليل على هذه العملية

Hobsbawm, The Age of Revolution, p. 337 (٧

Edward Said, Orientalism, p. 136 (٨

Hobsbawm, The Age of Revolution, p. 337 (٩

١٠) فقط لأن تاريخ اللغة فى أيامنا عادة ما يحفظ بعيدا عن التاريخ التقليدى السياسى والاجتماعى والاقتصادى فقد بدا لى من المحبب أن أجمعه بهم حتى ولو كان ذلك على حساب الدقة" Nations and States, p.11 . ويعتبر اهتمام سيتون اتسون بتاريخ اللغة واحدا من العناصر القيمة فى نصه مع أننى قد أختلف معه حول كيفية توظيفه له.

١١) The Age of Revolution, p.166 لم يكن المؤسسات الأكاديمية أهمية عند القوميات الأمريكية ، ويقر هوبزباوم نفسه بأنه بالرغم من وجود أكثر من ستة آلاف طالب فى باريس ساعتها ، فلم يلعبوا أى دور فى الثورة الفرنسية تقريبا ص ١٦٧ . ويذكرنا أيضا أنه بالرغم من التطور السريع والكبير فى التعليم فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فلم يكن عدد المراهقين فى المدارس يذكر بمقاييسنا الحديثة فقد كان العدد ١٩,٠٠٠ طالب مدرسة ابتدائية فى فرنسا فى ١٨٤٢ ، و٢٠,٠٠٠ طالب مدرسة ثانوية من ثمانية وستين مليونا هو عدد الشعب فى روسيا القيصرية فى ١٨٥٠ . وكان العدد الكلى لطلاب الجامعة فى أوروبا عام ١٨٤٠ هو ٤٨,٠٠٠ ، ولكن وفى ثورات هذا العام لعبت هذه الجماعة الصغيرة ، ولكن المهمة كانت دورا حيويا . (PP 166-67)

١٢) ظهرت أول جريدة يونانية فى عام ١٧٨٤ فى فيينا وجماعة فيليك هيتاريا المسؤولة لحد كبير عن انتفاضة ١٨٢١ ضد العثمانيين تأسست فى عام ١٨١٤ فى ميناء أوديسا الروسى الجديد للحبوب.

١٣) انظر مقدمة كتاب كيدورى .Naationalism in Asia and Africa, p.40

١٤) المرجع السابق ص ٤٣ و٤٤ . النص الكامل لـ"حالة الحضارة اليونانية الحالية" لكورياس موجود فى ص١٥٧-٨٢ ١ ويتضمن تحليلات حديثة للأسس الاجتماعية للقومية اليونانية.

١٥) ولا أتظاهر بمعرفة كبيرة بأوروبا الوسطى والشرقية فقد اعتمدت كلية على سيتون واتسون فى التحليلات وانظر بخصوص الرومانية .Nations and States, p.177

١٦) المرجع السابق ص ١٥٠-١٥٣

١٧) .Paul Ignotus, Hungary, p.44 "لقد أثبت ذلك بالفعل ولكن كانت نزعته الجدلية أكثر إقناعا من القيمة الجمالية للأمثلة التى ساقها." وربما يكون من الجدير بالذكر أن هذا النص ورد فى عنوان جانبى تحت اسم "اختراع الأمة المجرية" الذى تفتتحه هذه العبارة : "تولد أمة عندما يقرر القليل من الناس أنها يجب أن تولد".

١٨) .Seton-Watson, Nations and States, pp.158-61 وكان رد الفعل عنيفا بدرجة كافية لإقناع ليوبولد الثانى خليفته الذى حكم من ١٧٩٠ إلى ١٧٩٢ ليعيد استخدام اللاتينية . وانظر أيضا الفصل السادس ومن المفيد أن نعرف أن كازانسكى تحيز سياسيا لجوزيف الثانى فى هذه المسألة. ,Ignotus Hungary, p.48

١٩) .Nations and States, p.187 ولا نحتاج أن نقول أن القيصرية أعطت هؤلاء الناس كتابة قصيرة مختصرة. وهزم شيفيشنكوفى سيبيريا ولكن الهابزبورجيين شجعوا القوميين الأكرانيين فى جاليكا ليوازنوا ضد البولنديين.

٢٠) Kemilainen, Nationalism, pp.208-15

٢١) Seton-Watson, Nations and States, p.72

٢٢) المرجع السابق ص٢٣٢ و٢٦١

٢٣) .Kohn, The Age of Nationalism, pp.105-7 ويعنى ذلك رفض "العثمانيين"كيانا وظيفيا ملكيا يضم عناصر تركية وفارسية وعربية . كان إبراهيم سيناسى الذى أسس أول جريدة من هذا النوع قد عاد من خمس سنين من الدراسة فى فرنسا وقد اقتفى كثيرون آثاره وفى ١٨٧٦ بلغ عدد الجرائد التركية اليومية فى استانبول سبعة جرائد.

٢٤) Hobsbawm, The Age of Revolution, p.229

٢٥) Peter J. Katzenstein, Disjoined Partners, Austria and Germany since1815, pp.74,112

٢٦) وكما رأينا فإن تحويل لغات الدولة للغات المحلية فى هاتين المملكتين كانت عملية آخذة فى الحدوث مبكرا جدا وفى حالة المملكة المتحدة فإن الإخضاع العسكرى لـ"جالتاشت" فى بداية القرن الثامن عشر ومجاعة الأربعينات من القرن التاسع عشر كانت عوامل مساعدة قوية.

٢٧) Hobssawm, The Age of Revolutions, p.165. ولكى تجد مناقشة ممتازة مفصلة انظر Jaszi, The Dissolution, pp.224-25. وانظر أيضا Ignotus, Hungary, pp. 44-56

٢٨) Kedourie, Natioalism in Asia and Africa, p.170 ويعد كل شىء هنا مثلا جيدا فإذا كان كورياس ينظر إلى "أوروبا" فإنها فوق كتفيه وهو فى مواجهة استانبول ولم تصبح العثمانية بعد لغة أجنبية وبخلت زوجات المستقبل غير العاملات فى سوق الطباعة.

٢٩) على سبيل المثال انظر Seton-Watson, Nations and Sta tesp.72 الفصل الخاص بفنلندا فى ١٤٥ وبلغاريا ١٥٣ وبوهيميا وسلوفاكيا ٤٣٢ . وانظر أيضا Kohn, The Age of Nationaism عن مصر فى ٨٣ وفارس فى ١٠٣

٣٠) The Age of Revolution, p.169

٣١) The Break-up of Britain, p.340

٣٢) The Age of Revolution, p.80

٣٣) قارن : "يعكس اسم الثورة الصناعية فى حد ذاته أثرها البطئ نسبيا على أوروبا وكان الشئ نفسه موجودا فى بريطانيا قبل اسمه ولكن فى العشرينيات من القرن التاسع عشر اخترع الاشتراكيون الإجليز والفرنسيون هذا الاسم وربما كان ذلك تقليدا للثورة السياسية فى فرنسا" *المرجع السابق* ص ٤٥

٣٤) وقد يكون أكثر دقة أن نقول إن النموذج كان تركيبة معقدة من عناصر فرنسية وأمريكية ، ولكن "الحقيقة الواضحة" فى فرنسا حتى بعد عام ١٨٧٠ هى عودة الملكية وإحلال ملكية ابن أخو نابليون العظيم.

٣٥) ليس هذا بسبب أن الأمر واضح وحاسم فنصف رعايا مملكة المجر ليسوا ماجيار وكان ثلث الأقنان فقط يتكلمون الماجيرية وفى بداية القرن التاسع عشر كانت الأرستقراطية الماجيارية تتكلم الفرنسية أو الألمانية "وتكلمت طبقة النبلاء المتوسطة والمنخفضة اللاتينية الفاسدة المختلطة بالماجيارية والسلوفاكية والصربية أيضا مع المصطلحات الرومانية بالإضافة إلى العامية الألمانية. . . . " Ignotus, Hungary, pp.45-46 and81

## الفصل السادس

# القومية الرسمية والاستعمار

فى غضون القرن التاسع عشر وخاصة فى نصفه الثانى وجدت الثورة الفيلولوجية المعجمية وظهرت الحركات القومية فى كل أوروبا - التى كانت هى نفسها نتاجا ليس فقط للرأسمالية بل لشيخوخة الدول الملكية - مشاكل ثقافية ، وبالتالى سياسية متزايدة لكثير من الملوك . والسبب فى ذلك كما رأينا أن الشرعية الأساسية لمعظم الملكيات لم تكن قد تمت للقومية الوطنية بأية صلة . فقد حكمت أسرة رومانوف التاتاريين واللتيين والألمان والأرمينيين والروس والفنلنديين ، ووضع الهابزبورجيون فوق الماجياريين والكروات والسلوفاك والإيطاليين والأكرانيين والنمساويين الألمان ، وحكم الهنوفريون البنجالى والكويبيكويس بالإضافة إلى الأسكوتلنديين والأيرلنديين والإنجليز والولزيين[1]. وعلاوة على ذلك وفى القارة غالبا ما حكم أفراد من نفس العائلات الملكية دولا مختلفة وأحيانا متعادية. فما هى الجنسية التى قد تعطى للبربونيين الذين حكموا فرنسا وإسبانيا ؟ وما هى الجنسية التى يجب أن تعطى للهوهنزولارن الذين حكموا بروسيا ورومانيا ولأسرة الفيتيلشاخ فى بافاريا واليونان ؟

وقد رأينا أيضا أنه بسبب أغراض إدارية فى الأساس استقرت تلك الممالك مع تفاوتات زمنية على لغات محلية طباعية معينة لتكون لغة الدولة ، ويكون ذلك "الاختيار" اللغوى نتيجة لميراث أو موافقة غير واعية.

ولكن خلقت الثورة المعجمية فى أوروبا ونشرت بالتدريج نظرية تقول إن اللغة فى أوروبا على الأقل ملكا خاصا لجماعات معينة من الناس الذين يتحدثونها ويقرأونها يوميا ، وعلاوة على ذلك كانت هذه الجماعات التى تخيلت أنها مجتمعات منوطة بمكانها المستقل فى مساواة أخوية. وقد سببت هذه الإزعاجات الفيلولوجية للملوك مشاكل كبيرة تنامت بمرور الزمن ، ولم تكن هذه المشكلة واضحة فى مكان ، كما كانت واضحة فى المجر النمساوية . وعندما قرر الملك المستنير جوزيف الثانى فى أوائل الثمانينات من القرن الثامن عشر أن يغير لغة الدولة من اللاتينية للألمانية "فلم يحارب مثلا ضد اللغة الماجيارية ، ولكنه حارب ضد اللاتينية. . . . . فقد كان يعتقد

أنه على أساس إدارة النبلاء اللاتينية فى العصور الوسطى لن يكون من الممكن أداء أى عمل فى صالح الجماهير. وقد بدت ضرورة وجود لغة موحدة تربط كل أجزاء الإمبراطورية ملحة ، ولم يستطع فى ظل هذه الضرورة أن يختار أى لغة سوى الألمانية ؛ فهى اللغة الوحيدة التى لها ثقافة وتراث عريضان تحت سيطرتها ، ولها أيضا أقليات معقولة فى كل مقاطعاته ."[٢] فى الواقع "لم يكن الهابزبورجيون لذلك قوة ألمنة واعية . . فكان هناك هابزبورجيون لا يتكلمون الألمانية حتى الأباطرة الهابزبورجيون الذين رعوا أحيانا سياسات الألمنة لم تقدهم فى مجهوداتهم تلك وجهات نظر قومية ، ولكن كانت تصرفاتهم محكومة ببنيتهم فى الوحدة وتوسيع إمبراطوريتهم"[٣]. وكان هدفهم الأساسى هو القوة ، ومع ذلك بعد منتصف القرن التاسع عشر حصلت الألمانية على مكانة مزدوجة بشكل متزايد فأصبحت "عالمية استعمارية" و"خاصة قومية". وكلما أقحمت المملكة الألمانية بقوتها كلها كلما ظهرأنها تنحاز لرعاياها الذين يتكلمون الألمانية وطالما استثار ذلك من عداء الباقين . ولكن إذا لم تقحمها الدولة – كما فعلت وقدمت سماحات للغات مختلفة وأولها المجرية – فإن الوحدة لن تتعطل فحسب بل سيسمح رعايا الدولة الذين يتحدثون الألمانية لأنفسهم أن يشعروا بالمواجهة ، ولذلك كانت مهددة بالكراهية سواء كانت بطلة الألمان أو خائنة لهم . وبنفس الشكل تقريبا فقد كره الذين يتحدثون التركية العثمانيين كمعادين ، وكرههم الذين لا يتحدثون التركية لأنهم ساعون للتريك .

وبما أن كل الممالك بحلول منتصف القرن التاسع عشر كانت تستخدم لغة محلية معينة كلغة الدولة[٤] أيضا بسبب التصاعد السريع لاحترام فكرة القومية فى كل أوروبا فقد كانت هناك نزعة ملحوظة فى ممالك البحر المتوسط الأوروبية للاقتراب من القومية الملحة ؛ فاكتشف آل رومانوف أنهم روس عظام ، واكتشف الهانوفريون أنهم إنجليز ، واكتشف الهوهنزولارن أنهم ألمان ، وتحول أبناء عمومتهم بصعوبة إلى رومانيين ويونانيين إلخ . ومن ناحية فقد دعم هذا الاقتراب شرعيات لا يمكن أن تعتمد بعد ذلك على القداسة المسلم بها ومجرد العراقة فى عصر الرأسمالية والشك والعلم . وعلى الناحية الأخرى فقد فرضت أخطار جديدة ، فإذا صنف القيصر فيلهالم الثانى نفسه مثلا "رقم واحد فى الألمان" فقد أقر ضمنيا أنه واحد من ضمن الكثيرين من نفس نوعه وأن له وظيفة تمثيلية ، وعلى ذلك يمكنه أن يكون من حيث المبدأ خائنا لمواطنيه الألمان وهو الشيء الذى لم يمكن تصوره فى عز الملكية فمن يخون ، وماذا

يخون؟ وبنهاية الكارثة التى حلت بألمانيا فى ١٩١٨ فقد أخذ بإقراره الضمنى هذا ، فقد أرسله السياسيون المدنيون الذين يتصرفون باسم الأمة الألمانية علنا والجهاز العام بشجاعته المعهودة سرا من أرض الوطن إلى ضاحية هولندية مجهولة . وعندما أعلن محمد رضا بهلوى نفسه شاه إيران ، فقد وصم بالخيانة ، وإذا كان قد قبل ذلك ليس الحكم بل تشريع القضاء الوطنى فقد ظهر فى كوميديا بسيطة لحظة سفره إلى منفاه ، فقبل أن يصعد سلم طائرته قبَّل الأرض أمام المصورين ، وأعلن أنه يأخذ معه كمية قليلة من التراب الإيرانى المقدس ، وهذه اللقطة مأخوذة من فيلم عن "جريبالدى لا أملك الشمس"[٥].

وقد قادت عملية "أنسنة" الأسر الأوروبية الحاكمة أى جعلها عادية وهى المناورات التى تحتاج فى الكثير من الأحيان إلى أكروبات ؛ أى ما يسميه سيتون واتسن "القومية الرسمية"[٦] والتى يمثل فيها الترويس القيصرى أفضل مثل ، ويمكن فهم تلك "القوميات الرسمية" على أنها وسيلة للجمع بين الأنسنة والاحتفاظ بالسلطة الملكية وخاصة على مناطق السيطرة الضخمة المتعددة اللغات المجمعة من العصور الوسطى أو نصوغ الأمر بصياغة أخرى ، لمد غطاء القومية القيصرى المحكم على جسم الإمبراطورية الضخم . وعلى ذلك فقد مثل ترويس رعايا القيصر من الشعوب غير المتجانسة عملية جمع واع عنيف لنظامين سياسيين متضادين أحدهما قديم والآخر حديث جدا ؛ فبينما يكون هناك تشابه مع ، مثلا ، أسبنة الأمريكتين والفلبين يبقى فرق جوهرى فقد كان غزاة القيصرية الثقافيون فى أواخر القرن التاسع عشر يتحركون من منطلق مكيافيلى واع بينما كان سلفهم الإسبان فى القرن السادس عشر يتصرفون وفقا لاتجاه عملى واع فى حياتهم اليومية ، ولم يكن الأمر بالنسبة لهم "أسبنة" على الإطلاق ولكنه كان ببساطة تحويل الكفار والمتوحشين (دينيا) .

ومفتاح تحديد وضع "القومية الرسمية" التى هى الجمع المقصود بين الأمة والإمبراطورية هو تذكر أنها تطورت بعد الحركات القومية الشعبية التى تزايدت فى أوروبا منذ عشرينيات القرن التاسع عشر وكرد فعل لها . فإذا كانت تلك القوميات منمطة على التاريخ الفرنسى والأمريكى فقد أصبحت الآن بدورها نماذج[٧]. وقد يحتاج الأمر فقط لحيلة معينة ومهارة ليسمح للإمبراطورية بأن تبدو جذابة فى زيها القومى .

ولكى يحصل المرء على فهم ما لعملية التنميط الرجعى الجانبى الكاملة تلك يمكننا

أن ندرس بعض الحالات الموازية ، ولكنها فى نفس الوقت مخالفة بشكل نافع .

ويوضح سيتون واتسن ببراعة شعور أسرة رومانوف الحاكمة بالضيق عندما بدأت لأول مرة فى "النزول للشارع"(٨). وكما قلنا سابقا فقد كانت لغة البلاط فى بطرسبرج فى القرن الثامن عشر هى الفرنسية ، وكانت لغة معظم النبلاء المحليين هى الألمانية ، وبعد غزو نابليون قدم الكونت سرجى أوفاروف تقريرا رسميا فى عام ١٨٣٢ قال فيه إن المملكة يجب أن تبنى على ثلاثة أسس هى الملكية والأرثوذوكسية والوطنية فإذا كان الأساسان الأولان قديمين فإن الثالث جديد تماما وسابق لأوانه بعض الشىء فى عصر كانت فيه نصف "الأمة" أقنانا وكان أكثر من نصفها يتكلم لغة أم غير الروسية . وقد أعطى هذا التقرير لأوفاروف وظيفة وزير التعليم ولكنه لم يزد على ذلك ، وقاومت القيصرية لمدة نصف قرن محاولات إقناع أوفاروف ، ولم يصبح الترويس سياسة ملكية رسمية إلا فى عهد ألكسندر الثالث (١٨٨١-١٨٩٤) بعد مدة طويلة من ظهور القوميات الأكرانية والفنلندية والليتية وغيرها من القوميات داخل الإمبراطورية . وللسخرية فإن أول إجراءات الترويس أخذت ضد تلك الجنسيات الأكثر التزاما بالقيصرية مثل الألمان البلطيقيين . وفى عام ١٨٨٧ وفى مقاطعات البلطيق جعلت اللغة الروسية إجبارية كلغة للتعليم فى كل المدارس الحكومية من بعد الفصول الابتدائية الأولى ، وقد امتد هذا الإجراء بعد ذلك ليشمل المدارس الخاصة أيضا . وفى ١٨٩٣ أغلقت جامعة دوربات واحدة من أفضل الجامعات فى الإمبراطورية ، لأنها كانت تستخدم الألمانية فى قاعات المحاضرات ويجب أن نتذكر أن الألمانية كانت لغة دولة محلية حتى ساعتها وليست صوتا لأى حركة قومية شعبية . ويستمر سيتون واتسن فى كلامه ليقول إن ثورة ١٩٠٥ "كانت ثورة خاضها غير الروس ضد الترويس ، كما كانت ثورة خاضها العمال والفلاحون والمثقفون الراديكاليون ضد السلطة الملكية . كانت الثورتان مرتبطتين بالطبع ، وكانت فى الواقع الثورة الاجتماعية فى أعنف حالاتها فى المقاطعات غير الروسية ، وكان أبطالها هم العمال البولنديون والفلاحون اللاتفيون الجورجيون"(٩).

وسيكون من الخطأ فى نفس الوقت أن نفترض أنه بما أن الترويس كثورة للعمال والفلاحين وللأغراض الراديكالية فإن ذلك يعلن عن "قومية روسية" متزايدة متنامية من وراء العرش وليست ببساطة على أساس عاطفى ، فكانت هناك فرص واسعة على أية حال للموظفين الروس فى الجهاز الوظيفى الكبير وفى السوق الواسعة التى قدمتها الإمبراطورية.

وليست الملكة فيكتوريا فون ساكس كوبوج جوتا ملكة إنجلترا وبعد ذلك إمبراطورة الهند أقل إثارة للاهتمام من معاصرها القيصر ألكسندر الثالث الذى روس كل روسيا . فى الواقع ، إن لقب الملكة فيكتوريا أكثر إثارة للاهتمام من شخصها ذاته فهو يمثل الارتباط الوثيق بين الأمة والإمبراطورية[١٠] ، ويمثل حكمها أيضا بداية النموذج اللندنى "للقومية الرسمية" التى تحمل الكثير من الشبه مع الترويس القائم فى بطرس بورج ، وتعد المقارنة الطولية وسيلة جيدة لفهم هذا التشابه .

وفى كتاب The Break-up of Britain (تفكك بريطانيا) يشير توم نايرن إلى مشكلة لماذا لم يكن هناك حركة قومية أسكتلندية فى أواخر القرن الثامن عشر بالرغم من ظهور طبقة برجوازية أسكتلندية وطبقة مثقفين متميزة[١١]. وقد رفض هوبزباوم فكرة نايرن الداعية للتفكير بقوله "إنه من المخالفات الزمنية المؤكدة أن يطلب الاسكتلنديون دولة مستقلة فى هذا الوقت"[١٢] ، ولكن إذا تذكرنا أن بنيامين فرانكلين الذى شارك فى توقيع إعلان الاستقلال الأمريكى ولد قبل ديفيد هيوم بخمس سنوات فيبدو لنا من الممكن أن نعتبر هذه النظرة نفسها ضربا من المخالفة الزمنية[١٣] ، ويبدو لى أن المشكلات وحلها فى مكان آخر.

وعلى الناحية الأخرى فإن هناك نزعة نايرن القومية الجيدة للتعامل مع أسكتلندا على أنها مسلمة أزلية غير إشكالية ، ويذكرنا بلوش بالأصول المختلفة لهذه الوحدة مشيرا إلى أن الآثار المدمرة للدانمركيين ووليام الفاتح دمرت وللأبد السيطرة الثقافية لنورثومبريا الأنجلوساكسونية الشمالية التى ترمز لها تلك الرموز المضيئة مثل "ألكوين" و"بيد" :[١٤]

> **اقتطع جزء من المنطقة الشمالية للأبد من جسم إنجلترا ذاته واقتطع أيضا من الشعوب الأخرى التى تتكلم الأنجلوساكسونية باستقرار الفايكنج في يوركشير والأراضى الواقعة حول قلعة أبيمبرا فى نورثومبريا وقعت تحت سيطرة القادة السيلتيكيين في التلال ولذلك كانت مملكة أسكتلندا التى تتكلم لغتين ،لحد كبير ، نتاجا للغزوات الإسكندنافية.**

ويكتب سيتون واتسن بدوره أن اللغة الأسكتلندية[١٥] :

> **تطورت من اندماج الساكسونية والفرنسية معا بالرغم من أن نصيب**

**الأخيرة كان أقل ونصيب السيلتيكية والإسكندنافية كان أكثر عنه في الجنوب ولم تكن هذه اللغة مستخدمة في شرق إسكتلندا فقط بل في شمال إنجلترا أيضا فكانت الاسكتلندية أو "الإنجليزية الشمالية" لغة البلاط في أسكتلندا ولغة الصفوة الاجتماعية التي كان من المحتمل أن تتكلم الجليكية أو لا تتكلمها ، كما كانت لغة سكان الأراضي المنخفضة عامة . وكانت هي لغة الشاعرين روبرت هنريسون ووليام دمبار ، وكان من الممكن أن تتطور لتكون لغة أدبية مستقلة في الزمن الحديث لولم يستحضر توحيد التاجين في ١٦٠٣ سيطرة الإنجليزية الشمالية من خلال استخدامها في البلاط والإدارة والطبقات العالية في أسكتلندا.**

والنقطة الجوهرية هنا هي أنه بالفعل في بداية القرن السابع عشر كانت أجزاء كبيرة مما سيصبح في يوم من الأيام متخيلاً على أنه أسكتلندا تتكلم الإنجليزية وكانت منفتحة انفتاحا مباشرا على الإنجليزية الطباعية إذا افترضنا وجود نسبة قليلة من التعليم . وبعد ذلك وفي بداية القرن الثامن عشر تعاونت الأراضي المنخفضة التي تتحدث الإنجليزية مع لندن للقضاء على الجالتاشت بشكل كبير ولم يكن هناك في أي مكان في "الشمال" سياسة واعية متبعة للأنجلة ، وفي كلتا الحالتين كانت عملية الأنجلة أساسا ناتجا جانبيا ، ولكن نجحا عندما اتحدا معا في محو أي احتمال لحركة قومية مبنية على لغة محلية معينة على الطراز الأوروبي "قبل" مجيء عصر القومية . ولكن لماذا لم تنشأ قومية على الطراز الأمريكي؟ يكمن جزء من الإجابة في كلام نايرن العابر عندما يتحدث عن "الهجرة الجماعية للمثقفين" تجاه الجنوب من منتصف القرن الثامن عشر فصاعدا(١٦). ولكن كان هناك أكثر من هجرة العقول ، فقد سافر السياسيون الأسكتلنديون للتشريع في الجنوب وكانت الأسواق اللندنية مفتوحة أمام رجال الأعمال الأسكتلنديين ، وبناء على ذلك ، وعلى عكس الحال في المستعمرات الثلاث عشرة وأيرلندا بدرجة أقل ، فلم تكن هناك عقبات في طريق هؤلاء الحجاج ناحية المركز. قارن ذلك الطريق المفتوح أمام قراء اللاتينية والألمانية المجريين إلى فيينا في القرن الثامن عشر ولم تكن الإنجليزية بعد قد أصبحت لغة "إنجليزية" .

ويمكن تقديم نفس النقطة من زاوية أخرى . صحيح أن لندن استأنفت في القرن السابع عشر اكتساب الأراضي فيما وراء البحار بعد نهاية حرب المائة عام الفاجعة ،

ولكن كانت "روح" تلك الغزوات ما تزال روح فترة ما قبل القومية لحد كبير ، ولا شيء يؤكد هذا الكلام أكثر من الحقيقة التى تقول إن "الهند" لم تصبح بريطانية إلا بعد عشرين عاما من تولى فيكتوريا العرش ، وبصياغة أخرى كانت "الهند" محكومة بشركة تجارية ولم تحكمها دولة ، ولم تحكمها بالتأكيد دولة قومية حتى بعد ثورة ١٨٥٧ .

ولكن كان التغير فى مجراه. وعندما بدأ التجديد فى شخصية شركة الهند الشرقية فى ١٨١٣ فقد قرر البرلمان تخصيص مائة ألف روبية فى العام لتطوير التعليم المحلى "الشرقي" و"الغربي" ، وفى ١٨٢٣ أنشأت لجنة للتعليم العام فى البنغال ، وفى ١٨٣٤ أصبح توماس بابينجتون ماكولى رئيسا لهذه اللجنة ، وبعد ذلك بعام أصدر "تقرير التعليم" السيئ السمعة عندما أعلن أن "قيمة رف واحد من مكتبة أوروبية جيدة تفوق قيمة الكتابات المحلية والعربية"(١٧). وقد كان هذا الرجل محظوظا أكثر من أوفاروف فتمتعت ملاحظاته بتأثير رسمي آنى فأدخل نظام تعليم إنجليزى كامل كان من شأنه فى كلمات ماكولى العظيمة نفسها أن يخلق "طبقة من الأشخاص الهنود فى دمائهم ولونهم ولكنهم إنجليز فى ذوقهم وآرائهم وأخلاقهم وعقولهم"(١٨) ، وكتب فى ١٨٣٦ أنه:(١٩)

> **لم يبقَ أى هندوسى تعلم تعليما إنجليزيا مرتبطا بدينه بإخلاص وأعتقد اعتقادا راسخا [هكذا كانوا دائما] أنه إذا اتبعت خططنا التعليمية فلن يكون هناك وثنى واحد فى الأوساط المحترمة فى البنغال بعد ثلاثين عاما.**

بالتأكيد هناك فى هذا الكلام تفاؤل ساذج ، ويذكرنا ذلك بفيرمين فى بوجوتا قبل ذلك بخمسين عام . والشيء المهم مع ذلك هو أننا نرى سياسة طويلة الأمد ٣٠ عاما شكلت بوعى ونفذت ورمت لتحويل "الوثنيين" ليس للمسيحية بالضبط ولكن لأناس إنجليز فى ثقافتهم بالرغم من دمائهم ولونهم اللذين لا يمكن تغييرهما ، وكان مقصودا هنا عملية تهجين عقلى توضح إذا ما قورنت بعملية التهجين الجسمانية لفيرمين أن الاستعمار كأى شيء آخر فى العصر الفيكتورى تقدم تقدما مذهلا فى ذوقه. ويمكن القول إنه فى أى حدث من هذه اللحظة فصاعدا اتبعت النزعة الماكولية فى كل الإمبراطورية المتنامية حتى ولو كان ذلك بنسب مختلفة.(٢٠).

وكما كان الوضع بالنسبة للترويس فإن الأنجلة قدمت بالطبع فرصا وردية لجيش من أبناء الطبقة الوسطى من الدولة الأم ، وكان منهم الأسكتلنديون أيضا : كالمعلمين

والموظفين والتجار والزراع الذين انتشروا بسرعة فوق المملكة الواسعة التى لا تغيب عنها الشمس. ومع ذلك فقد كان هناك فرق كبير بين الإمبراطوريات التى تحكم من بطرسبرج ولندن ، وظلت القيصرية زماما قاريا موقوفا على المناطق المعتدلة والمتجمدة فى آسيا الأوربية (يوروآسيا) فيستطيع المرء على سبيل التمثيل أن يمشى من طرفها للطرف الآخر وتدلل القرابة اللغوية مع الشعوب السلافية فى شرق أوروبا وكذلك العلاقات -لنكون أكثر لطفا فى الصياغة- التاريخية والسياسية والدينية والاقتصادية مع العديد من الشعوب غير السلافية ، على أن العوائق فى الطريق لبطرسبرج لم تكن -لحد ما- مستحيلة[٢١] . ومن ناحية أخرى كانت الإمبراطورية البريطانية كحقيبة تجمع غالبا ممتلكات مدارية موزعة فى كل قارة ، وكان قليل من الشعوب الرعايا تحمل أى علاقات دينية أو لغوية أو حضارية أو حتى سياسية واقتصادية طويلة العمر مع الدولة الأم . ولما كانتا (بريطانيا وروسيا) متعارضتين فى عام اليوبيل فهما تشبهان المجموعات العشوائية للسادة القدماء التى يجمعها المليونيرات الإنجليز والأمريكيون بسرعة وتتحول بمرور الزمن لمتاحف للدولة الاستعمارية.

وتوضح ذكريات بيبين شاندرا بال الغاضبة عواقب ذلك بجلاء . وشاندرا بال هو الرجل الذى ما زال يشعر بالغضب فى ١٩٣٢ وبعد مرور قرن على "تقرير" ماكولى بدرجة كافية ليكتب أن المسؤولين الهنود :[٢٢]

> **لم يجتازوا اختبارا شاقا كالذى يجتازه الأعضاء البريطانيون فى الوظيفة فقط بل قضوا أفضل سنوات شبابهم - سنوات التشكيل - فى إنجلترا ، وعندما عادوا إلى وطنهم عاشوا نفس عيشة مواطنيهم المدنيين تقريبا ، وحرصوا على التقاليد الاجتماعية والمعايير الأخلاقية حرصا دينيا. وفى هذه الأيام كان المدنى المولود فى الهند يقطع نفسه تقريبا من مجتمع الوالدين ويعيش ويتحرك ويوجد نفسه فى المناخ الذى كان زميله الإنجليزى يحبه [قارن ذلك بالإسبان الكريول] فقد كان إنجليزيا فى عقله وتصرفاته كالإنجليز ، ولم تكن هذه تضحية صغيرة بالنسبة له فهو بذلك غرب نفسه بهذا الشكل عن جماعة شعبه وأصبح وسطهم فردا غير مقبول اجتماعيا وأخلاقيا. . . . . وقد كان غريبا فى وطنه كالسكان الأوروبيين فى البلاد.**

وكان هذا هو ماكولي ، ولكن الأكثر خطورة هو أن هؤلاء الغرباء في بلادهم كان محكوما عليهم بقسوة توازي القسوة التي كان الكريوليون الأمريكيون محكومين بها . فقد كان محكوما عليهم بالدونية الأبدية "غير العاقلة" بالنسبة للإنجليز الماتيورانجو. لم يكن الأمر كذلك ببساطة ، فمهما أصبح ال"بال" إنجليزيا فهو دائما ممنوع من الوصول لقمم ال"راج" ، وكان أيضا ممنوعا من التحرك خارج حدودها مثلا للساحل الذهبي أو لهونج كونج وممنوع أيضا من التحرك رأسيا للبلاد الأم. وقد يكون "غرب نفسه عن جماعة شعبه" ولكنه محكوم عليه بالعمل وسطهم للأبد ، وبالتأكيد فقد اختلف هؤلاء الناس الذين سيخدم وسطهم باتساع الغزو البريطاني في شبه القارة[٢٣] .

وسننظر فيما بعد إلى نتائج القومية الرسمية في قيام القوميات الأفريقية والآسيوية في القرن العشرين ، ولكن لغرضنا هنا نحتاج أن نركز على أن الأنجلة أنتجت آلاف ال"بالات" في كل أنحاء العالم . ولا شيء يوضح التناقض الجوهري القومية الرسمية الإنجليزية أكثر من عدم التوافق الداخلي بين الأمة والإمبراطورية ، ونقول أمة لأنه من المغري عندما نتكلم عن ال"بالات" أن نتكلم من منطلق عنصري فلا أحد يستطيع – وهو بكامل قواه العقلية – أن ينكر الشخصية العنصرية العميقة للإمبراطورية الإنجليزية في القرن التاسع عشر ، ولكن كان ال"بالات" أيضا موجودين في المستعمرات البيضاء كأستراليا وكندا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا ، وقد تجمّع في هذه المستعمرات أيضا عدد كبير من المدرسين الإنجليز والأسكتلنديين ، وكذلك كانت الأنجلة سياسة ثقافية هناك . أما بالنسبة للبالات فطريق الصعود للأعلى الذي كان مفتوحا للأسكتلنديين في القرن الثامن عشر كان مغلقا أمامهم فلم يخدم الأسترالي الإنجليزي في دبلن ولا منشستر ولا حتى في أتوا ولا كيبتاون. ولم يستطيعوا حتى فترة متأخرة أن يصبحوا قواد عموم في كامبيرا[٢٤]. كان "الإنجليز" يستطيعون وحدهم ذلك .

وقبل ثلاث سنوات من فقدان شركة الهند الشرقية أرض صيدها الهندية حطم كومودور بيري بعنف وبواسطة سفنه السوداء أسوار اليابان التي أبقت عليها في مدة طويلة في عزلة مفروضة من قبل الذات . وبعد ١٨٥٤ انجرفت ثقة باكوفو، حاكم توكونجاوا شوجوناتا، بالنفس وشرعيته الداخلية بضعفها الملحوظ أمام الغرب الداخل المخترق ، واستطاع عدد قليل من "الساموراي" المتوسطي المكانة خاصة من "ساتسوما" و"شوشو" في ١٨٦٨ أن يطيحوا به تحت راية "سونو جوي" أي قدروا

الملك واطردوا الغرباء. ومن ضمن أسباب نجاحهم كان الإتقان المبدع للعلوم العسكرية الغربية الجديدة خاصة بعد ١٨٦٠ الذى نظمه المحترفون البروسيون والفرنسيون منذ ١٨١٥ ، واستطاعوا بذلك أن يستخدموا بمهارة ٧٣٠٠ بندقية حديثة جدا معظمها من بقايا الحرب الأهلية الأمريكية. اشتروها من تاجر سلاح إنجليزي[٢٥]. "كان رجال "شوشو" مهرة جدا فى استخدام البنادق. . . . لدرجة أن الدم القديم وخط الرعد وطرق القطع لم تكن مجدية معهم."[٢٦]

ولكن بمجرد وصول الثوار الذين نتذكرهم اليوم على أنهم حكام ال"ميجي" إلى السلطة أدركوا أن شجاعتهم العسكرية لم تضمن لهم – بصورة آلية – شرعية سياسية ، وإذا استعاد ال"تينو" أى الإمبراطور سلطته سريعا مع القضاء على "الباكوفو" فلن يمكن طرد الغرباء بسهولة[٢٧] ، ويبقى أمان اليابان السياسى والجغرافى هشا كما كان قبل ١٨٦٨ . وواحد من الوسائل التى استخدمت فى تدعيم الوضع الداخلى للحكم كان نوعا من "القومية الرسمية" المنتمية لنصف القرن التى كانت بروسيا الألمانية الهوهنزولرنية نموذجها المأخوذ بوعى . وحلت كل بقايا الوحدات العسكرية الإقطاعية فى الفترة بين ١٨٦٨ و١٨٧١ ، ومكن ذلك طوكيو من السيطرة على كل وسائل العنف ، وفى ١٨٧٢ أُصدر مرسوم إمبراطورى يأمر بتطوير التعليم فى أوساط الرجال البالغين ، وفى ١٨٧٣ وقبل المملكة المتحدة أدخلت اليابان نظام الجندية وفى نفس الوقت قضى الحكم على الساموراى كجماعة مميزة وقانونية ، وكانت هذه خطوة أساسية ليس فقط فى فتح باب الوظائف أمام كل المواهب بل أيضا ليتناسب مع النموذج المتاح اليوم لأمة كل المواطنين ، وقد تحرر الفلاحون اليابانيون من نظام ال"هان" الإقطاعى واستغلتهم الدولة والتجار ملاك الأراضى الزراعية بشكل مباشر[٢٨] . وفى ١٨٨٩ جاء الدستور المبنى على النموذج البروسى ، وبمرور الزمن جاء حق الانتخاب للذكور.

وقد ساعد رجال الميجى فى هذه الحملة المنظمة ثلاثة عوامل ناجحة جزئيا: أول هذه العوامل هو التجانس العالى –لحد ما– فى الثقافة العرقية اليابانية الناتج عن قرنين ونصف من العزلة والهدوء الداخلى اللذين فرضهما الباكوفو ؛ فبينما كانت اللغة اليابانية المتكلمة فى كيوشو غير مفهومة بشكل كبير فى هونشو فحتى أهل توكيو وكيوتو أوساكا وجدوا صعوبة فى التواصل اللغوى فإن نظام القراءة القائم على الصور –الإيديوجرافي– كان مستخدما منذ زمن فى كل الجزر ، ولذلك كان تطوير

التعليم الجماعى عن طريق المدارس والطباعة سهلا وغير مثير للجدل . والعامل الثانى هو العراقة المميزة للبيت الإمبراطورى اليابانى ، فاليابان هى الدولة الوحيدة التى ظل الحكم فيها تحت سيطرة أسرة واحدة عبر التاريخ المسجل. ويابانيتها المميزة التى تتعارض مع الهابزبورجيين والبربونيين جعلت استغلال الإمبراطور لأغراض القومية الرسمية سهلا لحد ما(٢٩). والعامل الثالث هو أن اختراق الأغراب كان مقتضبا وواسعا ومهددا بدرجة كافية ؛ ليجعل كل العناصر السياسية الواعية تتجمع خلف برنامج للدفاع عن النفس يتحقق فى السياق القومى الجديد . ومن المفيد هنا أن نركز على أن هذه الإمكانية لها علاقة كبيرة بتوقيت دخول الغرب ، ونعنى بالتوقيت فترة الستينيات من القرن التاسع عشر فى مقابل الستينيات من القرن الثامن عشر . فقد بدأ يتشكل فى تلك الفترة فى أوروبا "المجتمع القومي" بشكليه الشعبى والرسمى فى نصف قرن وعلى ذلك فقد أمكن تشكيل نظام الدفاع عن النفس وفقا لما كانت فى طريقها لأن تكون "معايير دولة".

وكان السبب الجزئى لنجاح تلك المغامرة – بالرغم من المعاناة الرهيبة التى فرضتها على الفلاحين المتطلبات القاسية المطلوبة لبرنامج تصنيعى أساسه تصنيع السلاح – هو بالتأكيد تصميم الحكام أنفسهم ، وقد كانوا محظوظين ليصلوا إلى السلطة فى فترة كانت فيها الحسابات المرقمة فى زيورخ غير موجودة حتى فى الخيال ؛ فلم يغرهم ذلك بنقل الفائض المطلوب خارج اليابان ، وقد كانوا أيضا محظوظين فى أن يحكموا فى زمن كانت فيه التقنيات العسكرية تتطور فى طور نمو معتدل ؛ فقد استطاعوا ببرامجهم للحاق بركب التطور العسكرى أن يحولوا اليابان إلى قوة عسكرية مستقلة بانقلاب القرن. والنصر الذى حققته اليابان بجيشها النظامى ضد الصين فى (١٨٩٤–١٨٩٥) والذى حققه أسطولها ضد القيصرية فى ١٩٠٥ ، بالإضافة إلى ضم تايوان فى ١٨٩٥ وكوريا فى ١٩١٠ ، والتى روج لها فى المدارس والطباعة كانت أحداث فى غاية الأهمية لخلق الانطباع العام بأن الحكام المحافظين ممثلون صادقون للأمة التى بدأ اليابانيون يتخيلون أنفسهم أفرادا فيها.

ويمكن شرح وتفسير تبنى تلك القومية لشخصية استعمارية عدائية حتى خارج دوائر الحكم عن طريق عاملين هما ميراث العزلة اليابانية الطويلة وقوة النموذج القومى الرسمى . ويشير ماروياما بحذق إلى أن كل القوميات فى أوروبا نشأت فى سياق جماعية تقليدية لدول ملكية متفاعلة . كما قلت سلفا ، لم يكن لعمومية اللاتينية فى كل أوروبا أبدا أى معادل سياسي.(٣٠)

وعلى ذلك فقد حمل الوعى القومى الأوروبى منذ بدايته صفة أن يكون وعى مجتمع دولى وكان من المنطقى أن كانت الصراعات بين الدول الملكية صراعات بين أعضاء ذلك المجتمع الدولى المستقل ، ولهذا السبب بالتحديد كانت الحرب منذ أيام "جروتيوس" تحتل مكانا بارزا ومنظما فى القانون الدولى .

وكانت مع ذلك قرون العزلة اليابانية تعنى أنه:(٣١)

> **كان الوعي بالمساواة في الشؤون الدولية غائبا تماما ، وكان دعاة طرد الأجانب ينظرون إلى العلاقات الدولية من منطلق مواقع داخل سلمهم القومى المبنى على سيطرة الكبار على الصغار . بالتالى عندما انتقل منطق السلم القومى أفقيا إلى المجال العالمي تقلصت المشاكل الدولية إلى بديل واحد وهو "انتصر أو انهزم" ، وفى غياب أي معايير تقعيدية أعلى يمكن بها قياس العلاقات الدولية فقد أصبحت سياسة القوة هي القاعدة . والاكتفاء بالأساليب الدفاعية فى الماضى سيتحول اليوم إلى توسع غير محدود.**

والثانى : كانت النماذج الأساسية للحكم هى الأسر الأوروبية الحاكمة التى جعلت نفسها عادية . لا طالما أن هذه الأسر تعرف نفسها بشكل كبير فى إطار قومى ، بينما توسع سلتطها خارج أوروبا فى نفس الوقت فإنه ليس من الغريب أن تفهم هذه النماذج فى شكل استعمار(٣٢) . وكما يوضح تقسيم أفريقيا فى مؤتمر برلين ١٨٨٥، كانت الأمم العظيمة غزاة عظام . ويبدو إذن من الممكن أن نقول إن اليابان إذا أرادت أن تقبل على أنها "عظيمة" يجب عليها هى الأخرى أن تحول التينو إلى إمبراطور وتقوم بمغامراتها عبر البحار حتى ولو كانت قد تأخرت عن الدخول فى هذه اللعبة ، ويجب عليها أن تقوم بالكثير من التعويض. ولا شيء أكثر توضيحا لطريقة عمل تلك البواقى المقحمة على وعى جمهور القراء من تلك الكلمات التى قالها المفكر القومى الراديكالى والثائر كيتا إيكى (١٨٨٤-١٩٣٧) فى كتابه المؤثر "إطار عام نحو إعادة بناء اليابان" والذى نشر فى ١٩٢٤(٣٣) :

> **كما أن الصراع الطبقى داخل أمة يشب لإصلاح الفروق غير العادلة فإن الحرب بين الأمم لغرض نبيل ستصلح الفروق غير العادلة الموجودة ، فالإمبراطورية البريطانية مليونير يمتلك ثروات كبيرة فى كل أنحاء العالم ، وروسيا مالك أراض عظيم فهى تحتل نصف الكرة**

**الشمالى ، واليابان بمجموعة جزرها المتشرنمة تمتلك البروليتاريا ولها الحق أن تعلن الحرب على القوى الاحتكارية الكبرى . ويناقض الاشتراكيون فى الغرب أنفسهم عندما يسمحون للبروليتاريا بالصراع الطبقى فى أوطانهم ، وفى نفس الوقت يدينون حربا تشنها البروليتاريا بين الأمم على أنها عدائية وعسكرية . . . . .إذا كان من الممكن لطبقة العمال أن تتحد لتطيح بالسلطة الظالمة عن طريق إراقة الدماء فيجب إذن أن تحصل اليابان على موافقة غير مشروطة لتعد جيشها وأسطولها وتشن الحرب لتصحح من الحدود الدولية غير العادلة ، وتدعى اليابان ملكية أستراليا وشرق سيبيريا باسم الديموقراطية الشعبية العقلانية.**

ويبقى أن نضيف فقط أنه باتساع الإمبراطورية بعد عام ١٩٠٠ بدأت عمليات التبيين على طريقة ماكولى تأخذ شكل السياسة الواعية للدولة ، وفى سنوات الحرب تعرض الكوريون والتايوانيون والمنشوريون – وبعد اشتعال حرب المحيط الهادى تعرض البورميون والإندونوسيون والفلبينيون – لسياسات كان النموذج الأوروبى فيها محل ممارسة عاملة مستقرة . وكما كانت الحال بالضبط فى الإمبراطورية البريطانية فإن طرق الكوريين والبورميين والتايوانيين الميَبَّنين إلى البلد الأم كانت مغلقة تماما . فقد يتكلمون ويقرأون اليابانية بمهارة كاملة ، ولكنهم لن يستطيعوا تولى منصب والى "هونشو" مثلا ، ولن يوظفوا أيضا خارج مسقط رأسهم.

بعد أن استعرضنا تلك الحالات الثلاث المتنوعة "للقومية الرسمية" فإنه من الضرورى أن نؤكد على أن النموذج يمكن أن تتبعه الدول التى لا تمتلك مظاهر قوة خطرة لا طالما أنها دول تكون الطبقات الحاكمة فيها أو العناصر القيادية شاعرة بتهديد من قبل الانتشار العالمى للمجتمعات المتخيلة قوميا ، وقد تكون المقارنة بين اثنتين من تلك الدول هى سيام والمجر كجزء من المجر النمساوية مفيدة .

دافع معاصر الميجى الذى حكم طويلا شولالونجكورن والذى حكم من ١٨٦٨ إلى ١٩١٠ عن مملكته ضد التوسع الغربى بأسلوب اختلف كثيرا عن أسلوب الحكام اليابانيين المعاكسين له[٣٤] ؛ ولما كان موقع بلاده مأزوما بين بورما والمالايو البريطانية والهند الصينية الفرنسية فقد كرس نفسه لسياسة دبلوماسية مستغلة حكيمة ، ولم يحاول أن يبنى آلية حرب جادة ، ولم يؤسس وزارة حربية حتى عام ١٨٩٤ ، وكانت

قواته المسلحة عبارة عن خليط من الفيتناميين والخامير وال"لو" والماليويين والصينيين المرتزقة والموالين للبلاد بشكل يذكرنا بأوروبا فى القرن الثامن عشر ، ولم تتخذ أى خطوات لدفع قومية رسمية من خلال نظام تعليمى حديث. ولم يصبح التعليم الابتدائى إلزاميا إلا بعد عشر سنوات من وفاته ، ولم تؤسس أول جامعة فى البلاد قبل ١٩١٧ بعد أربعة قرون من تأسيس الجامعة الإمبراطورية فى طوكيو ، ومع ذلك فقد نظر شولالونجكورن إلى نفسه على أنه محدث ، ولكن لم تكن نماذجه العليا المملكة المتحدة ولا ألمانيا بل كانت بيمتنشتاتن المستعمرة فى الهند الشرقية الهولندية ومالايا البريطانية والراج[٢٥] . وكان أتبّاع هذه الأمثلة يعنى تعقيل ومركزة الحكومة الملكية وإنهاء الدويلات شبه المستقلة الموالية ودفع التنمية الاقتصادية بشكل ما على الخطوط الاستعمارية. وأكثر الأمثلة على ذلك وضوحا -وهو المثل الذى بشكله الغريب يتطلع للملكة العربية السعودية المعاصرة الحالية- كان تشجيعه لهجرة جماعية للشباب الأجنبى الأعزب من الذكور ليشكلوا بذلك القوة العاملة التى لم تكن ذات اتجاه معين ولم تكن لها قوة سياسية والتى يحتاجها لبناء تجهيزات الموانئ ومد خطوط السكك الحديدية وحفر القنوات ومد الزراعة التجارية . ووازى استيراد الأيدى العاملة هذا - بل بنى على نموذج - سياسات سلطات باتافيا وسنغافورا ، وكما كان الحال فى الهند الهولندية والملايا البريطانية فكانت أغلبية الأيدى العاملة المستوردة فى القرن التاسع عشر من جنوب شرق الصين . ومن الجدير بالذكر أن تلك السياسات لم تكلفه مشقة ولا مصاعب سياسية ، كما لم تكلف الحكام المستعمرين الذين بنى على نموذجهم سياسته، وفى الواقع فقد كانت تلك السياسة مفيدة لفترة قصيرة لدولة ملكية لأنها خلقت طبقة عاملة مهمة "خارج" المجتمع التايلندى وتركت ذلك المجتمع - لحد كبير - "دون إزعاج".

وكان لزاما على واشيراوت -ولده وخليفته الذى حكم من ١٩١٠ حتى ١٩٢٥ - أن يتوخى السلام بانيا نموذجه هذه المرة على ملوك أوروبا الذين جعلوا أنفسهم أناسا عاديين . بالرغم من أنه -ولأنه- تعلم فى أواخر العصر الفيكتورى فى إنجلترا فقد جعل من نفسه "القومى الأول" فى بلاده[٢٦]. ولكن لم يكن المقصود بهذه القومية المملكة المتحدة التى كانت تسيطر على ٩٠٪ من تجارة سيام ولا فرنسا التى بدأت مؤخرا فى ترك القطاعات الشرقية من المملكة القديمة ، بل كان الصينيون الذين استجلبهم أبوه مؤخرا بمنتهى الراحة هم المقصودين . وطراز موقفه المضاد للصينيين يتضح من عناوين اثنين من أشهر الكتيبات وهما "يهود الشرق" فى عام ١٩١٤ و"معوقات عجلاتنا" عام ١٩١٥

ولماذا التغيير؟ لا شك أن الأحداث الدرامية التى حدثت قبل وبعد تتويجه فى نوفمبر ١٩١٠ كان لها تأثير . ففى يونيو السابق (على تتويجه) استدعى البوليس لقمع إضراب عام للعمال والتجار الصينيين فى بانكوك الذين كانوا أبناء المهاجرين الصينيين الأوائل ، والذين بدأوا فى الصعود معلنين بذلك بداية دخولهم فى السياسة السيامية[٢٧] ، وفى العام التالى أطاحت مجموعة من الجماعات غير المتجانسة بالمملكة السماوية فى بكين ، ولم تكن فئة التجار غائبة عن تلك المجموعة بطبيعة الحال ؛ ولذلك فقد ظهر "الصينيون" كمنذرين بجمهورية شعبية تهدد بعنف المبدأ الملكى» . ثانيا ، وكما تقترح الكلمتان "اليهود" و"الشرق" ، فإن الملك المتأنجل قد تشرب العنصرية الخاصة بالطبقة الحاكمة الإنجليزية ، ولكن علاوة على ذلك كانت هناك الحقيقة التى تقول إن واشيراوت كان نوعا آسيويا من البربونيين . وفى فترة ما قبل القومية اتخذ أسلافه الفتيات الصينيات الجميلات زوجات ومحظيات ، ونتج عن ذلك أنه هو نفسه كان فيه "دم" صينى أكثر من الدم التايلندى إذا تكلمنا من ناحية الوراثة[٢٨] .

فهذا مثل واضح على شخصية القومية الرسمية وهو الاستراتيجية المتطلعة التى تتبناها الجماعات المسيطرة المهددة بالتهميش أو العزل من قبل مجتمع صاعد متخيل قوميا . ولا نحتاج أن نقول إن واشيراوت قد حرك كل أزرار سياسة القومية الرسمية كالتعليم الابتدائى الإلزامى الذى تسيطر عليه الدولة والدعايا التى تنظمها الدولة وإعادة كتابة التاريخ رسميا والعسكرية – والتى كانت هنا مجرد عرض أكثر منه عملا فعليا – علاوة على إثباتات لا حصر لها لهوية الأسرة الحاكمة والأمة[٢٩].

ويوضح تطور القومية المجرية فى القرن التاسع عشر علامة النموذج "الرسمي" بشكل مختلف . وقد ذكرنا سلفا المعارضة الغاضبة من قبل النبلاء الماجيريين الذين كانوا يتكلمون اللاتينية لمحاولة جوزيف الثانى فى ثمانينيات القرن الثامن عشر لجعل اللغة الألمانية اللغة الرسمية الوحيدة للإمبراطورية . وقد خافت فئات تلك الطبقات الأكثر حظا من فقدان مناصبها العالية المريحة تحت إدارة مركزية مباشرة يسيطر عليها الموظفون الإمبراطوريون الألمان ، وارتعدت الطبقات الأقل من فقدان إعفاء الضرائب والخدمة العسكرية الإجبارية ، كما خافت من فقدان السيطرة على الأقنان والريف . ولكن بجانب خط الدفاع عن اللاتينية فقد كثر المناداة بالماجيارية بشكل جد استغلالى ؛ "لأنه بدا على المدى البعيد أن الإدارة الماجيارية هى البديل الوحيد العملى للألمانية"[٤٠] . وتلاحظ بيلا جرينفالد بسخرية أن "نفس المقاطعات التى عارضت قرار الإمبراطور ركزت على إمكانية وجود إدارة باللغة الماجيارية، وهذا هو الأمر الذى

أعلنت استحالته فى ١٨١١ ؛ أى بعد ٢٧ عاما" وبعد ذلك بعقدين وفى مقاطعة مجرية "قومية" قيل "إن استخدام اللغة الماجيارية سيعرض دستورنا وكل مصالحنا للخطر"[٤١] ، ولم تصبح طبقة االنبلاء الماجياريين مهتمة بالماجيرية بشكل جاد إلا فى الأربعينيات من القرن التاسع عشر فقط لتمنع تهميشها التاريخى وهى طبقة مكونة من ١٣٦,٠٠٠ نسمة تمتلك الأراضى والحقوق السياسية فى بلد يقطنها أحد عشر مليون نسمة[٤٢].

وفى نفس الوقت فإن حركة التعليم النامية بشكل بطيء والتى شملت ثلث البالغين من الشعب بحلول عام ١٨٦٩ وانتشار الماجيارية الطباعية وظهور طبقة صغيرة ولكنها نشطة من المثقفين اللبراليين قد استنفرت معا قومية ماجيارية شعبية مختلفة فى إدراكها تماما عن قومية النبلاء . شهدت تلك القومية الشعبية التى كان يرمز لها فى الأجيال اللاحقة بشخصية لاجوس كوسوث (١٨٠٢-١٨٩٤) لحظة مجدها فى ثورة ١٨٤٨ . ولم يتخلص الحكم الثورى من الحكام الإمبراطوريين المعينين من قبل فيينا فحسب بل محا الشكل الماجيرى الإقطاعى الأساسى فى مقاطعات النبلاء ، وأعلنت الإصلاحات لإنهاء نظام القنانة وإعفاء النبلاء من الضرائب بالإضافة إلى السيطرة على إسناد الضياع بشكل جذرى . وقد تقرر - علاوة على ذلك - أن كل من يتكلم المجرية يجب وأن يكون مجريا ، فقد كانت الصفوة فى الماضى فقط هى المجرية ، وأن كل مجرى يجب أن يتكلم الماجيرية ، وحتى ساعتها كانت فئة قليلة قد تعودت على الكلام بالماجيرية . ويعلق إيجنوتوس بجفاف : "كانت الأمة ، بمقاييس هذا الزمن الذى شهد ارتفاع النجمين التوءمين: القومية والليبرالية بمنتهى التفاؤل ، محقة فى الشعور بالكرم العظيم ؛ لأنها "سمحت" بوجود الفلاح الماجيرى دون أى تفرقة فيما عدا ما يخص الملكية[٤٣] ، وسمحت بوجود المسيحيين من غير الماجيريين بشرط أن يصبحوا ماجيريين ، وسمحت - بمرور الوقت ، وعلى مضض بعد تأخير عشرين عاما - بوجود اليهود"[٤٤] ، وكان موقف كوسوث فى مفاوضاته غير الناجحة مع قادة الأقليات المتعددة غير الماجيرية هو أن هذه الشعوب سوف تحصل على نفس الحقوق المدنية التى يحصل عليها الماجيريون ، ولكن بما أنها لم يكن لها "شخصيات تاريخية" فلا تستطيع أن تبنى قوميات بنفسها. ويبدو ذلك الموقف اليوم متغطرسا وتافها ، وسوف يظهر الأمر بجلاء أكثر إذا تذكرنا أن الشاعر الشاب العبقرى الراديكالى القومى ساندور بيتوفى ( ١٨٢٣-١٨٤٩) والذى كان قوة روحية كبيرة فى ثورة ١٨٤٨ أشار إلى الأقليات فى أحد المناسبات على أنها "قرح على جسم الوطن الأم"[٤٥].

وبعد أن قمعت الجيوش القيصرية الحكم الثورى فى أغسطس ١٨٤٩ نُفى كوسوث مدى الحياة فأصبح المسرح معدا ساعتها لإحياء "القومية الرسمية الماجيرية" التى استخدمها الحكم الرجعى للكونت كالمان تيسزا (١٨٧٥ - ١٨٩٠) وابنه إيستفان (١٩٠٢-١٩٠٦) . وأسباب هذا الإحياء مفيدة جدا وأثناء خمسينيات القرن التاسع عشر جمعت إدارة باخ البيروقراطية فى فيينا بين القمع السياسى الشديد وتطبيق حازم لبعض السياسات الاجتماعية والاقتصادية كان قد أعلنها الثوار فى ١٨٤٨ ومن أهمها إلغاء القنانة وإلغاء إعفاء النبلاء من الضرائب . وطورت وسائل الاتصال الحديثة وشجعت المؤسسات الرأسمالية الواسعة النطاق[٤٦]. وتقلصت طبقة النبلاء الماجيريين المتوسطة والسفلى بسبب حرمانها - لحد كبير - من مميزاتها وأمانها الإقطاعى وعدم قدرتها على المنافسة الاقتصادية مع المؤسسات النشطة والعظيمة مثل الألمانية واليهودية حتى أصبحت طبقة نبلاء ريفية خائفة غاضبة .

ولكن كان الحظ حليفهم فقد أجبرت فيينا على قبول تأسيس المملكة المزدوجة فى اتفاقية أغسطس ١٨٦٧ بعد أن ألحقت بها الجيوش البروسية شر هزيمة فى موقعة كونج جراتس . ومن ساعتها فصاعدا تمتعت مملكة المجر باستقلال كبير فى إدارة شؤونها الداخلية . وكان أول المستفيدين من هذه الاتفاقية جماعة من الأرستقراطيين الماجيريين ذوى العقول الليبرالية والموظفين المتعلمين . وفى ١٨٦٨ أصدرت إدارة الكونت العظيم المتعلم "جيولا أندراسي" قانونا للجنسيات أعطى الأقليات غير الماجيرية "كل حق طالبوا به قبل ذلك أو كان فى إمكانهم طلبه وهو تحويل المجر إلى فيدرالية"[٤٧]. ولكن بصعود تيسزا للقيادة فى ١٨٧٥ بدأت حقبة نجحت فيها الطبقات العالية الرجعية فى إعادة اكتساب مكانتها مستقلة - بذلك لحد ما - عن تدخل فيينا.

وفى المجال الاقتصادى أطلق حكم تيسزا أيدى المزارعين الكبار[٤٨] ، ولكن السلطة السياسية كانت حكرا على الطبقات العالية بشكل أساسى ، والسبب فى ذلك :

> **لقد بقى ملجأ واحد للملفوظ ألا وهو شبكة الإدارة للحكومة القومية والمحلية والجيش ، فقد احتاجت المجر موظفين كثيرين لهذه الوظائف ، وإذا لم تكن فعلى الأقل تستطيع أن تتظاهر بذلك ؛ فنصف الدولة "جنسيات" لا بد وأن تبقى تحت السيطرة ، قد قيل إن دفع أجور عدد من المسؤولين الماجيريين المحترمين المحليين الثقات ليسيطروا عليهم ثمن هين فى سبيل المصلحة القومية . وتعتبر مشكلة**

الجنسيات المتعددة نعمة كبيرة فهى تبرر انتشار الوظائف بلا فائدة ولا عمل .

وعلى ذلك "فقد احتفظ الأغنياء بضياعهم المسندة إليهم واحتفظ النبلاء بوظائفهم المسندة إليهم"(٤٩) ، وكان هذا هو الأساس الاجتماعى لسياسة التحويل إلى الماجيرية القاسية المقحمة التى فرغت قانون الجنسيات من قيمته فى ١٨٧٥ ، وقد ثبت التضييق القانونى لحقوق التصويت ونشر التقسيمات المدنية المتعفنة والانتخابات المحدودة واللصوصية السياسية المنظمة فى المناطق الريفية(٥٠) فى آن واحد ، قوة تيسزا وثباته وركّز على الشخصية "الرسمية" لقوميته.

ويعقد جيسزى مقارنة سليمة بين مجيرة (التحويل إلى الماجيرية ) أواخر القرن التاسع عشر "وسياسة القيصرية الروسية مع البولنديين والفنلنديين والروتنيين ، وسياسة بروسيا مع البولنديين والدانمركيين ، وسياسة إنجلترا الإقطاعية مع الأيرلنديين"(٥١) ، وتضرب الحقائق التالية أمثلة جيدة على متوالية الرجعية والقومية الرسمية : بينما كان العنصر اللغوى فى عملية المجيرة أساسيا فى سياسة الحكم وبنهاية الثمانينيات من القرن التاسع عشر كان هناك ٢٪ فقط من الموظفين فى الفروع المهمة للحكومة المركزية والمحلية من الرومانيين بالرغم من أنهم شكلوا ٢٠٪ من الشعب "وحتى الـ٢٪ كانوا فى أدنى الوظائف"(٥٢). وعلى الناحية الأخرى وفى البرلمان المجرى قبل الحرب العالمية الأولى "لم يكن هناك ممثل واحد للطبقة العاملة ولا للفلاحين الذين لا يملكون الأرض وهم الغالبية العظمى من الشعب. . . . وكان هناك ثمانية رومانيين وسلوفاك من مجموع ٤١٣ عضوا فى البرلمان فى دولة كان ٥٤٪ فقط من سكانها يتكلمون الماجيارية كلغة أم"(٥٣) ؛ فلا عجب إذن أنه عندما أرسلت فيينا قواتها لحل هذا البرلمان فى ١٩٠٦ "لم يكن هناك اجتماع عمومى واحد ولا محاولة منع واحدة ولا بيان شعبى واحد اعتراضا على الحقبة الجديدة "لسيطرة فيينا". بل على العكس فقد نظرت الجماهير العاملة والجنسيات بفرحة خبيثة إلى الصراع الواهن لطبقة الحكام القوميين القليلة."(٥٤)

ولكن لا يمكن تفسير انتصار "القومية الرسمية" الرجعية للنبلاء الماجيريين بعد ١٨٧٥ مطلقا بالقوة السياسية الذاتية لتلك الجماعة ولا بالحرية فى المناورة التى ورثتها من المعادلة Ausgleich . الحقيقة هى أنه حتى عام ١٩٠٦ لم يشعر البلاط الهابزبورجى بقدرة على وضع نفسه بحزم فى مواجهة نظام حكم كان لا يزال بأشكال

عدة عمودا من أعمدة الإمبراطورية ، وقبل كل شيء لم تستطع الأسرة الحاكمة أن تفرض قوميتها الرسمية الخاصة النشطة ، ليس بسبب أن الحكم كان كما يقول الاشتراكي العظيم فيكتور أدلر : "نظام مطلق خففته الفوضى"[٥٥] فحسب ، فقد تمسكت الأسرة الحاكمة بمفاهيم مختفية لمدة أطول من أي مكان آخر "فقد شعر كل هابزبورجي في تصوفه الديني بأنه مرتبط بالسماء برباط خاص جدا كمنفذ لإرادة السماء ، ويفسر ذلك اتجاههم غير المكترث تقريبا في وسط الكوارث التاريخية وتكرانهم المعروف للجميل فقد أصبحت عبارة Der Dank von Hause Habsburg (الشكر من بيت هابزبورج) عبارة شهيرة"[٥٦] بالإضافة إلى ذلك فكانت الغيرة القاتلة من بروسيا الهوهنزولرية التي ورثت موائد الإمبراطورية الرومانية المقدسة وحولت نفسها إلى ألمانيا جعلت الأسرة تصر على مقولة فرانز الثاني الرائعة : "الوطنية من أجلي".

وفي نفس الوقت ومن المدهش أن هذه الأسرة في نهاية أيامها اكتشفت -وربما تكون هي الأخرى قد فوجئت - تشابهات مع الديموقراطيين الاجتماعيين لدرجة أن بعض أعدائهما المشتركين تكلموا عنهما معا ببساطة قائلين : "*اشتراكية البلاط*" ، وكان هناك خليط في هذا التحالف غير المؤكد بين الماكيافيلية والمثالية على كلا الطرفين ولا شك . ويستطيع المرأ أن يرى هذا الخليط في الحملات المتوقدة التي قادها الديموقراطيون الاجتماعيون النمساويون ضد "الفصل" الاقتصادي والعسكري الذي فرضه حكم الكونت إيستفان تيسزا في ١٩٠٥ فكارل رينر "عاقب جبن البرجوازية النمساوية التي بدأت تذعن لخطط العزل الماجيرية بالرغم من أن "السوق المجرية أكثر نفعا بشكل لا يقارن لرأس المال النمساوي من السوق المغربي لرأس المال الألماني «الذي تدافع عنه السياسة الخارجية الألمانية بعنف . وفي المطالبة بمنطقة جمركية مجرية مستقلة ، لم ير شيئا غير صخب وحوش المدينة والنصابين والديماجوجيين السياسيين ضد مصالح الصناعة النمساوية والطبقات العاملة النمساوية والمزارعين المجريين"[٥٧]. وبنفس الشكل كتب أوتو بور أنه [٥٨] :

> **في فترة الثورة الروسية في [١٩٠٥] لن يجرؤ أحد على استخدام القوة العسكرية المجردة لإخضاع البلد [المجر] التي مزقتها عداوات الطبقية والقوميات. ولكن صراعات البلاد الداخلية ستمد التاج بأداة قوة جديدة سوف يتعين عليه أن يستخدمها إذا أراد ألا يعاني نفس قدر بيت بيرنابوت. لا يمكنه أن يكون أداة لإرادتين ، ولكنه مع ذلك**

**ينوي حكم المجر والنمسا ، ولذلك فيجب عليه أن يتخذ خطوات ليتاكد من أن النمسا والمجر لهما إرادة مشتركة ، وأنها ستبنى مملكة واحدة Reich ويقدم لها تشرنم المجر الداخلى إمكانية تحقيق هذا الهدف ، وسوف ترسل جيشها للمجر لتعيدها مرة أخرى للمملكة ، ولكنها سوف تكتب على أعلامها حق تصويت مساو للجميع دون شروط وحق اتحاد عمال الزراعة والاستقلال القومى ، وسوف تعارض فكرة دولة قومية مجرية مستقلة بفكرة اتحاد دول النمسا العظمى فكرة دولة فيدرالية تدير فيها كل قومية شؤونها القومية الخاصة باستقلالية ، وسوف تتحد كل الأمم فى دولة واحدة للحفاظ على مصالحها المشتركة ، وتصبح فكرة الدولة الفدرالية التى تجمع الأمم بشكل حتمى أداة للتاج الذى انهارت مملكته بانهيار الازدواجية .**

ويبدو من المعقول أن نتتبع فى هذه الولايات المتحدة للنمسا العظمى آثار الولايات المتحدة والملكة المتحدة من بريطانيا وشمال أيرلندا التى جاء ليحكمها حزب العمال فى يوم من الأيام ، كما أنه من المعقول أن نتنبأ باتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية التى يذكرنا امتدادها المكانى بامتداد القيصرية . والحقيقة هى أن هذا الاتحاد النمساوى بدا - لعقل متخيل - الوريث الضرورى لسيطرة حكم أسرة معينة -النمسا العظمى- بأجزائها المحررة التى أنتجتها قرون "التفريط" الهابزبورجية .

ومثلت هذه التخيلات "الإمبراطورية" جزئيا سوء حظ الاشتراكية التى ولدت فى عاصمة واحدة من إمبراطوريات أوروبا العظمى المبنية على حكم الأسرات(٥٩). وكما قلنا سلفا فإن تلك المجتمعات المتخيلة بما فيها الاتحاد النمساوى الوليد التى خلقتها أعمال المعاجم والرأسمالية الطباعية دائما ما تنظر لأنفسها على أنها قديمة بشكل أو بآخر. وكان من المغرى أن يفهم الماضى من خلال أسر حاكمة عريقة فى عصر ما زال يفهم فيه "التاريخ" على أنه مسار "أحداث عظيمة" و"قواد عظام" كاللآلىء المثبتة على خيط الحكى ، ومن هنا جاء الاتحاد النمساوى الذى يكون فيه الفاصل بين الإمبراطورية والأمة وبين التاج والبروليتاريا جليا واضحا . ولم يكن "باور" غير عادى فى كل ذلك . فكان ويليام الفاتح وجورج الأول اللذان لا يستطيعان التحدث بالإنجليزية فصين فى عقد "ملوك إنجلترا" بدون أى مشاكل ، "والقديس" ستيفن الذى حكم من ١٠٠١ إلى ١٠٣٨ يمكن أن يحذر خليفته من:(٦٠)

**إن استخدام الأجانب والضيوف النافع لدرجة أنهم قد يمنحوا الأهمية السادسة فى الزينة الملكية . . . . وذلك لأنه عندما يأتى الضيوف من مناطق ومقاطعات متعددة ، فهم يحضرون معهم لغات وعادات متعددة ومعارف وأسلحة متعددة ، ويزين كل ذلك البلاط الملكى ، ويرفع من عظمته ، ويرعب غرور القوى الأجنبية ، لأن الدولة الموحدة فى لغتها وعاداتها دولة هشة وضعيفة. . . .**

ولكن هذه الكلمات لن تمنع بأى حال تاليه القديس من أن يكون أول ملك للمجر.

وفى النهاية إذن فقد قيل إنه منذ نصف القرن التاسع عشر تقريبا قد ظهر ما يسميه سيتون واتسن "القومية الرسمية" داخل أوروبا. وكانت تلك القوميات "مستحيلة" تاريخيا إلى أن ظهرت القوميات اللغوية الشعبية ؛ لأن تلك القوميات –الرسمية– وفى أعماقها كانت ردود أفعال من قبل جماعات السلطة التى كانت أساسا –ولكن ليس دائما– الأسر الحاكمة والأرستقراطيين المهددين بالعزل أو التهميش فى المجتمعات المتخيلة شعبيا ، فقد بدأ نوع من الثوران التكتونى الذى بعث تلك الجماعات بعد ١٩١٨ و١٩٤٥ إلى الجفاف فى إيستوريل ومونت كارلو. وكانت تلك القوميات الرسمية محافظة ، ولا نقول رجعية ، وكانت سياساتها مستمدة من نموذج القوميات الشعبية المتزامن لحد كبير والذى سبقهم [٦١] ، ولم تنحصر فى النهاية فى أوربا والبحر المتوسط ، فتحت اسم الاستعمارية كانت سياسات مشابهة لحد كبير محل عمل لنفس النوع من الجماعات فى الأراضى الأفريقية والآسيوية الواسعة التى احتلت فى القرن التاسع عشر[٦٢] ، وانتشرت فى النهاية لثقافات وتاريخ خارج أوربا ، فقد أخذتها وقلدتها جماعات حكام السكان الأصليين فى تلك المناطق القليلة التى هربت من الاحتلال المباشر مثل اليابان وسيام.

وفى كل حالة تقريبا تخفى القومية الرسمية فرقا بين القومية والمملكة الوراثية ، وبالتالى تخفى تناقضا عالميا . فكان على السلوفاك أن يتمجيروا ، وكان على الهنود أن يتأنجلوا (يصيروا إنجليز) وكان على الكوريين أن يتيبنوا ، ولكن لن يسمح لهم برحلات تسمح لهم بإدارة الماجيريين والإنجليز واليابانيين. ودائما ما تظهر المأدبة التى يدعون إليها على حقيقتها لتصبح احتفالا وهميا . ولم تكن العنصرية ببساطة هى سبب كل ذلك بل كان من الأسباب أيضا أنه فى قلب الإمبراطوريات بدأت الأمم تظهر كالأمم المجرية والإنجليزية واليابانية ، وكانت هذه الأمم أيضا بغريزتها مقاومة للحكم

"الأجنبي". على هذا كانت شخصية الفكر الإمبريالى فيما بعد ١٨٥٠ شخصية الخدع السحرية . ولأى مدى كانت خدع سحرية؟ تلك مسألة تبينها وتقترحها الطمأنينة ورباطة الجأش اللتان راقبت بهما الطبقات الشعبية باستهانة "فقدان" المستعمرات حتى فى حالات كالجزائر والتى كانت فيها المستعمرة متضمنة قانونيا فى الدولة الأم .

وفى النهاية دائما ما تكون الطبقات الحاكمة – وبالتأكيد البرجوازية – ولكن قبل كل شىء الأرستقراطية هى التى تبكى الإمبراطورية كثيرا ودائما ما يكون لحزنها طابع مسرحى .

## الهوامش

١) والشيء اللطيف هو أن ما جاء ليصبح الإمبراطورية البريطانية الحديثة لم تحكمها أسرة حاكمة "إنجليزية" منذ القرن الحادي عشر ومن ساعتها حدث تدافع النورمانيين البلانتاجنتيين والتيودوريين الاولزيين والاستيوارتيين الاسكتلنديين وبيت أورانج من هولندا والهانوفريين على العرش الملكي ولم يعبء أحد بذلك حتى الثورة الفيلولوجية واندلاع القومية الإنجليزية في الحرب العالمية الأولى . فيشبه بيت وندسور بيت شونبرون وبيت فراي .

٢) Jaszi, The Dissolution, p.71. يبدو من الغريب أن جوزيف رفض أن يحلف يمين التتويج كملك للمجر ؛ لأن ذلك كان سيجبره أن يحترم الامتيازات "الدستورية" للنبلاء الماجيريين. Ignotus, Hungary, p.47.

٣) المرجع السابق ص ١٣٧

٤) ويمكن للمرء أن يقول إنها فترة طويلة انتهت في ١٨٤٤ عندما حلت الماجيرية محل اللاتينية بشكل كامل كلغة للدولة في المملكة المجرية ، ولكن كما رأينا كانت اللاتينية الكلابية (الفاسدة) لغة النبلاء الماجيريين المتوسطين والأسافل في الواقع حتى القرن التاسع عشر.

٥) لقد علمت من الأستاذ شهابي من جامعة بهارفارد أن الشاه كان يقلد أباه في المقام الأول فـ"رضا بهلوي" الذي نفته لندن إلى موريشيوس في ١٩٤١ أخذ بعض التراب الإيراني في حقائبه.

٦) Seton-Watson, Nations and States, p.148 للأسف امتد هذا العمل لشرق أوروبا وهنا فسيتون واتسن ساخر على حق على حساب الحكم القيصري والسوفييتي ، ولكنه يتجاهل سياسات مماثلة كانت متبعة في لندن وباريس ومدريد وواشنتن وبرلين.

٧) وهناك مواز مفيد لكل ذلك في الإصلاحات السياسية والعسكرية لشارنهورست وكلوسفيتس وجنيزناو الذين طوعوا العديد من التجديدات الآتية للثورة الفرنسية لبناء جيش القرن التاسع عشر النظامي العظيم القائم التجنيد بروح محافظة عالية .

٨) المرجع السابق ص٨٣-٨٧

٩) المرجع السابق ص ٨٧

١٠) وجاء زمن تفكك هذا الالتحام بالتحول من الإمبراطورية البريطانية إلى الكومنولث البريطاني إلى الكومنولث إلى. . . . ؟

١١) The Break-up of Britain, pp.106ff.

١٢) 'Some Reflections', p.5.

١٣) ويقول جاري ويلز في كتاب اسمه ذو دلالة كبيرة "اختراع أمريكا: إعلان جيفرسن للاستقلال" أن التفكير القومي لجيفرسن تشكل بشكل أساسي على هيوم وهتشسون وآدم سميث وآخرين من رواد التنوير الأسكتلندي وليس على نموذج "لوك".

١٤) Feudal Society, 1, p.42.

١٥) Nations and States, pp.30-31

١٦) The Break-up of Britain, p.123

١٧) ويمكننا أن نكون متأكدين أن أوفاروف الإنجليزى *المغرور من الطبقة الوسطى لم* يعرف شيئًا عن أى من آداب السكان الأصليين.

١٨) انظر Donald Eugene Smith, India as a Secular state, pp. 337-38 وانظر أيضــا Percival Spear, India, Pakistan and the West, p.163

١٩) Smith, India, p.339

٢٠) انظر على سبيل المثال ما قاله "روف" عن إنشاء كلية كوالا كانجزار مالاى فى ١٩٠٥ التى أصبحت بسرعة تعرف وبدون سخرية على أنها "يتون مالاي" ويوافق ذلك ما قاله ماكولى فى أن طلابها كانوا من "الطبقات المحترمة" أى من الأرستقراطية الملايوية ، وكان نصف الملتحقين الأوائل من نسل السلاطين الملايويين المتعددين. William R. Roff, The Origins of Malay Nationalism, pp.100-105

٢١) شعوب عبر الأورال قصة أخرى.

٢٢) انظر Memories of My Life and times, pp.331-32

٢٣) كان الموظفون الهنود يعملون فى بورما .هذا صحيح ولكن بورما كانت ، إداريا ، جزءا من الهند البريطانية حتى عام ١٩٣٧ . وعمل الهنود أيضا فى الملايا البريطانية وسنغافورا وخاصة فى أعمال الشرطة . ولكنهم كانوا يعملون بوصفهم "محليين" و"مهاجرين" أى أنهم لا يرجعون لقوات الشرطة الهندية مرة أخرى ولاحظ أيضا أن التركيز هنا على الموظفين . وقد كان التجار والعمال وحتى الحرفيين الهنود يتحركون بأحجام كبيرة إلى المستعمرات البريطانية فى جنوب شرق آسيا وإلى جنوب وشرق أفريقيا وحتى إلى الكاريبي.

٢٤) وبالتأكيد فى أواخر العصر الإدواردى ، هاجر قليل من "*أبناء المستعمرات البيض*" *إلى* لندن وأصبحوا أعضاء فى البرلمان أو عمالقة صحافة كبار.

٢٥) والشخصية الأساسية هنا كانت شخصية أومورا ماسوجيرو (١٨٢٤-١٨٦٩) والذى كان يسمى "أبوا الجيش الياباني" . وكان من الساموراى ال"شوشو" من الطبقة المنخفضة وقد بدأ عمله بدراسة الطب الغربى من خلال الكتب المكتوبة بالهولندية . ويجب أن نتذكر أنه حتى عام ١٨٥٤ كان *الهولنديون هم الغربيين* الوحيدين المسموح لهم بدخول اليابان ، وكان هذا السماح محدودا أساسا بجزيرة ديشيما بالقرب من ميناء ناجازاكى الذى يسيطر عليه الباكوفو. وعندما تخرج من معهد التكيجيوكو فى أوساكا -الذى كان أفضل المعاهد وقتذاك لتعليم الهولندية فى البلاد – عاد إلى بلده ليمارس الطب ، ولكنه لم ينجح كثيرا فى ذلك . وفى ١٨٥٣ حصل على وظيفة فى أواجيما كمعلم فى التعليم الغربى عندما ذهب إلى ناجازاكى ليتعلم العلوم البحرية – وقد صمم وأشرف على بناء أول سفينة بخارية يابانية من واقع الكتيبات المكتوبة – وجاءت فرصته بعد وصول "بيري" فقد انتقل إلى "إدو" ليعمل كمعلم فى ١٨٥٦ فيما سمى بعد ذلك *الأكاديمية القومية* العسكرية . وعمل أيضا فى مكتب أبحاث البافوكو لدراسة النصوص الغربية . وقد كفلت له ترجماته للكتابات العسكرية الأوربية – وخاصة تلك التى عن تطويرات نابليون فى الاستراتيجية والتقنيات – شهرة عظيمة واستدعاء لشوشو فى ١٨٦٠ ليعمل كمستشار عسكري. وأثبت فى ١٨٦٤ و١٨٦٥ جدارة ونفع كتاباته كقائد عسكرى ناجح فى حرب التوشو الأهلية . وأصبح بالتالى أول وزير حربية فى الميجى ورسم خطة الثورة للتجنيد وخطط حل الساموراى كجماعة قانونية فقتله أحد *الساموراى الغاضبين* . انظر Albert M. Craig, chushu in the Meji Restoration, انظر بخاصة ص ٢٠٢-٢٠٤ و٢٦٧-٢٨٠

٢٦) هذا كلام مراقب يابانى معاصر موجود فى كتاب المؤلف E. Herbert Norman, Soldier and Peasant in Japan p,31.

٢٧) عرفوا ذلك من واقع خبرات شخصية قاسية . وفى ١٨٦٢ سوت فرقة إنجليزية نصف ميناء ساتسوما بـ"كاجوشيما" – بالأرض . وفى ١٨٦٤ دمرت وحدة بحرية أمريكية هولندية إنجليزية مشتركة التحصينات الساحلية لـ"شوشو" فى شيمونوسيكى John M. Maki, Japanese Militarism, pp.146-47.

٢٨) يذكرنا كل ذلك بالإصلاحات البروسية بعد ١٨١٠ استجابة لمناشدة بليشر العاطفية لبرلين والتى يقول فيها "أعطونا جيشا قوميا" Vagts, A History of Militarism, p.130; cf, Gordon A. Craig, The Politics of the Brussian army, ch.2.

٢٩) ولكن بعض المتخصصين فى الدراسات اليابانية أعلمونى أن الحفائر الحديثة فى المقابر الملكية القديمة تقول – وبقوة – إن العائلة قد تكون أصلا عائلة كورية. ولم تشجع الحكومة اليابانية – بكل قوة – الأبحاث اللاحقة فى تلك الأماكن .

٣٠) Maruyama Massao, Thought and behaviour in modern Japanese politics, p.138.

٣١) المرجع السابق ص ١٣٠–١٤٠

٣٢) ولسوء الحظ ، لم يكن البديل الوحيد للدول الملكية –التى تتبنى القومية الرسمية فى ذلك الزمن – وهو المجر النمساوية ، من ضمن القوى التى لها سلطان يعتد به فى الشرق الأقصى .

٣٣) كما هو مترجم ومقتبس فى Richard Storry, The Double Patriots, p.38

٣٤) الجزء التالى نسخة مضغوطة لجزء من عملى "دراسات فى الدولة التايلندية : حالة الدراسات التايلندية" ضمن : Elieser B. Ayal, (ed.), The State of Thai Studies.

٣٥) يوضح باترى بلطف أن الغرض من زيارات الملك الشاب لباتافيا وسنغافورا فى ١٨٧٠ والهند فى ١٨٧٢ كان كما تقول كلمات شولالونجكورن العذبة "اختيار النماذج التى قد تكون آمنة". انظر 'The Military, Government and Society in Siam, 1868-1910' p.118

٣٦) "كان الإلهام الأول للبرنامج القومى واشيراوت هو بريطانيا العظمى التى هى الأمة الغربية التى يعرفها جيدا والتى كانت فى هذا الوقت إمبراطورية يأخذها الحماس الاستعماري" Walter F. Vella, Chaiyo King Vijiravudh and the Development of Thai Nationalism, p. xiv. see also Pp.6 67-68

٣٧) وقد حدث الإضراب بسبب قرار الحكومة بتوقيع نفس ضرائب الرؤوس على الصينيين كما كانت توقعها على التايلنديين ، ولكنها كانت أقل على الصينيين لتشجيع الهجرة . انظر Mabry, Bevars D., The Development of Labor Institutions in Thailand, p.38. وجاء استغلال الصينيين بشكل أساسى من خلال مزارع الأفيون.

٣٨) لمزيد من التفصيل عن الأصول انظر دراستى 'Studies of the Thai State,' p.214.

٣٩) وصاغ أيضا الشعار "الأمة والدين والملك" الذى أصبح شعار الحكم اليمينى فى سيام فى الربع الأخير من القرن . وتبدو هنا أرستقراطية أوفاروف وأورثوذكسيته وجنسيته هكذا فى النظام التايلندى المعكوس.

٤٠) Ignotus, Hungary, pp.47-48. على ذلك وفى ١٨٢٠ أعطى الإمبراطور فرانز الثانى ، النمر فى زى الفراش ، انطباعا حسنا بخطابه الذى ألقاه باللاتينية أمام الأعيان المجريين المتجمعين فى "بست" ولكن وفى ١٨٢٥ أذهل الكونت الرومانسى العظيم الراديكالى إيستافان سزيشنى زملاءه من الأعيان فى الدايت بأن خاطبهم بالماجيارية. Jaszi, The Dissolution, p.80. وانظر أيضا Ignotus, Hungary, p.51

٤١) ترجمت الاقتباس من كتابه "المجر القديمة" ١٩١٠ من Jaszi, The Dissolution, pp.70-71 . كان حرينفالد ١٨٣٩-١٨٩١ شخصية مثيرة وتراجيدية فقد ولد لعائلة نبيلة ممجيرة من أصل ساكسون ى ، وأصبح ذا منصب عال فى الإدارة وواحد من أوائل علماء الاجتماع فى المجر . وقد أثار نشر دراسته - التى تقول إن المقاطعات المجرية الشهيرة التى يسيطر عليها النبلاء الماجيريين طفيليات على جسم الأمة - حملة شرسة من الازدراء العام. وهرب إلى باريس حيث أغرق نفسه فى السين. Ignotus, Hungary, pp.108-109.

٤٢) Jaszi, The Dissolution, p.299.

٤٣) وشرع حكم كوسوث حق التصويت للذكور البالغين ، ولكن بشرط مؤهلات ملكية عالية جدا لدرجة أن القليل من الأشخاص لحد ما كانوا فى مكانة تؤهلهم للتصويت .

٤٤) Ignotus, Hungary, p.56.

٤٥) المرجع السابق ص ٥٩

٤٦) ويقول إجنوتوس أن باخ أمد النبلاء بتعويض مالى عن فقدان امتيازاتهم. "وربما يكون ذلك ليس أقل ولا أكثر مما كانوا سيحصلون عليه تحت حكم كوسوث". ص ٦٤-٦٥

٤٧) المرجع السابق ص ٧٤

٤٨) وبناءً على ذلك تضاعف عدد الضياع الملحقة ثلاث مرات فى الفترة ما بين ١٨٦٧ و١٩١٨ وإذا ضمنا ممتلكات الكنيسة فيكون ثلث أرض المجر كلها تابع بنهاية المملكة المزدوجة. وقد نعم الألمان واليهود أيضا فى حكم تيسزا.

٤٩) المرجع السابق ص ٨١ و٨٢

٥٠) كانت هذه الفوضى من عمل سيئ السمعة "باندورز" ووضع جزء من الجيش تحت تصرف مديرى الريف واستخدم كشرطة قروية عنيفة .

٥١) The Dissolution, p.328

٥٢) بناءً على حسابات لاجوس موكسارى فى "كلمات عن مشكلة الجنسية" من بودابست، ١٨٨٦، والمقتبس فى المرجع السابق ص ٣٣١-٣٣٢ ،وقد أسس موكازرى ١٨٢٦-١٩١٦ حزب استقلال صغير فى البرلمان المجرى فى ١٨٧٤ ليدافع عن أفكار كوسوث وخاصة تلك التى تخص مسألة الأقليات . وقد قادت

خطبه -التى تشجب خروج تيسزا السافر عن قانون ١٨٦٨ للجنسيات - أولا لطرده المادى من البرلمان وطرده من حزبه ، وفى ١٨٨٨ أعيد إلى البرلمان من قبل ناخبين رومانيين وأصبح معزولا سياسيا لحد كبير. -Ig notus, Hungary, p.109.

٥٣) Jaszi, The Dissolution, p.334.

٥٤) المرجع السابق ص٣٦٢ . وفى مطلع القرن العشرين كان هناك صفة غير شرعية فى "حكم الأقلية القومية" ويذكر جاسزى قصة مراسل لأحد الصحف اليومية الشهيرة فى المجر أثناء الحرب العالمية الأولى والذى حاور الضابط المجروح الذى كان سيصبح الدكتاتور المجرى الرجعى فى سنوات ما بين الحربين وغضب هورثى من تقديم المقال لأفكاره "الطيران عودة إلى أرض المجر الأم وطن الأجداد" وقال : "تتذكر إذا كان قائدى الحربى فى "بادن" إذن فأرض وطنى هناك أيضا" .The Dissolution, p.142

٥٥) المرجع السابق ص ١٦٥ "وفى الأيام الجميلة الخوالى عندما كان هناك مكان اسمه النمسا الاستعمارية ، كان يمكن للفرد أن يترك قطار الأحداث ويصعد إلى قطار عادى فى خط سكة حديد عادية ويسافرعائدا للوطن. . . . وبالطبع كانت السيارات تسافر على تلك الطرق أيضا ، ولكنها لم تكن كثيرة . وبدأت هنا أيضا عملية غزو الجو ، ولكنها لم تكن عملية مكثفة. ومن وقت لآخر كانت ترسل سفينة إلى أمريكا الجنوبية أو الشرق الأقصى ، ولكن لم يكن ذلك كثيرا فلم يكن هناك طموح كبير فى امتلاك أسواق عالمية ، وقوة عالمية ، وكان الفرد هنا فى مركز أوروبا فى النقطة المركزية لمحاور العالم القديم فكان لكلمتى "مستعمرة" و"عبر البحار" رنين شيء لم يجرب بعد مطلقا وبعيد عن التفكير ، وكان هناك بعض الرفاهية ، ولكنها بالطبع لم تكن زائدة كالرفاهية الفرنسية . وقد ذهب الناس للرياضة ، ولكن ليس بالشكل الجنونى للأنجلو ساكسونيين . كما صرفت المبالغ الهائلة على الجيش ، ولكن ما أنفق كان كافيا فقط ليؤكد أنها كانت ثانى أسوأ قوة من القوى العظيمة " Robert Musil, The man Without Qualities,1, pp. 31 . هذا الكتاب أروع رواية كوميدية فى قرننا.

٥٦) Jaszi, The Dissolution, p.135. عندما طرد مترنيخ بعد العصيان المسلح فى ١٨٤٨ واضطر للهرب "لم يسأله أحد فى كل البلاط إلى أين يذهب وكيف سيعيش".

٥٧) المرجع السابق ص ١٨١

٥٨) Otto Baur, Die Nationalitatenfrage und die Sozialdemocratie (1907). كما هو موجود فى .Werkausgabe,1. p.482 وتقدم المقارنة بين هذه الترجمة وترجمة جسزى الموجودة فى النسخة الأصلية من هذا الكتاب مادة جيدة للتفكير.

٥٩) كما يعكسون بالتأكيد التركيبة العقلية المميزة لنموذج معروف للمثقف اليسارى الأوروبى الفخور بتملكه ناصية لغة متحضرة وتراثه التنويرى وفهمه الثاقب لمشاكل كل إنسان آخر . وتختلط فى هذا الغرور مكونات عالمية وأرستقراطية.

٦٠) Jaszi. The Dissolution, p.39.

٦١) وقبل نصف قرن شك جسزى بالفعل أن "المرء يستطيع أن يسأل إذا كانت تطويرات الإمبريالية الأخيرة للقومية قد انبعث حقيقة من المنابع الحقيقية للفكر القومى وليس من المنافع المستغلة لبعض الجماعات الغريبة عن المفاهيم الأساسية للأهداف القومية" المرجع السابق ص ٢٨٦

٦٢) وتتضح المسألة بشكل جيد - بالعكس - فى حالة الهند الهولندية التى كانت فى أيامها الأخيرة ما

تزال محكومة لحد كبير من خلال لغة نعرفها اليوم باسم "الأندونيسية". وأعتقد أن هذه هى الحالة الوحيدة لمستعمرة كبيرة بقيت فيها لغة غير أوروبية لغة الدولة حتى النهاية . ويمكن تفسير هذا الشذوذ بشكل أساسى بقدم المستعمرة نفسه . وقد أسست فى بداية القرن السابع عشر عن طريق مؤسسة اسمها Vereenigede Oostindische Compagnie(شركة الهند الشرقية المتحدة) قبل عصر القومية الرسمية بمدة طويلة . ولا شك أنه كان هناك أيضا شيء من عدم الثقة من جانب الهولنديين فى الزمن الحديث ، أن لغتهم وثقافتهم لها طابع أوربى مثل ذلك الذى للإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية والإيطالية. فكان البلجيكيون فى الكنغو يفضلون استخدام الفرنسية عن الفلامنجو . وفى النهاية كانت السياسة التعليمية الاستعمارية جد محافظة ؛ ففى ١٩٤٠ عندما أصبح عدد السكان الأصليين يزيد على ٧٠ مليونا كان هناك فقط ٦٣٧ من السكان الأصليين فى الجامعة وتخرج منها ٣٧ فقط وحصلوا على درجة الليسانس . انظر George Mct. Kahin, Nationalism and Revolution in Indonesia. p.32.وللمزيد عن المسألة الأندونيسية انظر الفصل السابع .

## الفصل السابع

# الموجة الأخيرة

أنهت الحرب العالمية الأولى عصر حكم الأسرات ، فبحلول ١٩٢٢ انتهت أسرات هابسبورج وروما نوف وهوهنزولرن والعثمانيون . وبدلا من مؤتمر برلين جاءت عصبة الأمم التى لم يُمنع من دخولها غير الأوروبيين . ومنذ ذلك التوقيت فصاعدا كان شكل الدولة القومية هو الشكل الشرعى العالمى ، ولذلك أتت القوى الإمبريالية الباقية مرتدية الملابس القومية وليس الزى الإمبريالى . وبعد كارثة الحرب العالمية الثانية وصل مد الدولة القومية إلى مداه . فبحلول منتصف السبعينيات من هذا القرن أصبحت الإمبراطورية البرتغالية ذكرى من الماضى.

وتملك الدول الجديدة -دول ما بعد الحرب العالمية الثانية - شخصية خاصة بها لا يمكن فهمها مع ذلك إلا بتتابع النماذج التى درسناها . ويمكن لتوضيح هذا النسب أن نذكر أنفسنا بأن عددا كبيرا من تلك القوميات غير الأوروبية فى معظمها أصبحت تمتلك لغة أوربية كلغة الدولة الرسمية . فإذا شابهوا النموذج "الأمريكي" فى هذا المجال فقد أخذوا من القومية اللغوية الأوروبية شعبيتها المتحمسة وأخذوا من القومية الرسمية توجهات سياسة الترويس . وقد فعلوا ذلك لأن الأمريكيين والأوروبيين عاشوا خبرات تاريخية معقدة هى الآن فى كل مكان بمثابة نموذج متخيل ، ولأن اللغات الرسمية الأوروبية التى استخدموها كانت موروث القومية الرسمية الإمبريالية . هذا هو السبب وراء رؤية المرء كثيرا فى سياسات "بناء القوميات" للدول الجديدة حماسا قوميا شعبيا حقيقيا ، وزرع منظم ميكيافيلى أحيانا للأيديولوجية القومية من خلال وسائل الإعلام والنظام التعليمى والقواعد الإدارية وما إلى ذلك . وهذا المزج بين القومية الشعبية والرسمية بدوره نتج عن الشذوذ الذى خلقته الإمبريالية الأوروبية كعشوائية الحدود المعروفة والتوزيع غير القائم على أساس للمثقفين الذين يتكلمون أكثر من لغة على الشعوب المختلفة التى تتحدث لغة واحدة . ويستطيع المرء لذلك أن يفكر فى الكثير من هذه القوميات على أنها مشروعات ما زالت منجزاتها فى الطريق ، ولكنها مشاريع تفهم بشكل كبير فى ضوء روح متزينى أكثر منها فى روح أوفاروف.

وبدراسة أصول "القومية الاستعمارية" الحديثة ، يتكشف لنا تشابه أساسى مع القومية الاستعمارية المبكرة ألا وهو التماثل بين المساحة الأرضية لكل قومية والمساحة الأرضية للوحدة الإدارية الاستعمارية السابقة. وليس ذلك التشابه بأى حال من الأحوال عفويا ، فهو مرتبط بشكل واضح بجغرافية رحلات حج المستعمرات . ويقع الاختلاف بينهما فى حقيقة أن حدود الرحلات الكريولية فى القرن الثامن عشر لم تتشكل بطموح المركزة عند حكام الدولة الأم فقط ، ولكن شكلتها أيضا مشاكل حقيقية فى الاتصال والمواصلات وبدائية عامة فى التقنيات . وقد تم التغلب على هذه المشكلات بشكل كبير فى القرن العشرين . وبدلا منها ، جاء "الترويس".

قلت سلفا إنه فى أواخر القرن الثامن عشر اكتسبت الوحدات الإدارية الاستعمارية معنى قوميا . والسبب الجزئى فى ذلك أنها حددت صعود الموظفين الكريوليين . وكذلك الحال أيضا فى القرن العشرين . ذلك لأنه –حتى عندما يأتى شاب إنجليزى أسمر أو أسود ليتلقى تعليما أو تدريبًا فى البلد الأم ، وهو الأمر الذى لم يستطع الكثير من أسلافه الكريوليون فعله – فقد تكون هذه هى الرحلة الوظيفية الأخيرة التى يقوم بها ، ومن ساعتها فإن قمة قفزته لأعلى تكون أعلى المراكز الإدارية التى يمكن أن يتولاها فى رانجون أو أكرا أو جورجتاون أو كولومبو . ولكنه يجد فى كل رحلة محدودة رفقاء سفر يتكلمون أكثر من لغة . وبدأ يشعر معهم بجماعية متزايدة وفهم فى رحلته بسرعة أن أصله سواء كان مفهوما من الناحية العرقية أو اللغوية أو الجغرافية ليس ذا أهمية كبيرة : فأقصى ما يسببه هو أن يرسله فى هذه الرحلة بدلا من تلك دون أن يحدد ، بشكل أساسى ، وجهته أو رفقته . وجاء – من هذا النموذج– التحول المعقد نصف الخفى والمتدرج من الدولة الاستعمارية إلى الدولة القومية . وقد جاء هذا التحول ليس فقط عن طريق استمرار الموظفين بل عن طريق القطيع من الرحلات التى يتحسس كل موظفى دولة دولتهم من خلالها كذلك[1] .

ولكن بعد نصف القرن التاسع عشر ، وقبل كل شىء فى القرن العشرين ، لم يقم بتلك الرحلات عدد ضئيل من الرحالة وإنما يقوم بها جمهور كبير متنوع . وأهم العوامل التى عملت على ذلك ثلاثة هي: الأول والأهم كان التزايد الهائل فى التحرك المادى الذى حدث من الإنجازات الهائلة للرأسمالية الصناعية كالسكك الحديدية والسفن البخارية فى القرن الماضى والسيارات والطيران فى هذا القرن . وسرعان ما أصبحت الرحلات اللانهائية فى الأمريكتين القديمتين ماضيا .

العامل الثانى ، أن الترويس الإمبريالى كان له جانب عملى بالإضافة للجانب الأيديولوجى . ويعنى حجم الإمبراطوريات الأوروبية فى العالم والشعوب الكبيرة المستعمرة أنه ليس من المحتمل تعيين الموظفين أو الإنفاق عليهم من الدولة الأم ولا حتى الموظفين الكريوليين . فكانت الدولة الاستعمارية -وبعد ذلك العاصمة - فى حاجة لجيش من الموظفين ممن يجب أن يتكلموا أكثر من لغة ؛ ليكونوا نافعين قادرين على الوساطة اللغوية بين الأمة المستعمرة والشعب المستعمر . وازدادت الحاجة وتعاظمت عندما تضاعفت وتعددت الوظائف الخاصة للدولة فى كل مجال بحلول القرن الحالى . وبجانب ضابط الحى القديم ظهرت وظيفة الضابط الطبى ومهندس الرى والعامل الزراعى والمدرس وضابط الشرطة وما إلى ذلك . وتضخم حجم الحجاج الداخليين مع كل توسع للدولة[٢].

والعامل الثالث ، هو انتشار التعليم على الطراز الحديث ، ليس فقط على أيدى الدولة الاستعمارية بل على أيدى المنظمات الدينية والمدنية الخاصة أيضا . ولم يأت هذا التوسع ليقدم كوادر للنظام الإدارى الحكومى فحسب ، بل بسبب تنامى قبول الأهمية الروحية للمعارف المعاصرة لدى حتى الشعوب المستعمرة[٣] ، وقد بدأت ظاهرة المتعلم العاطل تظهر بالفعل فى مختلف الدول الاستعمارية.

ومن الواضح بصفة عامة أن المثقفين كانوا أساسيين فى نشأة القومية فى الأراضى الاستعمارية . وقد يكون من الأسباب الأساسية فى ذلك أن الاستعمار جعل المزارعين الكبار من السكان الأصليين والتجار الكبار والرأسماليين الصناعيين -وحتى طبقة حرفيين كبيرة - طبقات نادرة لحد ما . وكانت القوة الاقتصادية فى كل مكان تقريبا إما تحت سيطرة المستعمرين وإما موزعة توزيعا غير عادل بينهم وبين طبقة غير فعالة سياسيا من رجال الأعمال الأجانب من اللبنانيين والهنود والعرب فى إفريقيا الاستعمارية والصينيين والهنود والعرب فى آسيا الاستعمارية . ولا يقل عن ذلك وضوحا للجميع أن دور المثقفين الطليعى مستمد من تعليمهم بأكثر من لغة أو من تعليمهم وتحدثهم بأكثر من لغة . وقد مكن التعليم الذى وفرته الطباعة من تخيل المجتمع السابح فى الزمن المتجانس الفارغ الذى تحدثنا عنه سلفا . ويعنى التحدث بأكثر من لغة النفوذ عبر لغات الدولة الرسمية الأوروبية إلى الثقافة الغربية الحديثة عموما وإلى نماذج القومية خاصة والأمة والدولة القومية التى أنتجت فى مكان آخر فى القرن التاسع عشر[٤].

وفى ١٩١٣ أقامت السلطات الاستعمارية الهولندية فى "باتافيا" مهرجانات فى كل البلاد احتفالا باليوم العاطفى "للتحرير القومي" لهولندا من الاستعمار الفرنسى ، وصدرت الأوامر لتؤكد على المشاركة الفعلية والمساهمة المادية ليس فقط لمجتمعات الهولنديين المحليين والأوربيين الآسيويين ولكن أيضا للشعوب المستعمرة نفسها . واعتراضا على ذلك ، كتب القومى الجاوى الأندونيسى المبكر سواردى سورجاننجرات مقالا باللغة الهولندية تحت عنوان "لو كنت هولنديا ولو لمرة واحدة"(٥)

> **وفى وجهة نظري هناك شيء ما ليس فى محله . شيء ليس لطيفا إذا طلبنا -وأنا ما زلت أتخيل أنني هولندي- من السكان *الأصليين* أن يشاركوا في احتفالنا بالاستقلال . فلولا سوف نجرح مشاعرهم لأننا نحتفل هنا باستقلالنا نحن في بلادهم *التى نستعمرها* وفى اللحظة التى نكون فيها نحن سعداء لأننا منذ مائة عام حررنا أنفسنا من السيطرة الأجنبية فإن كل ذلك يحدث أمام أعين أولئك الذين ما يزالون تحت سيطرتنا . ألم يخطر ببالنا أن هؤلاء العبيد المساكين يطوقون للحظة كهذه يكونون فيها قادرين مثلنا على الاحتفال باستقلالهم؟ أم ترى، ربما نشعر أنه بسبب سياساتنا فى تدمير *الروح* نرى كل أرواح البشر ميتة؟ لو كان ذلك صحيحا فإننا نخدع أنفسنا ، فمهما كان المجتمع بدائيا فهو ضد كل أنواع القهر. لو كنت هولنديا لما نظمت احتفال *الاستقلال* فى بلد سرق منه استقلال شعبه.**

واستطاع سواردى أن يقلب التاريخ الهولندى على الهولنديين بهذه الكلمات وبالتلميح الصريح للرابطة بين القومية والاستعمارية الهولندية ، وعلاوة على ذلك عن طريق تحويل نفسه مؤقتا إلى هولندى . ويدعو ذلك إلى تحويل القراء الهولنديين بدورهم إلى أندونيسيين مؤقتا ، قد بين كل القدرية العنصرية التى تحكم الأيديولوجية الاستعمارية الهولندية(٦).

ويعد وابل نقد سواردى هذا -والذى أسعد جمهوره من الإندونوسيين كما أزعج الهولنديين - مثلا لظاهرة عالمية فى القرن العشرين . ومن تناقض القومية الرسمية الاستعمارية أنها جلبت بشكل واسع ما كان يكتب عنه ويعتقد أنه "تواريخ القومية الأوروبية" إلى وعى المستعمَرين ، ليس من خلال الاحتفالات *الخرقاء* فحسب بل أيضا

من خلال غرف القراءة والفصول(٧). فلا تستطيع الشبيبة الفيتنامية أن تتجنب المعرفة عن الفيلوسوف والثورة وما يسميه ديبرى "عداؤنا الدائم لألمانيا"(٨). وقد دخلت ماجنا كارتا وأم البرلمانات والثورة المجيدة والمصوغة على أنها التاريخ القومى الإنجليزى ، دخلت المدارس فى كل الإمبراطورية البريطانية . والصراع البلجيكى من أجل الاستقلال ضد هولندا لا يمكن محوه من كتب المدرسة التى يقرأها أى طالب منغولى فى يوم من الأيام . وكذلك كان الحال مع التاريخ الأمريكى فى الفلبين ، والبرتغالى فى أنجولا وموزمبيق. ووجه السخرية بالطبع أن هذه التواريخ كتبت من واقع وعى تاريخ رسمى أصبح -بانقلاب القرن فى كل أوروبا- ذا صبغة قومية. فالبارونات الذين فرضوا ماجنا كارتا على جون بلنتاجينيت لم يكونوا يتكلمون "الإنجليزية" ، ولم يعرفوا أنفسهم على أنهم "إنجليز" ، لكنهم عرفوا بكل تأكيد على أنهم الوطنيون الأوائل فى مدارس المملكة المتحدة بعد ذلك بـ ٧٠٠ عام .

ولكن هناك صفة مميزة للطبقات الصاعدة من القوميين المثقفين فى المستعمرات والتى تميزهم بعض الشيء عن المثقفين القوميين من الدعاة للغات المحلية فى أوروبا فى القرن التاسع عشر. فقد كانوا حتميا شبابا صغارا جدا وأضفوا على شبابهم أهمية سياسية معقدة ، وتلك الأهمية بالرغم من تغيرها بمرور الزمن لا تزال مهمة حتى اليوم . وغالبا ما يؤرخ لقيام القومية البورمية المنظمة الحديثة بإنشاء منظمة الشباب البوذى فى رانجون فى ١٩٠٨ ، كما يؤرخ للقومية الملاوية بتأسيس اتحاد الشباب الملاوى فى ١٩٣٨ ، ويحتفل الأندونيسيون كل عام بذكرى قسم الشباب الذى ألفه وحلفه الشباب فى مؤتمر الشباب القومى فى ١٩٢٨ وهكذا. ويبدو حقيقيا تماما أنه من أحد الزوايا كانت أوروبا سباقة فى ذلك ، إذا تذكرنا أيرلندا الفتاة وإيطاليا الفتاة وما يشبه ذلك . ففى كل من أوروبا والمستعمرات عبر "الشباب" عن الدينامية والتقدم والمثالية المضحية بالذات والإرادة الثورية ، ولكن "الشباب" فى أوروبا لم يكن لهم حدود اجتماعية معروفة ، فيمكن أن يكون الفرد متوسط العمر ويكون عضوا فى أيرلندا الفتاة ويمكن أن يكون جاهلا ومع ذلك عضواً فى إيطاليا الفتاة . والسبب فى ذلك بالطبع هو أن لغة هذه القوميات إما اللغة المحلية الأم التى كانت متاحة للأعضاء منذ المهد وإما -كما كان الحال فى أيرلندا- كانت لغة الدولة الأم (أى الدولة المستعمرة وهى الإنجليزية فى حالة أيرلندا) التى غاصت بجذورها فى أعماق سحيقة لدى بعض قطاعات الشعب على مر قرون الغزو لدرجة أنها قد تعبر عن نفسها هى

الأخرى بشكل كريولى كلغة محلية . ولذلك لم تكن هناك رابطة ضرورية بين اللغة والسن والطبقة والمكانة .

وكان الوضع مختلفا فى المستعمرات ، حيث كان الشباب - كمفهوم - يعنى قبل كل شيء الجيل الأول فى أى عدد من الناس يحصل على تعليم أوروبى ويفصلهم لغويا وحضاريا عن جيل آبائهم ، كما يفصلهم عن الفئات العريضة من أقرانهم فى نفس السن فى المستعمرة . وقد أسست YMBA البورمية "الناطقة بالإنجليزية" على نموذج YMCA وقد أسسها أولاد المدارس الذين يتكلمون الإنجليزية . ويجد المرء فى الهند الهولندية جاوا الفتاة وأمبوينا الفتاة وجماعة الشبان المسلمين ، وكلها عناوين ليست مفهومة لأى شاب من السكان الأصليين غير متصل بلغة المستعمر . وفى المستعمرات إذن تعنى كلمة "الشباب" "شباب المدارس" وكان ذلك فى البداية على الأقل . ويذكرنا ذلك مرة أخرى بالدور الفريد الذى لعبه نظام المدارس والتعليم فى المستعمرات فى ترقية القومية فى المستعمرات(٩).

وتقدم حالة أندونيسيا تمثيلا معقدا بشكل مثير على هذه العملية . ومن الأسباب الجوهرية فى ذلك مساحتها الواسعة جداً وعدد سكانها الكبير حتى فى أيام الاستعمار ؛ وتشعبها الجغرافى - فهى بلد يتكون من ٣,٠٠٠ جزيرة - ؛ وتعدد الديانات فيها - فكان فيها المسلمون والبوذيون والكاثوليك والبروتستانتيون والهندوس وعبادة الروح واختلاف العرقيات ، فكان فيها ما يربو على ١٠٠ جماعة عرقية مختلفة . علاوة على ذلك - وكما يقترح اسمها المولد الهيلينى المستعار - فإن امتدادها لا يتشابه ولومن بعيد مع مساحة ما قبل الاستعمار بل على العكس ، فحتى الغزو الوحشى للجنرال سوهارتو ل"تيمور الشرقية البرتغالية" سابقا فى ١٩٧٥ ، على الأقل ، فإن حدودها هى الحدود التى تركتها الغزوات الهولندية وراءها فى ١٩١٠ .

وبعض الشعوب على الساحل الشرقى لسومطرة لم تكن فقط قريبة مكانيا عبر مضيق ملقة إلى شعوب الساحل الغربى لشبه جزيرة الملايو ، ولكنهم مرتبطون عرقيا ويفهمون لغة بعضهم البعض ولهم دين واحد وما إلى ذلك . ولا يشترك هؤلاء السوماطريون فى اللغة الأم ولا العرق ولا الدين مع الأمبونيزيين الموجودين على جزر شرقية تبعد آلاف الأميال . ومع ذلك ، وأثناء هذا القرن ، فقد فهموا الأمبونيزيين على أنهم مواطنون أندونيسيون ، وظنوا أن الملايويين أجانب.

ولم يكن شيء أكثر رعاية لذلك الارتباط من المدارس التى بناها الحكم فى باتافيا

بأعداد متزايدة بعد بداية القرن . ولكي ندرك السبب فعلينا أن نتذكر التناقض الكبير مع المدارس المحلية التقليدية والتى دائما ما كانت مشاريع محلية فردية حتى لو كان- على النمط الإسلامى الجيد- هناك العديد من التحركات الأفقية للطلاب من معلم جيد حسن السمعة لآخر . فقد شكلت المدارس الحكومية سلما عقلانيا مركزيا يشبه فى تركيبه النظام الوظيفى الحكومى نفسه . وقد خلقت الكتب الدراسية الموحدة والدبلومات وشهادات التدريس والتخرج المنظم للجماعات السنية(١٠) والفصول والمواد التعليمية فى حد ذاتها عالما متجانسا مستقلا بذاته . ولم تكن جغرافية هذا السلم أقل أهمية ، فقد كانت المدارس الابتدائية موزعة على القرى والمدن الصغيرة فى المستعمرة والمدارس المتوسطة الإعدادية فى المدن ومراكز المقاطعات ، بينما كان التعليم الثانوى العالي- رأس الهرم – مقصوراً على عاصمة المستعمرة باتافيا ومدينة باندونج التى بناها الهولنديون على بعد ١٠٠ ميل إلى الجنوب الشرقى فى الأراضى العالية فى بريانجان . وعلى ذلك فقد استجلب النظام المدرسى الجديد فى القرن العشرين فى المستعمرة إلى الوجود رحلات حج توازى رحلات الموظفين الأقدم ، وكانت روما بالنسبة لرحلات الحج هذه هى باتافيا وليست سنغافورا ولا مانيلا ولا رانجون ولا حتى العواصم الملكية الجاوية القديمة كجاكرتا وسوراكرتا(١١) . ومن كل أجزاء المستعمرة الواسعة وليس من خارجها ، سلك الحجاج طريقهم الداخلى إلى الأعلى ؛ حيث يقابلون رفاقا من الحجاج من قرى مختلفة ربما كانت فى يوم من الأيام معادية فى المدرسة الابتدائية ومن جماعات عرقية لغوية مختلفة فى المدرسة المتوسطة ، ومن كل مكان فى المملكة فى المدرسة الثانوية فى العاصمة(١٢) . ويعرفون أنهم بغض النظر عن مقدمهم قد قرأوا نفس الكتب ودرسوا نفس الكميات ، وقد عرفوا أيضا أنه حتى ولو لم يبتعدوا كثيرا -ومعظمهم لم يبتعد- فإن روما هى باتافيا ، وأن كل هذه الرحلات استمدت معناها من العاصمة ، ونتيجة لذلك فهى تشرح لماذا "نحن" "هنا" "سويا". ولنصغ الأمر فى صياغة أخرى ، فإن خبرتهم المشتركة وزمالتهم المتنافسة اللطيفة فى الفصل هى التى أعطت خريطة المستعمرة التى درسوها – والتى دائما ما تكون ملونة بلون مختلف عن المالايو البريطانية والفلبين الأمريكية – حقيقة أرضية متخيلة خاصة كانت تثبت كل يوم عن طريق لهجات وملامح وجه زملائهم فى الفصل الدراسي(١٣).

وماذا كانوا جميعا؟ كان الهولنديون واضحين تماما فى هذه النقطة ، فمهما كانت

اللغة الأم التى يتكلمونها فهم لا محالة (إنلاندرز) وهى الكلمة التى تشبه الكلمة الإنجليزية "السكان الأصليين" والفرنسية (إينديجينى) كانت دائما ما تحمل دلالة متناقضة بشكل غير مقصود . وفى هذه المستعمرة كما كان الحال فى كل مستعمرة منفصلة أخرى - فإن الكلمة كانت تعنى أن الأشخاص المشار إليهم كانوا "أدنى" و"ينتمون إلى هناك" بالضبط كما كان الهولنديون بكونهم "سكانا أصليين" لهولندا ينتمون إلى هناك . وبنفس الشكل فإن الهولنديين بهذه اللغة أضفوا على أنفسهم ، بالإضافة إلى العلو ، صفة عدم الانتماء إلى «هناك» . وتعنى الكلمة أيضا -الإنلاندرز- فى دنوهم المشترك محتقرين بنفس الشكل بغض النظر عن أى جماعة عرقية لغوية ينتمون إليها . ولكن حتى هذا التساوى البائس فى الحال له حدوده الخارجية المحددة ؛ فدائما ما كان الفرد الإنلندر يثير السؤال "سكان أصليين فى أى مكان؟" وإذا كان الهولنديون أحيانا يتكلمون كما لو كان الإنلندرز صنفا من أصناف العالم ، فإن التجربة توضح أن هذه الفكرة يصعب الحفاظ عليها فى الممارسة العملية . فقد توقف الإنلندرز على الحدود الملونة المرسومة للمستعمرة ، وفيما وراء تلك الحدود كان هناك تعدد من السكان الأصليين "النيتيفز" و"الإينديجين" و"الإندويس". وعلاوة على ذلك فقد تضمنت المصطلحات الاستعمارية القانونية تصنيف الشرقيين الأجانب الذى كان له جرس العملة المعدنية المزورة المشكوك فيه ؛ لأنهم كانوا "سكان أصليين أجانب" . وكان لهؤلاء "الشرقيين الأجانب" الذين كانوا فى معظمهم صينيين ويابانيين وعرب ، بالرغم من أنهم قد يقيمون فى المستعمرة وضعا سياسيا قانونيا أعلى من وضع "السكان الأصليين الأصليين". وعلاوة على ذلك فقد كانت هولندا الصغيرة مرتعدة من القوة الاقتصادية والقوة العسكرية لحكم الميجى بشكل كاف لترقية اليابانيين فى المستعمرة قانونيا منذ ١٨٩٩ فصاعدا إلى "أوروبيين شرفيين" . ومن كل هذا ، وبنوع من الترسيب ، أصبح الإنلندر بدون البيض والهولنديين والصينيين والعرب واليابانيين "والسكان الأصليين" والإينديجين والإنديوس أكثر تحديدا فى المحتوى حتى تحولت اليرقة الناضجة فجأة إلى الفراشة الرائعة المسماة "إندونيسيا".

وبينما يبدو من الحقيقى أن المفهومين إنلندر و"سكان أصليين" لا يمكن تعميمهما على أنهما فكرتان عنصريتان حقيقيتان ؛ لأنهما دائما ما تدلان على جذور فى موطن معين[١٤] ، فإن حالة إندونيسيا لا يجب أن تقودنا إلى افتراض أن كل "موطن أصلي" له حدود محددة سلفا وثابتة . وهناك مثلان يوضحان عكس ذلك وهما غرب أفريقيا الفرنسية والهند الصينية الفرنسية .

وفي أحسن أيامها ، كانت المدرسة العادية ويليام بونتى فى داكار - بالرغم من أنها مجرد مدرسة ثانوية - قمة الهرم التعليمى الاستعمارى فى غرب أفريقيا الفرنسي[١٥]. وجاء إلى ويليام بونتى الطلبة الأذكياء من ما نسميه الآن غينيا ومالى وساحل العاج والسنغال وما إلى ذلك. يجب إذن ألا نندهش إذا كانت رحلات حج هؤلاء الصبية التى تنتهى فى داكار كانت تقرأ بالشكل غرب الأفريقى الفرنسى والذى كان المفهوم المضاد له وهو الأفريقية يمكن التعبير عنه فقط فى الفرنسية -أى لغة مدرسة ويليام بونتى - وهذا رمز لا ينسى . ولكن خصوصية مدرسة ويليام بونتى كانت عفوية وسريعة الزوال ، ولأن المدارس الثانوية بنيت أكثر فى غرب أفريقيا الفرنسية فلم يعد من الضرورى للطلبة الأذكياء أن يقوموا برحلة حج طويلة كهذه . وعلى أية حال ، كانت مركزية التعليم لويليام بونتى لا تضاهيها مركزية إدارية مماثلة فى داكار ، ولا يقارن تبديل طلبة غرب أفريقيا على مقاعد المدرسة ببدائلهم الموظفين فى المستقبل فى الإدارة الاستعمارية لغرب أفريقيا الفرنسية ، وبالتالى فقد عاد أبناء المدرسة القدام إلى أوطانهم ليكونوا بمرور الزمن قادة قوميين غينيين وماليين محتفظين بزمالة "غرب أفريقيا" وتآلف حميم وهو ما فقدته الأجيال اللاحقة .[١٦]

وبنفس الشكل تقريبا ، ولجيل من الشباب المتعلمين جيدا لحد ما ، كان للمزيج العجيب "الهند الصينية" خبرة حقيقية من المعنى المتخيل[١٧] ، ويجب أن نتذكر أن هذه الوحدة السياسية لم تشهر رسميا إلا فى ١٨٨٧ ، ولم تكتسب مساحتها الأرضية الكاملة حتى ١٩٠٧ مع أن التدخل الفرنسى النشط فى المنطقة عامة يعود لقرن سابق.

وعلى العموم كان للسياسة التعليمية التى تتبعها السلطات الاستعمارية فى الهند الصينية غرضان أساسيان[١٨] ساهم كلاهما -كما حدث - فى تنامى وعى "هندى صيني" . كان واحد من هذين الغرضين كسر الروابط السياسية الثقافية الكائنة بين الشعوب المستعمرة والعالم خارج الهند الصينية مباشرة . وبخصوص "كمبوديا" و"لاوس"[١٩] كانت سيام هى الهدف ، والتى مارست فى الماضى سلطانا متغيرا عليهما ، وشاركت الاثنين فى الطقوس والمؤسسات واللغة المقدسة لبوذية هينايانا. وعلاوة على ذلك كانت اللغة والكتابة فى الأراضى الواطئة فى "لاو" وما زالت مرتبطة ارتباطا وثيقا بلغة وكتابة التيلنديين . وانطلاقا من هذا الاهتمام بالتحديد ، فإن الفرنسية - التى جربت فى هذه المناطق أولا - انتهت من سيام بما يسمى "مدارس بوجودا المجددة" التى صممت لنقل الرهبان الخامير وتلاميذهم خارج منطقة تايلند إلى

الهند الصينية[٢٠] .

وفى شرقى الهند الصينية -وهو اللفظ المختصر الذى استخدمه لـ"توكين" و"إنام" و"كوتشين"- كانت الصين والحضارة الصينية هى الهدف . وبالرغم من أن الأسر الحاكمة فى هانوى وهوى دافعت عن استقلالها عن الصين لقرون عدة ، فقد أصبحت تحكم من خلال نظام حكم مندرينى اتخذ الشكل الصينى نموذجا له . فكان التعيين فى الوظيفة الحكومية بناءً على امتحان تحريرى فى الكلاسيكيات الكمفوشيوسية وكانت الوثائق الملكية تكتب بالرموز الصينية ، وكانت الطبقة الحاكمة صينية بشكل كبير فى ثقافتها وتبنت هذه الروابط القديمة شخصية إضافية غير مرغوب فيها بعد حوالى ١٨٩٥ عندما بدأت كتابات الإصلاحيين الصينيين من أمثال كانج يو وى وليانج شياخو والقوميين من أمثال سوم يات سن تتسلل خلال الحدود الشمالية للمستعمرة[٢١] ، وعلى ذلك فقد ألغيت الاختبارات الكومفيشوسية بالتوالى فى "تونكين" فى ١٩١٥ وفى "أنام" فى ١٩١٨ ، وعلى ذلك كان التعيين فى الخدمة المدنية فى الهند الصينية يحدث بشكل كامل من خلال نظام تعليم فرنسى نام فى المستعمرة . وعلاوة على ذلك فقد رقيت كواك نجو ، وهى كتابة صوتية رومانية اخترعها المبشرون الجزويت فى القرن السابع عشر[٢٢] واستخدمتها السلطات فى "كوتشين" فى ستينيات القرن التاسع عشر بشكل واعى لكسر الروابط مع الصين ؛ وربما ، أيضا، لكسر الروابط مع الماضى الأصيل عن طريق جعل سجلات الأسرة الحاكمة والأدب القديم بعيدا عن أيدى الجيل الجديد من الفيتناميين المستعمرين[٢٣].

وكان هدف السياسة التعليمية الثانى هو إخراج كمية مختارة بعناية من الهنود الصينيين الذين يكتبون ويقرأون الفرنسية ليقوموا بدور الصفوة المحلية المثقفة بثقافة أخرى والتى يمكن الاعتماد عليها سياسيا والمخلصة وليملأوا النسق الوظيفى المعاون فى المستعمرة والشركات التجارية الكبيرة[٢٤].

ولا نحتاج أن نتوقف هنا عند تعقيدات نظام التعليم فى المستعمرة ، وما يهمنا الآن أن الصفة الجوهرية فى هذا النظام هى أنه كون هرما واحدا -حتى لو كان متداع السقوط- والذى بقيت درجاته العليا حتى الثلاثينيات من هذا القرن فى الشرق . وحتى ساعتها - على سبيل المثال - كانت المدارس التى ترعاها الدولة فى هانوى وسايجون فقط . وخلال كل الفترة الاستعمارية فيما قبل الحرب كانت الجامعة الوحيدة فى الهند الصينية فى هانوى مثلا كما تقول "فى نفس الشارع" الموجود فيه قصر

الحاكم العام(٢٥). ويشمل متسلقو تلك الدرجات العليا كل متحدثي اللغات المحلية في منطقة السيطرة الفرنسية كالفيتناميين والصينيين والخامير واللاويين وعدد ليس بالقليل من الشباب الفرنسيين في المستعمرة . وبالنسبة للمتسلقين القادمين من "ماى ثو" و"باتامبنج" و"فيناتيان" و"فينه" ، فإن معنى تواجدهم سويا يجب وأن يكون "الهند الصينية" بنفس الشكل الذى كان يجب على الطلاب متعددى اللغات والعرقيات في باتافيا وبندونج فيه أن يقرأوا معنى تجمعهم على أنه "إندونيسيا"(٢٦). وبالرغم من أن هذه الهند الصينية كانت حقيقية جدا ، فقد كانت جماعة صغيرة تخيلتها ولمدة محدودة ، ولماذا تحولت هكذا لتصبح إلى زوال بينما عاشت إندونيسيا وتعمقت؟

أولا ، كان هناك تغير ملحوظ في مسار التعليم الاستعماري ، كما كان مطبقا في الهند الصينية الشرقية قبل كل شيء منذ ١٩١٧ فصاعدا . وقد أقنع التذويب الحقيقى أو التهديد بالتذويب الفورى لنظام اختبارات كونفيشيوس الكثير والكثير من الصفوة الفيتنامية بمحاولة إيداع أبنائهم أفضل المدارس الفرنسية المتاحة لكى يضمنوا مستقبلهم الوظيفى . وقد أثارت المنافسة على الأماكن في المدارس الجيدة القليلة المتاحة رد فعل قوى بين الكولون الذين نظروا إلى تلك المدارس على أنها من حقهم وعلى أنها حكر فرنسي . وكان حل نظام حكم المستعمرة لهذه المشكلة أن يخلق تركيبة تعليمية فرانكو فيتنامية منفصلة ومستقلة ، والذى ركز تركيزا خاصا في طبقاته الدنيا على التعليم باللغة الفيتنامية بخط "كواك نجو" مع تعليم الفرنسية كلغة ثانية من خلال وسيلة الكواك نجو(٢٧) . وكان لهذا التغيير في السياسة نتيجتان متكاملتان ، فمن ناحية عجّل نشر الحكومة لآلاف الآلاف من ابتدائيات كواك نجو على نحو واضح من انتشار هذا الخط الذى اخترعته أوروبا مساعدة وبدون قصد في تحويله في الفترة ما بين ١٩٢٠ و١٩٤٥ إلى وسيلة شعبية للتعبير عن الثقافة الفيتنامية والارتباط القومي(٢٨) ؛ لأنه حتى لو كان ١٠٪ من الشعب الذى يتكلم الفيتنامية متعلما بحلول أواخر الثلاثينيات من هذا القرن فإن هذا يعد رقما غير مسبوق في تاريخ هذا الشعب . وعلاوة على ذلك كان المتعلمون على عكس الطبقة التى نالت تعليما كونفوشيوسيا مهتمين بعمق بزيادة أعدادهم بحجم كبير. وبنفس الشكل في كمبوديا" و"لاوس" ولو كان ذلك على مستوى محدود فقد طورت السلطات طباعة كتب المدارس الابتدائية باللغات المحلية وخاصة وفى البداية بالخط التقليدى وبعد ذلك باستخدام الكتابة الرومانية(٢٩). وعلى الناحية الأخرى عملت السياسة على إخراج الذين يتكلمون الفيتنامية من غير السكان الأصليين المقيمين في شرق الهند الصينية. وفى حالة

ال"خامير كروم" من كوتشين فقد عملت متعاونة مع إرادة حكومة المستعمرة لتسمح لهم أن يملكوا مدارس ابتدائية فرانكو خاميرية كالذين تشجعهم الحماية لإعادة توجيه للأعلى فى الماكونج . ولذلك كان هؤلاء الشباب الخامير كروم الذين تطلعوا إلى تعليم أعلى فى العاصمة الإدارية للهند الصينية والقلة المختارة -التى تصبو إلى التعليم فى البلد الأم فى فرنسا - اتخذوا الطريق الجانبى عبر بنوم بنه وليس الطريق الأساسى السريع عبر سايجون.

ثانيا ، وفى ١٩٣٥ طورت كلية سيسوات فى بنوم بنه لتصبح مدرسة الدولة الكاملة بوضع مواد ومناهج تعليمية متماثلة مع الليسيهات الموجودة فى سايجون وهانوى . وبالرغم من أن طلبتها كانوا فى البداية -كما كانت تقاليد الكلية - ينتمون لعائلات السينو الخاميرية والموظفين الفيتناميين المقيمين ، فقد تزايد عدد الخامير من السكان الأصليين[٣٠] ويبدو من العدل أن نقول إنه بعد ١٩٤٠ كان العدد الكبير من متحدثى الخامير من الشباب الذين حققوا تعليما فرنسياعاليا مستقرا قد حققوا ذلك فى عاصمة المستعمرة المنظمة التى بناها المستعمرون لآل نوردوم.

والثالث هو الحقيقة التى تقول إنه لا يوجد هناك أى تماثل حقيقى بين رحلات الحج الإدارية والتعليمية فى الهند الصينية . ولم يتردد الفرنسيون فى التعبير عن الرأى الذى يقول إنه لو كان الفيتناميون غير أهل ثقة وجشعين فقد كانوا مع ذلك أكثر حيوية وذكاء بشكل كبير من الخامير واللاويين الذين يشبهون الأطفال . وعلى ذلك فقد استخدموا الموظفين الفيتناميين بشكل واسع فى غرب الهند الصينية[٣١]. وكان ١٧٦,٠٠٠ فيتنامى المقيمين فى "كمبوديا" فى ١٩٣٧ - والذين كانوا يمثلون أقل من واحد بالمائة من ال١٩ مليون مواطن الذين يتكلمون الفيتنامية فى المستعمرة ، ولكنهم يمثلون ٦٪ من عدد سكان الحماية - شكلوا جماعة ناجحة لحد ما كانت الهند الصينية تمثل لها معنى ملموس لحد ما ، كما كانت تمثل للخمسين ألف الذين أرسلوا للاوس قبل ١٩٤٥ . ويستطيع الموظفون منهم بصفة خاصة - والذين يستطيعون الانتقال من مكان لآخر فى كل أجزاء المستعمرة الخمسة - أن يتوهموا أن الهند الصينية هى المسرح العريض الذى سوف يستمرون فى العرض عليه.

وكان ذلك التخيل أصعب بكثير للموظفين الخامير واللاويين بالرغم من أنه لم يكن هناك أى تحريم رسمى أو قانونى لحصولهم على فرص عمل هندية صينية كاملة ، وحتى الشباب الأكثر طموحا -الذين ينتمون لكروم الخامير الذى يتشكل من

٣٢٦,٠٠٠ (١٩٣٧) فى شرق الهند الصينية والذين كانوا يمثلون حوالى ١٠ بالمائة من الشعب الذى يتحدث لغة الخامير – وجدوا بالممارسة العملية أنه لا توجد أمامهم إلا آفاق عمل محدودة خارج "كامبوديا" ؛ لذلك فقد يجلس الخامير واللاويون إلى جانب الفيتناميين فى المدارس الفرنسية فى المرحلة الثانية والثالثة فى سايجون وهانوى ، ولكنه لم يكن من المحتمل أن يتشاركوا فى وظائف إدارية هناك . كذلك كان الحال مع الشباب من كوتونو وأبدجيان فى داكار فقد كان محتوما عليهم العودة بعد التخرج إلى "أوطانهم" التى حددها الاستعمار لهم. وبصياغة أخرى، فإذا كانت رحلات حجهم التعليمية متوجهة إلى هانوى فإن رحلاتهم الإدارية تنتهى فى بنوم بنه وفينتيانى.

وظهر من تلك التناقضات هؤلاء الطلبة الذين يتحدثون لغة الخامير والذين يذكرون بعد ذلك على أنهم أول قوميين كامبوديين ، والرجل الذى يمكن اعتباره "أبو" القومية الخاميرية وهو سون نجوك ثانه كان –كما ندرك ذلك من اسمه المصبوغ بالصبغة الفيتنامية – كروميا خاميريا تعلم فى سايجون وعمل فى وظيفة قانونية صغيرة هناك لمدة من الزمن ، ولكن فى منتصف الثلاثينيات من هذا القرن ترك باريس ؛ دلتا نيكونج ليبحث عن مستقبل واعد بشكل أكبر فى "بلوا" . وقبل أن يغادر الأمير سيسوات إلى فرنسا لاستكمال دراسته تعلم فى المدرسة الثانوية فى سايجون . وعندما عاد لبنوم بنه بعد ذلك بخمسة عشر عاماً بعد الحرب العالمية الثانية ساهم فى تأسيس الحزب الخاميرى الديموقراطى وعمل كرئيس للوزراء فى (١٩٤٦–١٩٤٧) وقد قام وزير دفاعه سون فيرساى بنفس الرحلة تقريبا وقد تخرج هوى كانتول رئيس الوزراء الديموقراطى فى سنة (١٩٥١–١٩٥٢) من مدرسة عادية فى هانوى فى ١٩٣١ أعيد بعدها إلى بنوم بنه ؛ حيث التحق بفريق تدريس ليسيه سيسوات[٣٢] . وربما يكون أفضل مثال هو شخصية ليو كيوس أول فرد فى طابور حزين من القواد السياسيين الخامير المقتولين[٣٣] . ولد فى مقاطعة باتامبانج فى ١٩٠٥ عندما كانت تحت حكم بانكوك والتحق "بمدرسة من مدارس باجودا المعدلة" المحلية قبل أن يدخل مدرسة ابتدائية هندية صينية فى مدينة باتامبانج . وفى ١٩٢١ ذهب لكلية سيسوات فى عاصمة الحماية ، وبعد ذلك إلى كلية التجارة فى هانوى وتخرج منها عام ١٩٢٧ الأول على فصله الذى يقرأ بالفرنسية . ولما كان يأمل أن يدرس الكيمياء فى بوردو فقد دخل اختبار المنحة واجتازه ، ولكن حكومة المستعمرة سدت طريقه إلى الخارج فعاد إلى باتامبانج . حيث أدار صيدلية واستمر فى ذلك حتى بعد أن استردت بانكوك المقاطعة مرة أخرى فى ١٩٤١ ، وقد أعاد الظهور فى "كمبوديا" كبرلمانى ديموقراطى بعد

سقوط اليابان فى أغسطس ١٩٤٥ . ومن الجدير بالذكر ، أنه كان فى طريقه حفيداً مباشرا للفيلولوجيين الأوروبيين الأوائل المشهورين ؛ إذ صمم لوحة مفاتيح للآلة الكاتبة بالخط الخاميرى ونشر كتابا قيما من مجلدين واسمه "لغة الخامير" أو كما تقترح صفحة العنوان الخادعة لطبعة ١٩٦٧ "اللغة الكامبودية"[٣٤] ، ولكن ظهر المجلد الأول من هذا الكتاب لأول مرة فى ١٩٤٧ عندما كان المؤلف رئيسا للجنة التأسيسية فى بنوم بنه ، ولم يظهر فى ١٩٣٧ عندما كان ما يزال يتسكع فى باتامبانج ، حيث لم تكن مدرسة سيسواث قد أنتجت دروسا بلغة الخامير بعد ، وحيث كانت الهند الصينية مجرد حقيقة واهنة . وبحلول ١٩٤٧ لم يعد متحدثو الخامير – على الأقل الكامبوديين منهم – يذهبون إلى المدارس فى سايجون أو هانوى فبدأ جيل جديد يظهر على الساحة ، جيل تمثل "الهند الصينية" له تاريخا وتمثل "فيتنام" له الآن دولة حقيقية أجنبية.

من الحقيقى أن الغزو الوحشى والاحتلال أثناء القرن التاسع عشر والذى نظمه ملوك نجوين فى "هيو" قد ترك ذكريات مؤلمة فى الخامير ومن ضمنهم هؤلاء الموجودين فى "كوتشين" والذين قدر لهم أن يصبحوا جزءاً من فيتنام . ولكن ذكريات حادة مماثلة كانت موجودة فى الهند الهولندية بين السوندانيين والجاويين ، وبين الباتاك والمينانجكباو ، وبين السيساك والباليين ، وبين التوراجا والبوجينيين ، وبين الجاويين والأمبونيين وما إلى ذلك. وحاولت ما تسمى "بالسياسة الفيدرالية" التى اتبعها فى الفترة ما بين ١٩٤٥ و١٩٤٨ الحاكم العام هوبروتس فون موك لمحاصرة جمهورية إندونيسيا الوليدة بكل دقة أن تستغل تلك الحزازات[٣٥] . ولكن بالرغم من فيض الثورات العرقية فى كل أجزاء إندونيسيا المستقلة تقريبا فى الفترة ما بين ١٩٥٠ و١٩٦٤ فقد عاشت "إندونيسيا" وقد عاشت بسبب أن باتافيا بقيت قمة التعليم حتى النهاية ، كما أن سياسات الإدارة الاستعمارية لم تجبر السوندانيين على العودة لبلادهم ، ولم يعد الباتاك إلى مكانهم الأصلى فى الأراضى المرتفعة فى شمال سومطرة . وقد كانت كل الجماعات العرقية اللغوية الكبيرة تقريبا فى نهاية الفترة الاستعمارية متعودة على فكرة وجود مسرح أرخبيلى يجب أن يلعب كل فرد دورا عليه . وعلى ذلك فقد كانت هناك ثورة واحدة فى الفترة من ١٩٥٠–١٩٦٤ تمتلك طموحا انفصاليا ، بينما كانت الثورات الباقية داخل نظام سياسى أندونيسى واحد[٣٦].

وعلاوة على ذلك ، لا يستطيع المرء أن يتجاهل الحادثة الغريبة التى تقول بأنه بحلول العشرينيات جاءت "اللغة الإندونيسية" لحالة من الوجود الواعى . ومن المفيد أن

نعرف كيف حدثت هذه الحادثة ، ولذلك تستحق بعض الحيود عن الموضوع. وقبل ذلك نكرت الحقيقة التي تقول بأن الهولنديين حكموا الهند بشكل محدود وفي فترة متأخرة فقط ، وكيف لا يكون ذلك صحيحا وقد بدأت هولندا غزواتها المحلية في بداية القرن السابع عشر ، بينما لم تعمل عمليات تعليم اللغة الهولندية بشكل جاد للإنلاندرز إلا في القرن العشرين . وبدلا من ذلك ، تطورت لغة دولة رسمية غريبة على أساس لغة مشتركة قديمة بين الجزر ، وكان تطورها بطيئا وغير منظم[٣٧] ، وكان اسمها تقريباً "لغة الملايو الخدمية" أو "لغة الإدارة الملايوية" وقد انتمت رمزيا للغة العثمانية واللغة الألمانية التي ظهرت من التشكيلات المتعددة للإمبراطورية الهابزبورجية[٣٨] . وبحلول بداية القرن التاسع عشر كانت مستقرة ثابتة في مكانها في الجهاز الرسمي . وعندما ظهرت الرأسمالية الطباعية بحجم كبير على الساحة بعد منتصف القرن فقد خرجت اللغة إلى السوق ووسائل الإعلام . وقد استخدمها أولا الصحفيون الصينيون والآسيويون الأوربيون والطابعون . وبنهاية القرن استخدمها الإنلندرز ، وبسرعة فقد انتهى الفرع الدينستي من شجرة العائلة ليحل محله فرع فردي في جزر الرياو ، وأصبحت جزيرة سنغافورا أهم تلك الجزر – ربما عن طريق الصدفة – في ١٨١٩ وبحلول ١٩٢٨ استعدت لأن تستخدمها إندونيسيا الشابة كلغة قومية ؛ لأنها قد شكلت من جيلين من القراء والكتاب المدنيين ، ومن ساعتها لم تنظر لحظة إلى الخلف .

ولكنه لا يجب في النهاية أن تخدعنا حالة إندونيسيا بغرابتها لنعتقد أنه لو كانت هولندا قوة أكبر[٣٩] ولو كانت وصلت في ١٨٥٠ بدلا من ١٦٠٠ فإن الهولندية لن تكون هي اللغة القومية . ولا شيء يفترض أن القومية الغانية ليست حقيقية مثل الإندونيسية لأن لغتها القومية هي الإنجليزية بدلا من الأشانتي ؛ فإنه دائما من الخطأ أن نعامل اللغات كما تعاملها بعض الأيديولوجيات القومية كرموز للأمة مثلها مثل العلم والزي الرسمي والرقص الشعبي وما إلى ذلك . والشيء الأكثر أهمية عن اللغة هو قدرتها على توليد مجتمعات متخيلة ، وبالتالي تضامنات معينة خاصة . وعلى أية حال فإن اللغات الاستعمارية لغات محلية ، وعلى ذلك فهي لغات محلية معينة من ضمن لغات محلية كثيرة . وإذا كانت موزمبيق الراديكالية تتكلم البرتغالية فذلك يعني أن البرتغالية هي الوسيلة التي يمكن من خلالها تخيل موزمبيق وتحد في نفس الوقت امتدادها عن الدخول في زامبيا وتنزانيا . ومن خلال هذا المنظور فإن استخدام البرتغالية في موزمبيق أو الإنجليزية في الهند ليس مختلفا في الأساس عن استخدام الإنجليزية في أستراليا أو البرتغالية في البرازيل . فليست اللغة أداة عزل . يستطيع أي إنسان من

حيث المبدأ أن يتعلم أية لغة وعلى العكس فهى أداة تجميع وضم أصلا ، ولا يحدد ذلك سوى قدرية بابل فلا يستطيع أى إنسان أن يعيش ليتعلم كل اللغات . إن اللغات الطباعية هى التى تخترع القومية وليست لغة معينة فى حد ذاتها(٤٠) ، وعلامة الاستفهام الوحيدة على لغات كالبرتغالية فى موزمبيق والإنجليزية فى الهند هى : هل تستطيع الأنظمة الإدارية والتعليمية – وخاصة التعليمية – أن تولد انتشارا كافيا سياسيا للتحدث بأكثر من لغة؟ فمنذ ثلاثين عاما تقريبا ، لم يكن أى إندونيسى يتكلم اللغة الإندونيسية كلغة أم ، وكان لكل جماعة تقريبا لغتها العرقية ، وتكلم البعض –وخاصة هؤلاء المشتركين فى الحركات القومية – الباهازا إندونيسيا أى اللغة الإندونيسية أو دينست مالايش علاوة على لغته . أما اليوم فهناك ربما ملايين من الشباب الإندونيسى ينتمون للعشرات من العرقيات اللغوية المختلفة يتكلمون الإندونيسية كلغتهم الأم .

ولم يتضح بعد ما إذا كان صحيحا أنه بعد ثلاثين عاما من الآن سيكون هناك جيل من الموزمبيقيين يتكلمون البرتغالية الموزمبيقية وحدها . ولكن فى نهاية القرن العشرين فليس من الضرورى ظهور جيل كهذا sine que not للتضامن القومى الموزمبيقى . وفى المقام الأول فإن التطورات فى تكنولوجيا الاتصال ، وخاصة الراديو والتليفزيون أعطت الطباعة حلفاء لم يكونوا متاحين فى القرن الماضى . وتستطيع الإذاعات بلغات متعددة أن تنقل المجتمع المتخيل للأميين وللشعوب التى تتكلم لغات أم متعددة . وتوجد هنا بعض التشابهات مع خلق العالم المسيحى فى القرون الوسطى من خلال التمثيلات المرئية والطبقة المتعلمة التى تتكلم أكثر من لغة . وفى المقام الثانى ، تمتلك قوميات القرن العشرين شخصية معيارية ، كما كنت أقول فهى تستطيع أن تبنى بالفعل على أكثر من قرن ونصف من التجارب الإنسانية وثلاثة نماذج أقدم للقومية . ويكون القادة القوميون بالتالى مخولين لاستخدام الأنظمة التعليمية المدنية والعسكرية المبنية على نموذج القومية الرسمية واستخدام الانتخابات وتنظيم الأحزاب السياسية والاحتفالات الثقافية المبنية على نموذج القوميات الشعبية فى أوروبا فى القرن التاسع عشر واستخدام فكرة جمهوريات المواطنين التى أخرجتها الأمريكتين للعالم سيستخدمون كل ذلك بشكله الواعى . وعلى ذلك فإن فكرة القومية فى حد ذاتها فكرة مستقرة فى كل اللغات الطباعية ولا تفترق فكرة الأممية عن الوعى السياسى.

وفى العالم الذى تمثل فيه الدولة القومية القاعدة الطاغية ، فإن ما قيل يعنى أن الناس يستطيعون تخيل الأمم بدون الجماعية اللغوية . ولن يكون ذلك بالطبع مثل روح

"نحن الأمريكيين" الساذجة ، ولكن من خلال وعى عام بما أوضح التاريخ الحديث إمكانية وجوده[٤١] ، ويبدو من المناسب في هذا السياق أن ننهى هذا الفصل بالعودة إلى أوروبا ، وأن نتدارس بسرعة أى أمة تكون فيها التعددية اللغوية مستخدمة كوسيلة لدحر دعاة نظريات القومية القائمة على اللغة .

وفى ١٨٩١ ووسط اليوبيلات الجديدة للاحتفال بالذكرى السنوية ال٦٠٠ للكونفدرالية بين شفايتس وأوبفالدن ونيدفالدن ، قررت الدولة السويسرية أن يكون ١٢٩١ تاريخ تأسيس سويسرا[٤٢] ، وقرار كهذا والذى انتظر ستمائة عام قبل اتخاذه ، له عناصره المختلفة . ويقترح أيضا أن الحداثة لا القدم تميز شخصية القومية السويسرية . ويقول هوغز إن يوبيلات ١٨٩١ تعلن ميلاد تلك القومية ، ويعلق قائلا "فى منتصف القرن التاسع عشر . . . جلست القومية بخفة على أكتاف المثقفين من الطبقات الوسطى كمدام دوستال (١٧٦٦-١٨١٧) وفوسلى (١٧٤١-١٨٢٥) وأنجيليكا كاوفمان (١٧٤١-١٨٠٧) وسيسموندى (١٧٧٣-١٨٤٢) وبنيامين كونوستانت (١٧٦٧-١٨٣٠) ولكن هل كانوا جميعا سويسريين ؟ "[٤٣] وإذا كانت الإجابة المستترة "لا" فإن أهميتها تستقى من الحقيقة التى تقول إنه فى كل مكان فى أوروبا المحيطة بسويسرا! شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر تقدم الحركات القومية القائمة على اللغات المحلية التى لعبت فيها الطبقات المتوسطة المثقفة من فيلولوجيين ورأسماليين دورا كبيرا . لماذا إذن جاءت القومية متأخرا إلى سويسرا ؟ وما الذى ترتب على ذلك التأخير بالنسبة لتشكيلها النهائى وخاصة التعددية المعاصرة فى لغاتها القومية؟

يقع جزء من الإجابة فى شباب الدولة السويسرية والتى يلاحظ هوغز بجفاف أنه يصعب تعقبها قبل ١٨١٣- ١٨١٥ "بدون مساعدة بعض المراوغة"[٤٤] ، ويذكرنا أن أول مواطنة سويسرية حقيقية وتقديم حق التصويت المباشر للذكور ونهاية المناطق الجمركية والمكوس "الداخلية" كانت إنجازات الجمهورية الهيلفيتية التى أوجدها الاحتلال الفرنسى فى عام ١٧٩٨ . وفى ١٨٠٣ فقط تضمنت الدولة أعدادا ذات حيثية من متحدثى الإيطالية بضم تيكينو . واكتسبت سويسرا المناطق الآهلة المتحدثة بالفرنسية فى فالى وجينيف ونيو شاتل من التحالف المقدس ضد فرنسا فقط فى ١٨١٥ فى مقابل الحياد ودستور محافظ جدا[٤٥] ، ونتيجة لذلك فإن سويسرا اليوم المتعددة اللغات هى نتيجة لبدايات القرن التاسع عشر[٤٦].

وعامل آخر هو تخلف البلاد الذى - بالاشتراك مع طبوغرافيتها المانعة وقلة الموارد القابلة للاستغلال - ساعد فى الحفاظ عليها من امتصاص جيرانها الأكثر قوة . ويبدو من الصعب اليوم أن نتذكر أن سويسرا كانت دولة فقيرة حتى الحرب العالمية الثانية وكان مستوى المعيشة فيها نصف مستوى المعيشة فى إنجلترا ، وكانت دولة ريفية إلى حد كبير. وفى ١٨٥٠ كان حوالى ٦ بالمائة بالكاد من الشعب يعيشون فى مناطق حضرية محدودة . وفى ١٩٢٠ ، ارتفعت هذه النسبة فقط لتبلغ ٢٧,٦ بالمائة[٤٧]. وفى خلال القرن التاسع عشر، كان مجموع الشعب عبارة عن فئة فلاحين غير متحركة فيما عدا تصدير الشباب الشجاع ليكونوا مرتزقة وحرسا باباويا مدى الحياة . ولم يكن تخلف البلاد اقتصاديا فقط بل كان أيضا سياسيا وثقافيا ؛ ف"سويسرا القديمة" والتى لم تتغير مساحتها المكانية من ١٥١٥ إلى ١٨٠٣ ، والتى كان معظم سكانها أيضا يتكلمون واحدة من اللهجات الألمانية المتعددة ، كان يحكمها تحالف واهن من حكام الكنتونات الأرستقراطيين ، "وكان السر فى استمرار الكونفدرالية لمدة طويلة هو طبيعتها المزدوجة ؛ فكانت تظهر اتحادا شعبيا كفأ فى مواجهة الأعداء الخارجيين ، ولكن بالنسبة للثورات الداخلية كانت تظهر اتحادا كفأ لطبقات الحكام المحدودة . فإذا ثار الفلاحون ، كما كانوا يفعلون ثلاث مرات أو ما شابه ذلك كل قرن ، فستوضع الخلافات جانبا وتقدم حكومات الكنتونات الأخرى يد المساعدة . وغالبا - وليس دائما - ما يكون ذلك فى الوساطة لصالح زملائهم من الحكام"[٤٨] ، ولم تكن الصورة مختلفة كثيرا عن الإمارات الصغيرة التى لا حصر لها داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة التى كانت ليشتنشتاين ، على الحدود الشرقية لسويسرا، تمثل آخر آثارها الشاذة الباقية[٤٩] إلا فى غياب المؤسسة الملكية.

إنه من المفيد للعلم أنه حتى فترة متأخرة فى ١٨٤٨ ؛ أى بعد جيلين تقريباً من ظهور الدولة السويسرية ، كانت الانقسامات الدينية القديمة بارزة سياسيا أكثر من الانقسامات اللغوية . ومن الجدير بالملاحظة أنه فى الأراضى المعروفة بأنها كاثوليكية بشكل لا يتغير كانت البروتوستنتية غير قانونية ، وفى الأراضى المعلن أنها بروتوستنتية كانت الكاثوليكية غير قانونية أيضا ، وكانت تلك القوانين تطبق بحزم . وكانت اللغة مسألة اختيار شخصى ومواءمة . وفقط بعد ١٨٤٨ وفى الانجراف وراء تيار الانقلابات الثورية فى كل أوروبا والانتشار العام للحركات القومية الداعية لفرض اللغات المحلية ، أخذت اللغة مكان الدين ، وانقسمت الدولة إلى مناطق لغوية محددة لا تغيير فيها ، وأصبح الدين الآن أمرا خاضعا للاختيار الشخصى .[٥٠]

وفى النهاية ، وفى دولة صغيرة كهذه ، يفسر وجود العديد من اللهجات الألمانية -التى قد تكون أحيانا غير مفهومة لبعضها البعض - تأخر وصول الرأسمالية الطباعية والتعليم الحديث الموحد إلى الكثير من المجتمعات الريفية السويسرية . وقد كانت اللغة العليا ، أى الألمانية الطباعية حتى وقت قريب ، فى مكانة اللغة الرسمية مثل ararisch deutsch و dienstmaleisch ؛ وعلاوة على ذلك ، يلاحظ هوغز أنه يتوقع من كل موظف "عال" اليوم أن يعرف لغتين فدراليتين ، ويفترض ذلك أن هذه الكفاءة ليست مطلوبة من المعاونين . وقد أكد نقطة مماثلة بشكل غير مباشر ، القرار الفدرالى فى ١٩٥٠ ، والذى يصر على أن "السويسرى الألمانى المتعلم قادر على العمل بالفرنسية كما هى الحال بالنسبة للسويسريين الإيطاليين المتعلمين"(٥١) ، وعلى ذلك فإننا أمام موقف لا يختلف فى جوهره عن الموقف فى موزمبيق ، ألا وهو وجود طبقة سياسية تتكلم أكثر من لغة فوق شعوب متعددة تتكلم لغة واحدة . ولكن هناك اختلاف واحد بين الموقفين ألا وهو أن "اللغة الثانية" لغة جار قوى وليست لغة حاكم استعمارى سابق.

ومع ذلك ، وفى ظل الحقيقة التى تقول إنه فى ١٩١٠ كانت اللغة الأم لحوالى ٧٣ بالمائة من الشعب هى الألمانية ولغة ٢٢ بالمائة كانت الفرنسية ولغة ٤ بالمائة كانت هى الأيطالية ولغة ١ بالمائة كانت الرومانشية -وتغيرت تلك النسب تغيراً طفيفاً جداً عبر السنين- فربما يبدو من المدهش أنه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر أى فى فترة القومية الرسمية لم يحاول أحد تبنى الألمنة ، وبالتأكيد وحتى ١٩١٤ كان هناك تعاطف كبير مع الألمانية فكانت الحدود مفتوحة تماماً بين ألمانيا وسويسرا الألمانية وتحركت التجارة والاستثمارات كما تحرك الأرستقراطيون والحرفيون جيئة وذهابا بمنتهى الحرية . ولكن سويسرا كانت أيضا متاخمة لقوتين أوروبيتين أخريين كبيرتين وهما فرنسا وإيطاليا ، وكانت المخاطر السياسية للألمنة واضحة ، وكان التساوى القانونى بين الألمانية والفرنسية والإيطالية -لذلك- الوجه الآخر للحيادية السويسرية(٥٢).

وتثبت كل الدلائل السابقة أن القومية السويسرية تفهم أفضل ما تفهم كجزء من "الموجة الأخيرة" . وإذا كان هوغز محقا فى التأريخ لقيامها عام ١٨٩١ ؛ فهى ليست أقدم من القومية البورمية والإندونيسية إلا بحقبة واحدة . وبكلمات أخرى فقد ظهرت فى تلك الفترة من تاريخ العالم التى كانت فيها القومية هى السائدة دوليا ، والتى كان ممكنا فيها أن تصاغ عملية التقويم بشكل أكثر تعقيداً عما سبق . وإذا كان التركيب

السياسي والاقتصادي ، الاجتماعي المحافظ المتخلف في سويسرا قد "أجل" ظهور القومية (٥٣) فإن مؤسساتها السياسية قبل الحديثة لم تكن مؤسسات حكم أسرات أو ملكية قد ساعدت على منع مزايدات القومية الرسمية -وقارن بذلك حالة سيام التي ناقشناها في الفصل السادس – وفي النهاية ، وكما كانت الحال في أمثلة جنوب شرق آسيا ، فإن ظهور القومية السويسرية عشية ثورة الاتصالات في القرن العشرين جعل من السهل والعملي تمثيل المجتمع المتخيل بطرق لا تتطلب وحدة لغوية .

وقد يكون من المفيد ختاما أن نعيد النقطة العامة المثارة في هذا الفصل . فإن "موجة القوميات الأخيرة" التي كانت معظمها في الأراضي الاستعمارية في آسيا وأفريقيا كانت في أصولها رد فعل على الإمبريالية حديثة الأسلوب ، والتي شملت العالم كله والتي مكن من ظهورها إنجازات الرأسمالية الصناعية . وكما يوضح ماركس الأمر بأسلوبه الفريد "إن الحاجة لأسواق تتوسع بشكل ثابت لمنتجاتها طاردت البرجوازية فوق كل سطح الأرض"(٥٤) ، ولكن الرأسمالية ساعدت -عن طريق نشرها الطباعة- على خلق قوميات شعبية مبنية على أساس اللغة المحلية في أوروبا ، والتي قوضت أساس حكم الأسرات القديم بدرجات مختلفة، وحثت كل أسرة حاكمة على جعل نفسها عادية (في مقابل تأليه الأسر الحاكمة) . و قد أدت القومية الرسمية – التي هي مزيج بين مبادئ القومية الجديدة وحكم الأسرات القديم كالإمبراطورية البريطانية بدورها – ما يمكن أن نسميه ، لأغراضنا هنا ، "بالترويس" في المستعمرات خارج أوروبا . وتشابكت تلك النزعة الأيديولوجية بحذق مع الضرورات العملية . وكان من الصعب أن تحكم حفنة من القوميين إمبراطوريات القرن التاسع عشر ؛ لأنها كانت كبيرة جدا ومترامية الأطراف . وعلاوة على ذلك فقد عددت الدولة وظائفها -متماشية مع الرأسمالية – بسرعة في كل من الدولة الأم والمستعمرات . وقد ولدت تلك القوى مجتمعة نظاما مدرسيا "ترويسيا" كان الغرض منه جزئيا إنتاج الكوادر التحتية المطلوبة لأنظمة الدولة والهيئات الإدارية . وقد خلقت تلك الأنظمة المدرسية الموحدة والمركزية رحلات حج جديدة جدا ولكل منها روما الخاصة في عاصمة كل مستعمرة . وذلك لأن الأمم المختبئة في قلب الإمبراطوريات لا تسمح بصعود داخلي أكثر من ذلك . وغالبا – ولكن ليس دائما بأية حال من الأحوال- ما توازت رحلات الحج التعليمية تلك أو قلدت في المجال الإداري . ويقدم هذا التشابك بين رحلات الحج التعليمية والإدارية المعينة الأساس الأرضي "للمجتمعات المتخيلة" الجديدة ، والتي يستطيع السكان الأصليون فيها أن يشعروا بأنهم "أبناء قومية واحدة" . وكان توسع

الدولة الاستعمارية التي دعت "السكان الأصليين" إلى المدارس والوظائف وكذلك توسع الرأسمالية الاستعمارية التي أخرجتهم من مجالس الإدارة يعني أن المتحدثين الرسميين الرئيسيين الأوائل باسم القومية الاستعمارية -بدرجة غير مسبوقة - كانوا مثقفين يتحدثون أكثر من لغة منعزلة وغير متصلة بالبرجوازية المحلية الثابتة.

ولأنهم مثقفون يتكلمون أكثر من لغة وقبل كل شيء لكونهم مثقفين فى أوائل القرن العشرين فقد اطلعوا داخل الفصل وخارجه على نماذج من القوميات والتقويم والقومية خالية من التجارب المضطربة الفوضوية فى أكثر من قرن من التاريخ الأمريكى والأوروبى . وساعدت تلك النماذج بدورها على تشكيل آلاف من الأحلام غير الكاملة ، ونسخت دروس القومية الكريولية والرسمية القائمة على اللغات المحلية وحورت وحسنت بأشكال متعددة . وفي النهاية ، وكما حولت الرأسمالية بسرعة متزايدة وسائل الاتصال المادى والعقلى ، فقد وجدت طبقات المثقفين وسائل لتتخطى الطباعة فى الدعايا للمجتمعات المتخيلة ليس فقط فى عقول الجماهير الأمية بل وفى عقول جماهير متعلمة تقرأ لغات مختلفة.

## الهوامش

١) لم يكن ذلك بالطبع عن طريق الموظفين فقط ، مع أنهم كانوا المجموعة الأساسية . فانظر على سبيل المثال إلى جغرافية "نولى مى تانجير" والكثير من الروايات القومية الأخرى . بالرغم من أن بعض الشخصيات المهمة فى نص ريزال كانت إسبانية وبعض الشخصيات الفلبينية سافرت إلى إسبانيا خارج عالم الرواية فقد كانت دائرة السفر لأى من الشخصيات محدودة بما جاء بعد ذلك بأحد عشر عاما من تاريخ نشر الرواية وبعد عامين من القضاء على المؤلف ليسمى جمهورية الفلبين .

٢) وسنقدم مثلا واحدا . فى ١٩٢٨ كان هناك حوالى ٢٥٠,٠٠٠ من الإنديجين فى جدول رواتب الهند الشرقية الهولندية والذين كانوا يشكلون ٩٠ بالمائة من موظفى الدولة . وكانت المهايا والمعاشات المتعارضة للهولنديين والسكان الأصليين تمثل مجتمعة حوالى ٥٠ بالمائة من مصروفات الدولة . انظر Amry Van-denbosch, The Dutch East Indies, pp.171-73 ومع ذلك فقد كان حجم الهولنديين تسعة أضعاف حجم الإنجليز فى الدولة البريطانية غير الأصلية فى الهند فى القاعدة الوظيفية.

٣) وحتى فى الهند الهولندية المحافظة جدا كان عدد السكان الأصليين الذين يحصلون على تعليم ابتدائى على النظام الغربى ارتفع من معدل ٢,٩٨٧ بين عامى ١٩٠٠-١٩٠٤ إلى ٧٤,٦٩٧ فى ١٩٢٨ بينما ارتفع عدد هؤلاء الذين تلقوا تعليما ثانويا على النظام الغربى فى نفس المدة الزمنية من ٢٥ إلى٦,٤٦٨ " - Ka-hin, Nationalism, p.31

٤) وأخذا عن أنتونى برنيت ، فقد "سمح للمثقفين أن يقولوا لمن يتحدثون نفس اللغة المحلية: "إننا" يمكن أن نكون "مثلهم"."

٥) وأول ظهور ذلك كان فى De Expers فى الثالث عشر من يوليو ١٩١٣ ، ولكنه ترجم بسرعة إلى "الإندونيسية" ونشر فى الصحف المحلية . وكان عمر سواردى ساعتها ٢٤ عاما ، وكان متعلما جدا وأرستقراطيا تقدميا .وقد اشترك فى ١٩١٢ مع الدكتور الجاوى تجيبتو مانجونكوسومو والآسيوى الأوروبى إدوارد يواز ديكر ليؤسسوا الحزب الهندى ، أول الأحزاب السياسية فى المستعمرة . ولدراسة قصيرة ولكنها نافعة عن سواردى انظر Savitri Scherer, 'Harmony and Dissonance: Early Nationalist Thought in Java', chapter2 ويقدم الملحق الأول ترجمة إنجليزية للمقال المشهور الذى أخذ منه هذا النص.

٦) لاحظ العلاقة التعليمية هنا بين المجتمعات "المتخيلة" والمجتمعات "الوهمية"

٧) وبمعنى آخر : كان متفقا على أن الاحتفالات فى ١٩١٣ تعبير عن القومية الرسمية ، وكان "التحرير القومي" المحتفل به فى الواقع استعادة جيوش التحالف المقدس المنتصرة لبيت أورانج للحكم ولم يكن احتفالا بتأسيس الجمهورية الباتافية فى ١٧٩٥ وسرعان ما انفصل نصف الأمة المحررة ليؤسس مملكة بلجيكا فى ١٨٣٠، ولكن لمعان "التحرير القومي" كان بالتأكيد ما تشربه سواردى فى مدرسته الاستعمارية .

٨) 'Marxism and the National Question,' p.41.

٩) سيكون تركيزنا هنا على المدارس المدنية . ولكن نظائرها العسكرية كانت مهمة أيضا فى غالب الأحيان . وقد تطلب الجيش النظامى الذى يحترفه الضباط – والذى كانت بروسيا رائدته فى أول القرن التاسع عشر– هرما تعليميا أكثر تعقيدا ، وفى بعض الأحيان لم يكن أكثر تخصصا من معادله المدنى . وقد لعب الضباط الشباب الذين أنتجتهم الأكاديميات العسكرية الجديدة دورا عظيما فى تطوير القومية فى غالب

الأحيان . وأحد رموز ذلك هى حالة الميجور شوكوما نزوجو الذى أحكم انقلاب الخامس عشر من يناير ١٩٦٦ فى نيجيريا . وقد كان "إيبو" مسيحى وفرد بين أول مجموعة من الشباب النيجيريين الذين أرسلوا للتدريب فى ساندهورست ليحولوا القوات المرتزقة المحلية التى يترأسها ضباط بيض إلى جيش وطنى أثناء إحراز نيجيريا لاستقلالها فى ١٩٦٠ . فإذا ذهب إلى ساندهورست مع بريجادير أفريقا الذى أطاح بحكومته هو الآخر فى ١٩٦٦ فإن كلا منهما عاد لموطنه الاستعمارى . ومن الدلائل القوية على قوة النموذج البروسى ، أنه استطاع أن يقود وحدات الهاوسا المسلمين فى اغتيال الساردونا فى اسكوتو وآخرين من الأرستقراطيين الهاوسا المسلمين ، وبالتالى فى تحطيم حكومة أبو بكر تافاوا بالوا التى يسيطر عليها الهاوسا المسلمون . وعلامة القومية التى ولدتها المدارس الاستعمارية – والتى لا تقل غرابة – هى أنه أكد لمواطنيه عبر راديو كادونا " لن تخجلوا بعد اليوم من أن تقولوا إنكم نيجيريون" وهذا الاقتباس مأخوذ من Anthony H.M. Kirk- Greene, Crisis and Conflict in Nigeria: A Documentary Source book , P. 126. ولم تكن القومية منتشرة بعد فى نيجيريا بشكل كاف ليفسر انقلاب نزوجو القومى بسرعة على أنه مؤامرة إيبوية . ومن هنا جاءت الاضطرابات العسكرية فى يوليو ومذبحة الإيبو فى سبتمبر وأكتوبر وانفصال بيافرا فى مايو ١٩٦٧ ، وانظر فى ذلك Robin Luckham, The Nigerian Military,

١٠) وكانت الفكرة غير الواردة فى المدارس التقليدية الإسلامية بأن الطالب أكبر من أن يكون فى فصل كذا ، قد أصبحت مسلمة غير واعية فى المدارس الاستعمارية على النظام الغربى .

١١) كانت القمة فى النهاية – بالطبع – هى "هوج" و"أمستردام" و"ليدن" ، ولكن حفنة قليلة هى التى كانت تحلم بالدراسة هناك .

١٢) كانت مدارس القرن العشرين مدارس مشتركة لأنها دنيوية ، ولكن الذكور كانوا الأغلبية الكاسحة . ومن هنا جاءت كل علاقات الحب – وأحيانا كثيرة الزيجات التى تخطت كل الخطوط التقليدية- نتيجة الاشتراك فى دكة الفصل .

١٣) لم ير سوكارنو أبدا "إيريان الغربية " التى حارب من أجلها بشراسة حتى جاوز الستين . وهناك – كما كان الحال مع الخريطة فى الفصل – نرى الخيال يتسرب إلى الحقيقة .

١٤) قارن بـ"المولدين" أو "الزنوج" الذين كانوا يستطيعون الاجتماع فى أى مكان على سطح الأرض خارج المملكة المتحدة ، ابتداء من "كاليه" ..

١٥) وللمزيد عن أصول هذه المدرسة المشهورة وتطوراتها انظر Abdou Moumouni, L'Education en Afrique, pp.41-49. وللمزيد عن قيمتها السياسية انظر Ruth Schachter Morgenthau. Political Parties in French-Speeking West Africa, pp.12-14,18-21. ولم يكن لها فى البداية اسم . وكان مقرها فى سانت لويس وانتقلت بعد ذلك إلى جورى خارج داكار فى ١٩١٣ وبعد ذلك سميت باسم ويليام مارلو بونتى الحاكم العام الرابع لغرب أفريقيا الفرنسية من ١٩٠٨–١٩١٥ وأخبرنى سيرج ثيوم أن اسم ويليام بالمقارنة بجليوم كان مشهورا لمدة طويلة فى المنطقة حول بوردو . وهو محق طبعا فى إعزاء هذه الشهرة إلى الروابط التاريخية مع إنجلترا التى أوجدتها تجارة الخمور . ولكنه يمكن أن تبدو هذه الشهرة راجعة إلى الحقبة التى كانت بوردو فيها ما تزال جزءا لا يتجزأ من المملكة التى تحكم من لندن.

١٦) ولا يبدو أنه قد كان هناك شيء مماثل لذلك فى غرب أفريقيا البريطانى إما لأن المستعمرات البريطانية لم تكن متلاصقة . وإما لأن لندن كانت غنية وليبرالية بدرجة كافية لبناء مدارس ثانوية فى نفس الوقت تقريبا فى كل المستعمرات الكبيرة أو بسبب محلية المنظمات التبشيرية البروتوستانتية المنافسة .

وأصبحت مدرسة أكتوموتا – وهى مدرسة ثانوية أسستها الحكومة الاستعمارية فى أكرا عام ١٩٢٧ – بسرعة قمة أساسية فى هرم التعليم فى الجولد كوست . وبعد الاستقلال كانت هى المدرسة التى تعلم أبناء الوزراء فيها كيف يخلفون آباءهم ، وكانت المدرسة الثانوية فى مفانتسيبيم قمة منافسة لها ؛ حيث كانت صاحبة امتياز السبق ، فقد أسست فى ١٨٧٦ ، وكان عيبها مكانها فقد كانت فى كيب كوست وكانت نصف معزولة عن الدولة . أنا مدين بهذه المعلومات لمحمد خامباس .

١٧) قد أدى مع أشياء أخرى إلى حزب شيوعى هندى صينى لمدة جيل واحد من ١٩٣٠–١٩٥١ اشترك فيه الشباب الذين كانت لغتهم الأم هى الفيتنامية واللاوية أو الخامير. أما اليوم فإن تشكيل هذا الحزب يعنى فقط التعبير عن "التوسع الفيتنامى القديم". وفى الواقع فقد أنشأه النظام الشيوعى من النظام التعليمى الفرنسى أو الإدارى بدرجة أقل .

١٨) وقد نوقشت هذه النظرية بشكل واسع ناجح فى Gail Paradise Kelly, 'Franco-vietnames Schools, 1918 to1938'. ولسوء الحظ ، يركز المؤلف تركيزا كاملا على الشعب الذى يتكلم الفيتنامية فى الهند الصينية .

١٩) أستخدم هذا الاصطلاح السخيف ربما لأركز على الأصول الاستعمارية لتلك الوحدات ، فقد جمعت لاوس من عدد من الإمارات المتنافسة بعد استبقاء أكثر من نصف الشعب الذى يتكلم اللاوية فى سيام ، ولم تطابق حدود كمبوديا أى امتداد أرضى تاريخى معين لمملكة ما قبل الاستعمار ، ولا تطابق توزيع الشعوب التى تتكلم لغة الخامير وانتهى مئات الآلاف من هؤلاء الناس محاصرين فى "كوتشين" منتجين بمرور الزمن هذا المجتمع المميز المسمى بالخامير كروم ، وهم خامير أسفل النهر .

٢٠) وقد تابعوا هذا الهدف بإنشاء مدرسة عليا فى بنوم بنه فى الثلاثينيات من هذا القرن ، وكانت مدرسة دينية يحضرها الرهبان الذين يتكلمون اللاوية والخامير ، ويبدو أن محاولة تحويل عيون البوذيين عن بانكوك لم تنجح تماما . وفى ١٩٤٢ – أى بعد وقت قصير من إعادة السيطرة التايلندية على جزء كبير من شمال كمبوديا بمساعدة اليابان – ألقى الفرنسيون القبض على أستاذ مهيب فى تلك المدرسة لحيازة مواد تعليمية تايلندية "مدمرة" وتوزيعها . وفى الغالب فإن هذه المواد التعليمية كانت بعض النصوص المدرسية القومية التى أصدرها حكم المشير بليك فيبونسونجكهرام المعادى لفرنسا بسفور فى الفترة ما بين (١٩٣٨–١٩٤٤)

٢١) David G. Marr, Vietnamese tradition on Trail,1920-1945, p.146. ومما لا يقل إزعاجا تلك الترجمات الصينية المهربة للكتاب الفرنسيين المثيرين للمتاعب من أمثال روسو Kelly, 'Franco-Vietnamese Schools', p.19.

٢٢) ويعزى هذا النص فى شكله النهائى عادة إلى المعجمى الموهوب أليكسندر دى رودى الذى نشر فى ١٦٥١: Dictionarium Annamiticum Lasitanum et Latinum.

٢٣) كان معظم الموظفين الفرنسيين فى المستعمرات فى أواخر القرن التاسع عشر مقتنعين أنه لكى يحققوا نجاحا دائما فى المستعمرات يجب عليهم أن يقلصوا الأثر الصينى لأقصى حد ، بما فى ذلك نظام الكتابة . وغالبا ما كان المبشرون يرون أن الطبقة المتعلمة الكمفشيوسية هى العقبة الوحيدة أمام تحويل فيتنام الكاثوليكية . ومن هنا ، وفقا لوجهة نظرهم ، كان محو اللغة الصينية يعنى فى نفس الوقت عزل فيتنام عن تراثه وتحييد الصفوة التقليدية" Marr, Vietnamese Tradition, p.145. ويقتبس كيلى من أحد كتاب المستعمرة قوله : "على ذلك فإن تدريس كوك نجو وحدها سوف يؤدى إلى نتيجة توصيل الكتابة والأدب

والفلسفة الفرنسية ، والتى نريدها وحدها أن تصل إلى الفيتناميين . ويعنى ذلك الأعمال التى نراها نافعة لهم وسهلة التقبل هى النصوص التى نكتبها بالكوك نجو." 'Franco-Vietnamese Schools," p.22.

٢٤) انظر المرجع السابق ص ١٤ و١٥ . وقد حث الحاكم العام ألبير سارو واضع قانون التعليم العام فى ١٩١٧ الطبقات العريضة والمنخفضة من شعب الهند الصينية على "تعليم بسيط لا يتعدى الأساسيات ويسمح للطفل بمعرفة كل ما هو نافع له ومفيد فى عمله المتواضع كفلاح أو صانع ؛ ليعرف ظروف حياته الطبيعية والاجتماعية". المرجع السابق ص ١٧

٢٥) وفى ١٩٣٧ قيد ٦٣١ طالب . وكان ٥٨٠ منهم فى كليتى الحقوق والطب . المرجع السابق ص ٧٩ وانظر أيضا ص ٦٩-٧٩ للمزيد عن التاريخ الغريب لتلك المؤسسة التى أنشئت فى ١٩٠٦ وأغلقت فى ١٩٠٨ وأعيد فتحها فى ١٩١٨ ولم تكن أكثر من كلية للتدريب حتى نهاية الثلاثينيات .

٢٦) ولأننى سأركز هنا على الخامير والفيتناميين ، فقد يكون هذا هو المكان المناسب لإلقاء الضوء باقتضاب على شخصية لاوية كبيرة . فقد حضر كيسوم فومفيهان رئيس وزراء لاوس الحالى فى كلية الطب فى جامعة هانوى فى أواخر الثلاثينيات وتخرج رأس الدولة الأمير سوفانوفونج من مدرسة ألبير سارو فى هانوى قبل أن يحصل على شهادة الهندسة من فرنسا الدولة الأم . وتخرج أخوه الأكبر الأمير فتسارث راتانافونجسا الذى ترأس حكومة لاوس الحرة القصيرة العمر المناهضة للاستعمار فى فيتنام من أكتوبر ١٩٤٥ إلى أبريل ١٩٤٦ فى شبابه من مدرسة شاسيلو لوبا فى سايجون . وقبل الحرب العالمية الأولى كانت أعلى مؤسسة تعليمية فى لاوس هى المدرسة العليا. انظر Joseph J. Zasloff, Pathet Lao, pp. 104-105' and"3349" [pseudonym of Phetsarath Ratanavongsa], Iron Man of Laos, pp.12 and 46 .ومن الدال فى اعتقادى أن فيتساراث فى كلامه عن أيام دراسته الأخيرة فى باريس تكلم بشكل دائم وغير واع عن زملاء فصله المعروفين من اللاويين والخامير والفيتناميين على أنهم "الطلبة الهنود الصينيون". انظر المرجع السابق ص ١٤ و١٥

٢٧) وعلى ذلك فقد أسست أقسام جانبية للسكان الأصليين فى المدارس المتحدة سابقا وهى شاسلو لوبا وألبير سارو فى عام ١٩١٧-١٩١٨ وتحولت أقسام السكان الأصليين بمرور الزمن إلى مدرسة "بترو كي" ومدرسة المستعمرة. انظر المرجع السابق ص٦٠ - ٦٣ ، ولكن فئة محدودة من السكان الأصليين المحظوظين استمرت فى الحضور فى المدارس الفرنسية الأصلية ، فقد شرف الشاب نورودوم سيهانوك مدرسة شاسلو لوبا بالدراسة فيها . بينما درس القلة من الفرنسيين وغالبيتهم من الآسيويين الأوربيين والسكان الأصليين - الذين يتمتعون بنفس الحقوق القانونية الفرنسية- فى مدرسة بترو كى والمؤسسة المشابهة لها فى هانوى .

٢٨) ويلاحظ مار فى العشرينيات أنه "حتى أكثر أعضاء الطبقة المثقفة تفاؤلا -وهى الطبقة المرتبطة بكوك نجو- لم يكن يستطيع أن يخمن أنه بعد حقبتين فقط سيستطيع مواطنو جمهورية فيتنام الديموقراطية إدارة كل الشؤون الهامة من سياسية وعسكرية واقتصادية وعلمية وأكاديمية بلغة الحديث الفيتنامية المرتبطة بأسلوب كوك نجو". Vietnamese tradition, p.150كما كان الأمر أيضا مفاجأة غير سارة للفرنسيين .

٢٩) يبدو من المفيد أن نعرف أن واحدة من أوائل المسائل التى أثارها القوميون الخامير الأوائل فى أواخر الثلاثينيات من هذا القرن كانت تهديد ما يسمى بتحويل كتابة الخامير إلى خط الكوك نجو والذى تبنته السلطات الاستعمارية.

٣٠) ولم يتبع النظام بشكل مباشر فى فيتنام ، فيقول "فوي" إنه فى الثلاثينيات من هذا القرن تخرج ٥٢ لاوى فقط من كلية بافى - والتى يسميها على سبيل الخطأ بالمدرسة - فى مقابل ٩٦ فيتنامى . Loas, p.45.

٣١) من الممكن أن يكون هذا التدفق قد توازى مع تأسيس نظام المدارس الفرنسية الفيتنامية فى أنه حاد بالفيتناميين عن منافسة الفرنسيين فى المناطق الأكثر تقدما فى شرق الهند الصينية . وفى ١٩٣٧ ، كان ٣٩,٠٠٠ أوروبى يعيشون فى كوتشين وأنام وتونكين ، وكان ٣,١٠٠ منهم فقط يعيشون فى كمبوديا ولاوس معا . Marr, Vietnamese Tradition, p.23.

٣٢) وقد أمدنى ستيف هيدر – بكل عطف – بمعلومات عن تاريخ حياة هذه الشخصيات .

٣٣) وقد مات فى ١٩٥٠ فى هجوم بالقنابل على المقر الرئيسى للحزب الديموقراطى دبرته يد مجهولة يحتمل أن تكون يد الأمير.

٣٤) نشره الأصدقاء الأحرار فى بنوم بنه . وهو خداع لأن النص كله مكتوب بلغة الخامير. وكل تفاصيل سيرة لو كيوس الحياتية المستقاة من مجلد احتراقه فى ١٩٦٤ ، وصلت إلى من ستيف هيدر.

٣٥) انظر Kahin, Nationalism, chapter 12; anthony reid, The Indonesian National Revolution, 1945-1950. chapter 6; and Henri Alers, Om een Rode of groen Merdeka, passim.

٣٦) كان الاستثناء هو الجمهورية الفاشلة فى جنوب ملقة . وقد وظف الأمبونيز الذين دخلوا فى المسيحية منذ زمن طويل فى الجيش الاستعمارى القامع ، وحارب الكثيرون تحت لواء "فان موك" ضد الجمهورية الأندونيسية الثورية الوليدة . وبعد اعتراف هولندا باستقلال أندونيسيا فى ١٩٥٠ ، كان لهم ·· من الحق فى توقع مستقبل غير سعيد .

٣٧) انظر الموضـوع القـيم عند John Hoffman, 'A foreign Investment: Indies Malay to 1902,' Indonesia,27. )April 1979) pp.65-92

٣٨) "أسس الجيش شيئا كالفريق اللا قومى والذى عاش أعضاؤه – حتى فى حياتهم الخاصة – بشكل عادى منفصل عن بيئتهم القومية ، وتكلموا فى الغالب لغة خاصة بهم هى اللغة الألمانية الرسمية ، كما أطلق عليها ممثلو الألمانية الأدبية ساخرين ، ويعنون بذلك أنها خليط لغوى غريب لا يتبع قواعد النحو بشكل جاد." Jaszi, The Dissolution, p.144.

٣٩) ولم يكن بالمعنى الواضح فقط . ولأن هولندا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت تمتلك مستعمرة واحدة لكل النوايا والأغراض كانت مفيدة للغاية وضخمة لدرجة أنه من المفيد أن تدرب موظفيها فى "دينستال" واحد غير أوروبى . وبمرور الزمن ، ظهرت مدارس متخصصة وكليات فى البلد الأم لإعداد موظفى المستقبل لغويا . وفى حالة الإمبراطوريات المتعددة القارات كالإمبراطورية البريطانية لا تكفى دينستال محلية واحدة .

٤٠) وبعد كلام مار عن التطور اللغوى فى شرق الهند الصينية كلاما مفيدا جدا فى هذه النقطة . ويقول إنه فى ١٩١٠ "اعتقد معظم المتعلمين الفيتناميين أن اللغة الصينية أو الفرنسية أو الاثنتين معا وسائل أساسية فى التواصل الراقى" .Vietnamese Tradition, p.137، ولكن بعد ١٩٢٠ وكنتيجة جزئية لترقية الدولة لكوك نجو –التى هى كتابة الصوتية – تغيرت الأحوال بسرعة . وفى هذا الوقت "نمى الاعتقاد الذى يقول بأن الفيتنامية المتحدثة عنصر مهم وربما أساسى فى الهوية القومية . وحتى المثقفين الذين كانوا يتكلمون الفرنسية فى بيوتهم أكثر من لغاتهم الأم ، أدركوا أهمية الحقيقة التى تقول بأن أكثر من ٨٥ بالمائة من مواطنيهم يتكلمون نفس اللغة." ص ١٢٨ . وقد أدركوا ساعتها تمام الإدراك دور التعليم الجماعى فى تطوير

الدول القومية فى أوروبا واليابان . ولكن مار يوضح أيضا أنه لفترة طويلة من الزمن لم يكن هناك تعادل واضح بين التفضيل اللغوى والموقف السياسى "ولم يكن دفع اللغة الفيتنامية الأم شيئا وطنيا كما لم يكن تطوير اللغة الفرنسية تعاونيا". ص ١٥٠

٤١) استخدم لفظ "تستطيع" لأن الإمكانية كانت – وما زالت فى – كثير من الأحيان – مرفوضة كما هو واضح . وفى حالات كباكستان القديمة على سبيل المثال فإن التفسير ليس الجماعية الثقافية العرقية ، ولكنها رحلات الحج المبتورة.

٤٢) Christopher Hughes, Switzerland, p.107. هذا النص الممتاز الذى يبدى سيتون واتسن إعجابه به ، وهو على حق ، هو أساس المناقشة التالية .

٤٣) المرجع السابق ص ٢١٨ . والتواريخ من وضعى الخاص .

٤٤) المرجع السابق ص٨٥

٤٥) زائد أواجواى وسانت جالون وجريسون ، والأخيرة تحمل أهمية خاصة فحتى الآن هى المكان الذى مازالت فيه الرومانشية حية ، وأكثر اللغات سويسرية فى اللغات الرسمية القومية . ومع ذلك ، فقد تحققت هذه المكانة فقط فى ١٩٢٧ المرجع السابق ص ٥٩ و ٨٥

٤٦) ويمكننا أن نقول فى عجالة ، أن مدام دوستال لم يطل بها العمر لتشهد ميلادها . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن عائلتها –كما كانت عائلة سيسموندى – قد جاءت من جنيف التى كانت دويلة صغيرة خارج سويسرا حتى ١٨١٥ وليس من العجب الشديد إذن ، أن جلست القومية السويسرية بخفة على أكتافهم .

٤٧) المرجع السابق ص١٧٣ و٢٧٤ . كان يجب على كل "طبقة متوسطة مثقفة" فى القرن التاسع عشر أن تكون صغيرة جدا.

٤٨) المرجع السابق ص ٨٦

٤٩) وميز غياب الملكيات أيضا الهنزياتى وهو ائتلاف سياسى متفكك يصعب أن تضفى عليه صفة التدويل أو التقويم .

٥٠) المرجع السابق ص ٢٧٤

٥١) المرجع السابق ص ٥٩ – ٦٠

٥٢) ولم تخف ترقية الرومانشية فى ١٩٢٧ الحسابات الأصلية .

٥٣) كان التركيب الاجتماعى المجر متخلفا أيضا . ولكن الأرستقراطيين المجريين جلسوا وسط إمبراطورية ضخمة متعددة الأعراق وتحت حكم الأسرات التى شكلت فيها جماعتهم اللغوية المزعومة مجرد أقلية ولو كانت مهمة جدا . ولم تكن الفئة الجمهورية الأرستقراطية الحاكمة الصغيرة فى سويسرا مهما كانت صغيرة مهددة بهذا الشكل .

٥٤) Marx and Engels, The Communist Manifesto, p.37. ومن غير ماركس يصف هذه الطبقة التى غيرت العالم بأنها "مطاردة" .

## الفصل الثامن

# القومية والعنصرية

حاولت في الفصول السابقة أن أرسم الخطوط العريضة التى أصبحت الأمة من خلالها متخيلة فأصبحت نموذجا تم تكييفه وتعديله . وكان ذلك التحليل بالضرورة معنيا - بالدرجة الأولى - بالتغير الاجتماعى والأشكال المختلفة للوعى . ولكن من المشكوك فيه ما إذا كان التغير الاجتماعى والتحول فى الوعى فى حد ذاتهما يفسران بشكل كاف الارتباط الذى تشعر به الشعوب تجاه اختراع خيالها ، أو - ونحن هنا نطرح سؤالا سُئل فى أول الكتاب - لماذا يكون الناس مستعدين للموت من أجل تلك الاختراعات ؟

وفى زمن يبدو فيه من المألوف للمثقفين التقدميين العالميين -وخاصة فى أوروبا- أن يصروا على الشخصية الباثولوجية للقومية وجزورها فى الخوف وكره الآخر وتشابهها مع العنصرية[1] ، فإنه من المفيد أن نذكر أنفسنا أن القوميات تلهم الحب ، وتوحى أيضا بالحب العميق المضحى بالذات . وتوضح نواتج الثقافية للقومية - الشعر والقص المنثور والموسيقى والفن التشكيلى - هذا الحب بجلاء فى آلاف من الأشكال والأساليب المختلفة . وعلى الناحية الأخرى فإنه من النادر حقا أن تجد نتاجات قومية مماثلة تعبر عن الخوف والكره[2] ، وحتى فى حالة الشعوب المستعمرة التى تملك كل حق فى الشعور بالكره تجاه الحاكم المستعمر فإنه من الغريب أن عنصر الكره فى هذا التعبير عن الشعور القومى غير ذى قيمة ، فهنا - على سبيل المثال - المقاطع الأولى والأخيرة من Ultimo Adios "الوداع الأخير" المشهورة التى كتبها ريزال عندما كان ينتظر حكم الإعدام على أيدى المستعمرين الإسبان:[3]

١

**وداعا يا أرضى الحبيبة ، ويا محبوبة الشمس**

**يا لؤلؤة بحار الشرق ، ويا أيتها الجنة المفقودة**

**سأهديكى هذه الحياة التى لم تكتمل بعد بكل سعادة**

وحتى لو كانت أجمل ، أينع ، أكمل

كنت سأتخلى عنها أيضا لتحقق رخاءك

٢

وماذا يهم لو نسيتيني عندما

يمكنني أن أكتشف كل ملجأ عزيز فيك؟

كوني نغمة دفاقة ونقية وبعدها

كوني عبيرا ، نورا ، نغمة : كوني أغنية أو علامة مرة أخرى

ووسط كل ذلك كرري قصة إيماني

٣

يا أرضي المقدسة استمعي لوداعي الأخير

يا فلبين ، يا حبي إن ألمي أقسى الآلام

سأترككم جميعا يا كل من أحب غاية الحب

لأذهب إلى حيث لا يسكن عبيد ولا طغاة

إلى حيث لا يقتل الإيمان ، والله يحكم فوق الجميع

٤

وداعا لكل من تعرفهم روحي

آه يا أصدقائي وأقربائي في وطني المسكين

اشكروا الله على انتهاء أيام قمعي

وداعا يا أيها الغريب الجميل ، يا سعادتي وصديقي

وداعا يا أعزائي فإن الموت راحة.

لا تلاحظ فقط أنه لم يذكر جنسية الطغاة ، بل لاحظ أيضا أن ريزال يعبر عن وطنيته العاطفية بلغتهم (أي المستعمرين الطغاة) بشكل غاية في الجمال [٤]

ويمكن اكتشاف شيء من طبيعة هذا الحب السياسى من الأساليب التى تصف بها اللغات أشياءها إما باستخدام الكلمات الدالة على القرابة مثل الكلمة الإنجليزية Motherland (الوطن الأم) ، والكلمة الألمانية Vaterland (الوطن الأب) ، أو كلمة Patria ، أو باستخدام الكلمات الدالة على البيت مثل الكلمة الألمانية Heimat والتعبير الإندونيسى "التراب والماء" الذى يعبر عن أرخبيلهم . ويعبر كل من المصطلحين عن شيء يرتبط به الإنسان ارتباطا طبيعيا . وكما رأينا سلفا ، فإن هناك دائما شيئا غير مختار فى كل شيء "طبيعي" ، وبهذا الأسلوب فإن التقويم شيء مشابه للون البشرة والجنس والوالدين وحقبة الميلاد وكل هذه الأشياء لا يستطيع الإنسان شيئًا حيالها ، ويشعر المرء فى هذه الروابط الطبيعية بما نستطيع أن نسميه "جمال الجماعية" ولنصُغ الأمر صياغة أخرى، لأن هذه الرابطة ليست مختارة فإن حولها هالة من عدم الاكتراث .

فبالرغم من صحة أنه فى الحقبتين السابقتين كتب الكثير عن العائلة كبنية سلطة ثابتة ، فإن ذلك المفهوم غريب بالتأكيد عن الغالبية العظمى من جماعة البشر . بل كانت النظرة التقليدية للعائلة ترى أنها مكمن الحب غير المكترث والتضامن . ولذلك أيضا فإذا كان المؤرخون والسياسيون والدبلوماسيون وعلماء الاجتماع مرتاحين تماما لفكرة "الاهتمام القومي" ، فإن مسألة القومية برمتها لمعظم الناس العاديين من الطبقات المختلفة هى مسألة بديهية ، ولهذا السبب بالتحديد تستطيع أن تطالب بالتضحية .

وكما ذكرنا سلفا فإن حروب هذا القرن الكبيرة حروب غير عادية ليس فى المعدل الواسع الذى سمحت فيه تلك الحروب للناس بالقتل بقدر ما كان فى الأعداد الكبيرة التى أقنعت أن تقدم حيواتها . أليس من المؤكد أن أعداد المقتولين تفوق بكثير أعداد القاتلين؟ وتأتى فكرة التضحية النهائية فقط مع فكرة الطهر من خلال القدرية.

يعطى الموت فى سبيل الوطن – والذى لا يختاره المرء عادة – عظمة أخلاقية لا يجاريها الموت فى سبيل حزب العمال ولا جمعية الأطباء الأمريكية أو حتى منظمة العفو الدولية ؛ فهى جميعا كيانات يستطيع الإنسان أن ينضم إليها أو يذهب عنها باختيار سهل . وكذلك يستمد الموت من أجل الثورة سموه من درجة الطهر التى تحس به إذا تخيل الناس أن البروليتاريا مجرد مجموعة من الناس يلهثون وراء الثلاجات أو الإجازات أو السلطة ، فإلى أى مدى سيكونون – ومن ضمنهم أعضاء

البروليتاريا- مستعدين للموت في سبيلها[٥]. ومن السخرية أنه بقدر ما تُحس تفسيرات التاريخ الماركسية - لا أن تدرس بالعقل - على أنها تمثيلات لضرورة حتمية ، إلا أنها تكتسب أيضا هالة من النقاء والتميز.

ويمكننا هنا أن نعود مرة أخرى للغة ، فيلاحظ المرء أولا قدم اللغات حتى تلك التي يعرف عنها أنها حديثة . فلا يستطيع أحد أن يقدم تاريخ ولادة أية لغة ، فكل منها شمس تشرق بشكل غير محسوس من ماض غير ذي أفق . فبما أن الهومو سابينس هو الهومو ديكينيس ، فيبدو من الصعب تخيل أصل للغة أحدث من الجنس نفسه . وعلى ذلك فإن اللغات تظهر موغلة بجذورها في المجتمعات المعاصرة أكثر من أي شيء آخر. وفي نفس الوقت ، لا شيء يربطنا بالموتى عاطفيا أكثر من *اللغة* ، فإذا سمع متحدثو الإنجليزية الكلمات "الأرض للأرض، الرماد للرماد ، والتراب للتراب" والتي ظهرت أول ما ظهرت قبل أربعة قرون ونصف ، فإنهم يمتلئون بحميمية روحية من التزامن عبر الزمن المتجانس الفارغ . وتستمد تلك الكلمات ثقلها جزئيا من معانيها المقدسة وهي كلمات أتت أيضا من "إنجليزية" سلفية .

ثانيا فإن هناك نوعًا خاصًا من الجماعية المتزامنة توجدها اللغة وحدها في شكل شعر وأغان قبل كل شيء . خذ على سبيل المثال الأناشيد القومية التي تغنى في الإجازات القومية ؛ فمهما كانت الكلمات قديمة مستهلكة والنغمات هابطة المستوى فإن هناك معايشة للتزامن في هذا الغناء . ففي هذه الدقائق بالتحديد يغني أناس لا يعرفون بعضهم بتاتا نفس الأشعار بنفس اللحن ، فإن الصورة إذًا صورة توحد[٦] ، ويقدم غناء المرسيليوز وماتيلدا على الفالس ونشيد إندونيسيا الرايا فرصا للتجانس والتوحد للتحققات المادية للمجتمع المتخيل التي يرددها الناس . وكذلك يفعل الاستماع أو ربما الترديد الصامت للنظم الاحتفالي مثلا لأجزاء من كتاب الصلوات . ويأخذ هذا التوحد شكلا غير ذاتي ، فإذا كنا نعلم أن هناك أناسا آخرين يغنون نفس الأناشيد عندما وكيفما نغنيها نحن فإننا لا نعرف من هم ، أو حتى أين هم ، أين يغنون بعيدا عن آذاننا ؟ فلا شيء يربطنا جميعا سوى الصوت المتخيل .

ومع ذلك فإن تلك الجوقات تتجمع في الزمن ، فإذا كنت أنا من ليتوانيا فقد تكون ابنتي أسترالية، وسيجد ابن المهاجر الإيطالي إلى نيويورك في آبائه الحجاج سلفا له . فإذا كانت القومية تحمل حول نفسها هالة من الحتمية القدرية فإنها مع ذلك حتمية مزروعة في التاريخ . ويعتبر مرسوم سان مارتين بتعميد الهنود الذين يتكلمون

الكوشوا" ليكونوا من مواطنى بيرو –هذه حالة تحمل بعض الشبه بالتحويل الديني– مثلا واضحا على ذلك ؛ لأنها توضح أن القومية من البداية إدراك قائم على اللغة وليس على وحدة الدم . وتوضح أيضا أنه من الممكن أن "يدعى" أى فرد للدخول فى المجتمع المتخيل . وعلى ذلك فإن أقصى الأمم انعزالا تقبل اليوم مبدأ التعويد والتطبيع – يا لها من كلمة عظيمة– مهما كانت الصعوبات العملية التى تواجهها فى تحقيقه .

فبما أننا نرى القومية على أنها كل من حتمية تاريخية ومجتمع متخيل عن طريق اللغة ، فهى تقدم نفسها على أنها كيان مفتوح ومغلق فى نفس الوقت ، ويتضح هذا التناقض فى أسطر تلك القصيدة المشهورة التى كتبت بمناسبة موت جون مور فى معركة كورونا(٧) :

١

لم نسمع طبلة ولا نغمة جنائزية

بينما كنا نسرع بجثمانه إلى الحصن

ولم يطلق جندى طلقة الوداع

فوق القبر الذى دفنا فيه بطلنا

٢

دفناه فى قلب ظلمة الليل

وحفرنا التربة بحرابنا

تحت نور القمر الغائم للأشعة المتصارعة

والمصباح المشتعل الخافت

٣

لم يضمه نعش لا نفع له

ولم نضعه لا فى ملاءة ولا فى كفن

لكنه رقد كما يرقد المحارب الذى يستريح

وعباءته العسكرية تحيط به

٥

فكرنا بينما كنا نحفر سريره الضيق

ونهيئ وسادته الوحيدة

أن العدو والغرباء سوف يدوسون على رأسه

ونحن بعيدون على وسائدنا

٨

أرقدناه ببطء وحزن

آخذينه من موطن شهرته الملطخ بالدم

لم نحفر سطرا ، ولم نرفع حجرا

ولكننا تركناه وحيدا مع مجده.

وتحتفل الأسطر بذكرى بطولية بجمال لا يفترق عن اللغة الإنجليزية ، فهو جمال لا يترجم ويسمعه فقط متحدثوها وقراؤها . ومع ذلك فقد كان مور وراثيه كلاهما أيرلنديين ، ولا يوجد هناك أى سبب يعلل عدم قدرة حفيد من أحفاد أعداء مور الإسبان أو الفرنسيين على استيعاب رنين القصيدة استيعابا كاملا ، فالإنجليزية – كأى لغة أخرى – مفتوحة دائما لمتحدثين ومستمعين وقراء جدد .

واستمع إلى توماس براون وهو يضغط – فى جملتين – طول وعرض تاريخ الإنسان(٨) :

> حتى المطامح القديمة كانت لها ميزات مطامحنا . فقد وجدت إنجازات عظيمة من تصميمها فى زمانها عندما بدأت تعمل مبكرا وقبل ظهور الزمن لتحقيق مفاخرها . وعلى ذلك فقد عاش الأبطال القدماء أكثر من تماثيلهم والأشياء التى تحفظهم . ولكن فى المشهد الحديث للزمن لا نستطيع أن نتوقع بقاء هذه المساواة فى ذاكرتنا ؛ فقد يخشى الطموح نبوءة إلياس ، ولا يستطيع تشارلز الخامس أن يأمل أن يعيش عمرى ميثوزلا اللذين عاشهما هيكتور.

وتتحد هنا مصر القديمة واليونان واليهودية بالإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ولكن اتحادها عبر آلاف السنين وآلاف الأميال يتحقق فى خصوصية النثر الإنجليزى

فى القرن السابع عشر لبراون(٩) ، ويمكن - بالطبع إلى حد معين - ترجمة الاقتباس ، ولكن الفخامة الباطنية للجمل تظهر ، وتصبح ذات معنى لقراء الإنجليزية فقط .

وتفتح اللغة الإنجليزية نفسها على هذه الصفحة باتساع للقراء ، ولكن - على الناحية الأخرى - فإن السطور الختامية ل"يانج سوداه هيلانج" للكاتب الإندونيسى العظيم براموديا أنانتا تور(١٠) التالية :

suara itu hanya terdengar beberaph detik saja dalam hidup. Getarannya sebentar berdengung, takkan terulangi lagi. Tapi seperti juga halya dengan kali Lusi yang abadi menggarisi kota Blora, dan seperti kali itu juga, suara yang tersimpan menggarisi kenangan dan ingatan itu mengalir juga- mengaalir kemuaranya, kelaut yand tak bertpi. Dan tak seorangpun tabu kapan Iaut iru akan kering dan berhenti berdeburan.

Hiland

Semua itu sudah hilang dari jangkauan panc[h]a-indera.

والتى لا تقل عظمة باطنة عن النص الإنجليزى السابق ، والمكتوبة على نفس هذه الصفحة غالبا ما تكون مغلقة أمام القراء(١١).

فإذا كانت كل لغة قابلة للاكتساب ، فإن اكتسابها يستغرق قدرا كبيرا من حياة الفرد . وتقاس كل غزوة جديدة على الأيام المقصرة . إن الذى يحدد قدرة الإنسان فى الدخول إلى عالم لغات أخرى ليس غموضها ، ولكن محدودية حياة الإنسان ، ومن هنا جاءت الخصوصية المعينة لكل لغة . وحكم الفرنسيون الأمريكيون الاستعماريون الفيتناميين ، واستغلوهم وقتلوهم عبر سنين عديدة . ولكن مهما كان الذى غادروا به ، فقد بقيت اللغة الفيتنامية ثابتة . ومن هنا جاء الانفعال الشديد على غموض اللغة الفيتنامية ، وذلك اليأس غير الواضح الذى يولد المصطلحات الخاصة بالاستعمار الميت ك"الجوكس" و"الراتونز" وغيرها(١٢). وعلى المدى البعيد سيكون رد الفعل الوحيد على الخصوصية الواسعة للغة المقهورين هو الانسحاب أو الزيادة فى المذابح .

وهذه الصفات فى شكلها الداخلى صفات عنصرية ، وسينفعنا اكتشاف هذا الشكل فى توضيح سبب كون نايرين مخطئ فى قوله إن العنصرية والعداء ضد

السامين يستمد من القومية . وعلى ذلك فإن "الفاشية عندما ننظر إليها بعمق تاريخي كاف فإنها تخبرنا عن القومية أكثر بكثير من أى سياق آخر"[١٣] ، فكلمة مثل "مائل" مثلا والمختصرة من "ذو العين المائلة" لا تعبر عن عداء سياسى عادى فحسب ، بل هي كلمة تمحو القومية عن طريق تقليل العدو إلى صفاته البيولوجية[١٤] ، فهى تنكر بحلولها محل "فيتنامي" ما تنكره "راتون" بحلولها محل "جزائري" ، وتضع "الفيتنامي" – فى نفس الوقت – في تصنيف بدون اسم يضم إلى جانبه "الصيني" و"الفلبيني" و"الكوري" وغيرهم . وتتضح شخصية تلك الألفاظ أكثر إذا قورنت بكلمات أخرى من فترة حرب فيتنام مثل "شارلي" و"V. C." أو من فترة سابقة مثل "بوشز" أو "الهون" أو "الجاب" أو "الدفاضع" ، وكل هذه الكلمات على جنسية واحدة بعينها ، وتذعن – عن كره – لعضوية العدو في جماعة من القوميات .[١٥]

وحقيقة الأمر أن القوميات تفكر بأسلوب المصائر التاريخية ، بينما تحلم العنصرية بتلوث أبدى ينتقل من أول الزمان عبر توال لا نهائى للزيجات المقوتة الكريهة خارج التاريخ . وبفضل فرشاة القار سيظل الزنوج زنوجا للأبد ، وبفضل بذرة إبراهيم يبقى اليهود يهوداً أبدا مهما كانت جوازات السفر التى يحملونها ، ومهما كانت اللغات التى يتكلمونها ويقرأونها . وعلى ذلك فاليهودى الألمانى كان دائما أفاكا لدى النازي[١٦].

وحقيقة ، تكمن أصول أحلام العنصرية فى أيديولوجيات الطبقية وليس فى أيديولوجيات القومية ، وخاصة فى ادعاءات الانتماء للسماء بين الحكام والدم "الأزرق" أو "الأبيض" والتربية بين الأرستقراطيين[١٧] ، ولا عجب إذن أن يكون زعيم العنصرية الحديثة المزعوم هو جوزيف أرثر الكونت دى جوبينو وليس أحد البرجوازيين القوميين الصغار[١٨] ولا عجب أيضا أنه فى العموم ، تعبر العنصرية والعداء ضد الساميين عن نفسيهما داخل الحدود القومية وليس عبرها ، وبكلمات أخرى فهما لا يبرران الحروب الداخلية بقدر ما يبرران القمع الداخلى والسيطرة[١٩] .

وأينما نمت العنصرية خارج أوروبا فى القرن التاسع عشر فإنها كانت دائما مرتبطة بالسيطرة الأوروبية لسببين : أولهما وأكثرهما أهمية هو نشأة القومية الرسمية و"الترويس" الاستعمارى . وكما ركزنا عدة مرات سلفا ، فإن القومية الرسمية جاءت كرد فعل من ناحية الأسر الملكية والأرستقراطيين أى الطبقات المرتفعة المهددة وعلى القومية الشعبية القائمة على اللغات المحلية . وكانت العنصرية الاستعمارية عنصراً أساسيا فى مفهوم "الإمبراطورية" التى حاولت أن تجمع بين مشروعية حكم الأسرة

والجماعية القومية ، وفعلت ذلك بتعميم السمو الموروث المولود فى أفرادها والتى كان وضعها الداخلى يرتكز عليها حتى ولو كان ذلك الارتكاز مهتزاً باتساع الممتلكات عبر البحار . وتنقل بذلك بشكل خفى -أو ربما ليس خفيا تماما - فكرة من قبيل أنه إذا كان اللوردات الإنجليز أسمى بطبيعتهم من الإنجليز العاديين الباقين ؛ فإن ذلك لا يهم فالإنجليز العاديون لا يقلون سمواً بالنسبة للشعوب الأخرى المستعمرة . ويستطيع المرء فى الواقع أن يقول إن وجوه إمبراطوريات أواخر عصر الاستعمار قد ساعد فى تدعيم حصون الأرستقراطية الداخلية ؛ لأنها حاولت أن تثبت مفاهيم القوة القديمة والتميز على المسرح العالمي الحديث .

وأفلحت بالفعل في بعض النجاح لأن - وهذا هو السبب الثاني- الإمبراطوريات الاستعمارية بجهازها الحكومي السريع النمو وسياسات "الترويس" قد سمحت لأعداد كبيرة من البرجوازيين والبرجوازيين الصغار أن يلعبوا دور الأرستقراطيين خارج الملعب الرئيسي ، أى في أى مكان فى الإمبراطورية ما عدا الوطن الأم . فيجد المرء فى كل مستعمرة هذا ال"تابلو" الحى المسلى ، أى تابلو الرجل البرجوازى النبيل الذى يتكلم بالشعر فى مقابل خلفية القصور الكبيرة والحدائق الممتلئة بأشجار السنط أو البوجنفيليا وعدد كبير جدا من الخدم فى المنزل والسياس والبستانيين والطهاة والخادمات والغسالات ، وقبل كل شيء الخيول[٢٠] . وحتى الذين لم يفلحوا فى العيش بهذا الشكل كشباب العزاب ؛ إلا أنهم مع ذلك كانوا ذوى مكانة مائعة كنبلاء فرنسيين عشية ثورة الفلاحين[٢١] :

> **فى مولمين فى بورما السفلى [تحتاج هذه المدينة المجهولة لشرح لقراء الدولة الأم] كانت أعداد كبيرة من الناس تكرهنى . وكانت هذه هى أول مرة أكون فيها مُهمًا لهذه الدرجة ليحدث لى شيء كهذا ؛ فقد كنت ضابط شرطة فى المدينة.**

وقد أمكن وجود هذه "القوطية الاستوائية" عن طريق القوة الهائلة التى أعطتها الرأسمالية العالية للدولة الأم . لقد كانت قوة جد عظيمة . ولا شيء يدل بوضوح على الرأسمالية فى الأرستقراطية الإقطاعية أكثر من عسكرية المستعمرات التى كانت معزولة عن عسكرية الدولة الأم حتى فى الشكل الرسمى التقعيدى فى غالب الأحيان[٢٢] . وعلى ذلك ففى أوروبا نجد "الجيش الأول" الذى يتم تجميعه عن طريق تجنيد المواطنين من الدولة الأم وكان يفهم أيديولوجيا على أنه الجيش المدافع عن

الوطن وأفراده يرتدون الزى العملى الكاكى ، ويتسلحون بأحدث الأسلحة التى يقدرون عليها ، وينعزل هذا الجيش فى ثكناته أيام السلم ، ويوضع فى خنادق أو خلف مدافع الميدان الثقيلة وقت الحرب . وفى خارج أوروبا تجد "الجيش الثاني" وجنوده من الأقليات الدينية أو العرقية المحلية ، هذا بالطبع تحت رتبة الضابط ، ويعملون فى شكل مرتزقة ، ويعرف أيديولوجيا على أنه قوة شرطة داخلية ، ويرتدون ملابسهم ليقتلوا من يقتلون فى الفراش أو فى حجرات الرقص ، ويتسلحون بالسيوف أو بأسلحة قديمة الصنع . وفى وقت السلم يتباهون ، وفى وقت الحرب هم على ظهور الخيول . إذا كانت الأركان البروسية – المعلمة العسكرية لأوروبا – تركز على التضامن الكامل للكيان المحترف والمدفعية وفن القذف والسكك الحديدية والهندسة والتخطيط الاستراتيجي وما شابه ذلك ؛ فإن الجيش فى المستعمرة ركز على المجد والبطولة الفردية والكتافيات والبولو واللياقة بين ضباطه . ويستطيع الجيش أن يفعل ذلك وهو مرتاح الضمير لأن "الجيش الأول" والأسطول موجودان فى الخلفية . وقد عاش هذا التفكير مدة طويلة جدا ، وكتب ليواتاى فى تونكين فى ١٨٩٤[٢٣] :

**يا لها من خسارة أننا لم نأت إلى هذا المكان قبل ذلك بعشر سنوات ، فهناك الكثير من الأعمال التى تأسست واستمرت ، ولم يعد هناك ضباط ، لم يعد هناك أيضا رئيس مركز للشرطة الذين لم يتطوروا فى خلال ستة أشهر أكثر من البداية والرغبة والشخصية التى تميز الضابط الفرنسى .**

وفى تونكين فى ١٩٥١ كانت جان دو لتر ديسيجنى "التى أحبت الضباط الذين يجمعون بين الشجاعة والذوق قد أعجبت فى الحال بالفارس النشط الكلونيل دو كاسترى بقبعته وإيشاربه الأحمرين وأسلوب قيادته الرائع وجمعه بين الأخلاق السهلة والطلعة التى تدل على الذوقية التى جعلت نساء الهند الصينية فى الخمسينيات لا يقاومنه ، كما كانت نساء باريس لا تقاومه فى الثلاثينيات".[٢٤]

ودليل آخر مفيد على استقاء الأرستقراطية أو الأرستقراطية المزيفة للعنصرية الاستعمارية هو "التضامن بين البيض" المعروف الذى ربط بين الحكام الاستعماريين من دول أم ذات قوميات مختلفة مهما كانت منافساتهم وصراعاتهم الداخلية . ويذكرنا ذلك التضامن فى شخصيته العابرة للدول والمثيرة للانتباه على الفور بتضامن الطبقات الأرستقراطية فى أوروبا فى القرن التاسع عشر والذى كان يحدث فى بيوت الصيد

والمنتجعات وحجرات الرقص لكل منهم ، ويذكرنا أيضا بأخوة "الضباط والنبلاء" التى تعبر عنها اتفاقية جنيف تعبيراً جيداً فى القرن العشرين والتى تضمن المعاملة الحسنة للأسرى من ضباط الأعداء فى مقابل المدنيين والمواليين.

وقد يكون من الممكن أن نتابع المناقشة التى تمت حتى الآن من جانب شعوب المستعمرات . فقد يبدو من الجدير بالملاحظة أن ذلك الكيان الصغير المشكوك فيه المعروف باسم "العنصرية المضادة" لم يعبر عن نفسه فى الحركات المناهضة للاستعمار بشكل كبير . وقد يسهل فى هذا الشأن أن تخدع اللغة المرء ؛ فهناك على سبيل المثال معنى للكلمة الجاوية "إيوندو" المشتقة من كلمة "هولندي" ، ولا يقف المعنى عند "فرد هولندي" بل يعنى أيضا "البيض" ، ولكن الاشتقاق فى حد ذاته يوضح أن المعنيين تداخلا بشكل كبير لدى الفلاحين الجاويين الذين لم يقابلوا – إلا فى النادر – أناسا من "البيض" غير الهولنديين ، ولذلك فقد تداخل المعنيان بشكل فعال . وبنفس الشكل ، وفى أراضى المستعمرات الفرنسية كانت كلمة "ليه بلان" تعنى الحكام الذين لم يكن من الممكن فصل كونهم فرنسيين عن كونهم بيض ، وعلى حد علمى فى الحالتين لم تفقد كلمة "إيوندو" و"بلان" العزل أو التمييز الثانوى المحط من الشأن(٢٥).

وعلى العكس من ذلك ، كانت روح القومية المناهضة للاستعمار هى نفس روح الدستور الذى يخلع القلوب لجمهورية كاتاجالوجان فى ١٩٠٢ لماكاريو ساكاى والذى يقول ضمن ما يقول(٢٦) :

> **أن يترفع أى تاجلوجى ولد فى هذا الأرخبيل التاجلوجى عاليا على الباقين بسبب جنسه أو لون بشرته ، فذو البشرة البيضاء وذو البشرة الداكنة والغنى والفقير والمتعلم والجاهل كلهم متساوون تماما ، ويجب أن تكون أرواحهم متحدة . قد تكون هناك فروق فى التعليم والثروة أو المظهر ، ولكن لا توجد فروق فى الطبيعة الجوهرية والقدرة على العمل فى سبيل هدف .**

ويستطيع المرء دون صعوبة أن يجد مماثلا لذلك على الناحية الأخرى من الكرة الأرضية ، فالميستيزو المكسيكيون الذين يتكلمون الإسبانية يردون أسلافهم لا إلى الفاتحين القشتاليين بل للأستيك والمايا والتولتيك والزابوتيك الذين غمرهم النسيان جزئيا . واختار الثوار الوطنيون الكريوليون فى أورجواى لأنفسهم اسم توباك أمارو ، وهو آخر الثوار العظماء من السكان الأصليين ضد القمع الكريولى والذى مات تحت التعذيب الفظيع فى ١٧٨١

وقد يبدو من المتناقض أن وجهات كل هذه الارتباطات كالأخ التاجلوجى المجهول والقبائل المنتهية وروسيا الأم كلها "متخيلة" ، ولكن حب الوطن هنا لا يختلف عن العواطف الأخرى التى تمتلك دائما عنصرا من الخيال الشغوف . وهذا هو السبب فى تشابه مشاهدة ألبومات صور زفاف الغرباء بدراسة الخريطة الأرض للأركيولوجيين للحدائق المعلقة ببابل ، والذى تمثله العين -العين العادية التى ولد بها- للعاشق تمثله اللغة -مهما كانت اللغة التى جعلها التاريخ اللغوى لغته الأم - للوطنى . ومن خلال تلك اللغة التى يقابلها الإنسان على حجر أمه ويفارقها على باب القبر يستطيع المرء أن يسترجع الماضى ، كما يستطيع أن يتوهم الجماعية ، ويحلم بالمستقبل .

## الهوامش

١) النص الموجود في كتاب نايرين The break-up of Britain, pp.14-15 وفي مقولة هويزباوم البيديرمية بعض الشيء يقول "الحقيقة الأساسية هي أن الماركسيين هكذا ليسوا قوميين" 'Some Reflections,' p.10

٢ ) هل يستطيع القارئ الآن أن يتذكر ثلاث أغنيات للكرة؟ وكلمات المقطع الثاني من نشيد "حفظ الله الملكة/الملك" مكتوبة بشكل مفيد جدا فهو يقول "يا الله يا ربنا امحق/ فرق معشر أعدائها / أعدائه وأسقطهم وقوض سياساتهم/أحبط خططهم الجبانة ، ونحن نضع آمالنا فيك ، حافظ علينا يا الله" لاحظ أن هؤلاء الأعداء لا هوية لهم ، ويستطيعون أيضا أن يكونوا إنجليزا أو أي شيء آخر ما داموا "عدوها/عدوه" ، وليسوا "عدونا" ، وكل النشيد مناصر للملكية وليس للأمة التي لم تذكر فيه كله مرة واحدة .

٣) (كان هذا الهامش يحتوي على الترجمة الإنجليزية للأجزاء المقتبسة من القصيدة في ترجمة ترينيداد سوييدو، والتي نقلنا الترجمة العربية لها في المتن – المترجم). Jaime C. de Veyra, El Ultimo adios' de Rizal: estudio critico-expositivo, pp.89-90 and 101-102.

٤) ولكنها ترجمت بسرعة إلى التاجلوج ، ترجمها الثائر الفلبيني العظيم أندريه بونيفشكيو ، ونسخته موجودة في المرجع السابق ص١٠٧-١٠٩

٥) ولا يجب أن تؤخذ هذه الصياغة على الإطلاق لتعني أن الحركات الثورية لا تبحث عن أهداف مادية ولكن هذه الأهداف لا ترى على أنها مجموعة من الممتلكات الفردية بل ينظراليها على أنها متطلبات الخير الجماعي الذي يقول به روسو.

٦) قارن هذا الكورس بلغة الحياة اليومية التي يعيشها الناس في شكل محادثات وتبادلات كلامية .

٧) 'The Burial of sir John Moore,' in The Poems of Charles Wolfe, pp.1-2

٨) Hudriotaphia, ume-buriall, or, A Discourrse of the Sepulchrall Umes Lately Found in Norfolk, pp. 72-73. قارن الكاهن أوتو فريسنج ب"ظهر الزمن المحتمل".

٩) لكن إنجلترا ليست مذكورة في هذه الوحدة . وتذكرنا بتلك الصحف المحلية التي جلبت كل العلم لكركاس وبوجوتا عبر اللغة الأسبانية.

١٠) in Tjeri dari Blora Tales from Blora], pp.15-44 at p.44.

١١) ولكن من الأفضل أن تستمع إليهم على أية حال ، وقد طوعت الهجاء الأصلي للنص ليناسب التقاليد المعمول بها حاليا ولجعل الاقتباس صوتيا كاملا.

١٢) المنطق هنا هو: ١ سأموت قبل أن أتغلغل فيها. ٢ قوتي في جوب أن يتعلموا لغتي ٣ ولكن ذلك يعني أن خصوصيتي اخترقت وتسميتهم بالجوكس ثأر بسيط.

١٣) The Break-up of Britain, pp. 337 and347.

١٤) لاحظ أنه لا يوجد مقابل واضح وا ع لكلمة "مائل" هل هو "مدور" أم "بيضاوي" أم "مستقيم"؟

١٥) وفي الواقع ، لم يكن هذا فقط في حقبة مبكرة ولكن ، هناك نفحة من ريح دكان الأشياء القديمة حول كلمات دبيراي "لا أدرك أن هناك أملا لأوروبا إلا تحت سيطرة فرنسا الثورية التي تملك راية الاستقلال .

وأتساءل أحيانا إذا كان كل الأسطورة المضادة لبوك وعداوتنا الدنيوى لألمانيا من الممكن ألا يكون حتميا ضروريا لإنقاذ الثورة أو موروثنا الديمقراطى القومى. "Marxism and the Ntional Question," p.41.

١٦) وتكمن أهمية ظهور الصهيونية ونشأة إسرائيل فى أن هذا الشكل يبين إعادة تخيل مجتمع دينى قديم على أنه قومية من ضمن القوميات ، بينما تمثل نشأة إسرائيل تغيرا كميائياً من الجوال المخلص إلى الوطنى المقيم .

١٧) وجاءت من جانب الأرستقراطية مفاهيم سمو موروثة فى الطبقات الحاكمة وحساسية تجاه المكانة لتكون مفاهيم ثابتة فى القرن العشرين . واستطاعت تلك المفاهيم عن طريق التزود بمنابع جديدة ، أن تكون شعبية وتروق للشعب الثانى عامة عن طريق نظريات التفوق العنصرى للجنس." BarringtonMoore Jr., Social Origins of Dictatorship and Democracy, p.436.

١٨) تواريخ جوبينو سيئة تماما . فقد ولد فى ١٨١٦ بعد عامين من استعادة البربون للعرش الفرنسى . وقد ازدهر عمله السياسى من ١٨٤٨ إلى ١٨٧٧ تحت حكم الإمبراطورية الثانية للوى نابوليون والملكية الرجعية تحت حكم مارى إدمى باتريس موريس والكونت دو ماكماهون القنصل الاستعمارى السابق فى الجزائر وظهر مقاله "مقال عن عدم مساواة الأجناس البشرية" فى ١٨٥٤ ويستطيع المرء أن يقول إنها رد فعل للعصيان القومى الشعبى المسلح والمبنى على اللغات المحلية فى ١٨٤٨

١٩) وفى عصر فورستر وبوتا ، لم تقف عنصرية جنوب أفريقيا فى طريق العلاقات الودية -والتى كانت مع ذلك تعامل بحذر- مع السياسيين الأفريقيين السود العظام فى بعض الدول الأفريقية المستقلة . فإذا كان اليهود يعانون من التفرقة فى الاتحاد السوفييتى ، فإن ذلك لم يمنع من وجود علاقات عمل محترمة بين بريجينيف وكيسينجر.

٢٠) ولمجموعة مدهشة من الصور لتلك التابلوهات الحياتية فى شمال الهند ولنص ساخر أنيق انظر 'E. Breton de Nijs,' Tempo Doeloe.

٢١) George Orwell, 'Shooting an Elephant,' in The Orwell Reader, p.3

٢٢) كان KNIL منفصلا تماما عن KL فى هولندا ، وكان Legion Etrangere من البداية تقريبا محظورا قانونا من العمل فى أرض القارة الفرنسية .

٢٣) Lettres de Tonkin er de Madagascar (1894-1899), p.84 وهى رسالة ٢٢ ديسمبر ١٨٩٤ من هانوى .

٢٤) Bernard B. Fall, Hell is a Very Small Place: The siege of Dien bien Phu, p,56.
يستطيع المرء أن يتخيل كتف شبح "كلوسفيتس" . وقد استمدت كلمة "سيباهى" مثل كلمة "سيبوى" من الكلمة العثمانية "سيباهى" التى كانت تعنى فارس مرتزق غير نظامى من "الجيش الثانى" فى الجزائر. ومن الصحيح أن فرنسا ليوتى ودى لتر كانت ديموقراطية ، ولكنها أصبحت جراند موت الكثيرة الكلام غالبا منذ بداية الجمهورية الثالثة ملجأ للأرستقراطيين الذين عزلوا أكثر وأكثر من السلطة فى مؤسسات الحياة العامة المهمة الأخرى . وبحلول ١٨٩٨ كان ربع البريجادير والجنرالات من الأرستقراطيين . وعلاوة على ذلك ، فقد كانت وظيفة الضباط التى يسيطر عليها الأرستقراطيون مهمة وحيوية للاستعمارية الفرنسية فى القرنين التاسع عشر والعشرين . "ولم تمتد السيطرة القوية المفروضة على الجيش فى الدولة الأم إلى فرنسا عبر البحار . وكان توسع الإمبراطورية الفرنسية فى القرن التاسع عشر نتيجة جزئية لمبادرة غير محكومة من

جانب القادة العسكريين فى المستعمرات . وكان غرب أفريقيا الفرنسى من صنع الجنرال "فيديرب" لحد كبير ، وكذلك كان الكونغو الفرنسى مدينا لحد كبير للحملات العسكرية المستقلة فى توسعه فى الأراضى الداخلية . وكان الضباط العسكريون أيضا مسؤولين عما أدى إلى حماية فرنسية فى تاهيتى فى ١٨٤٢ ، وبدرجة أقل عما أدى إلى احتلال فرنسا لتونكين فى الهند الصينية فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر. . . . . وفى ١٨٩٧ أنهى جاليني الملكية فى مدغشقر بلا إبطاء ورحل الملكة ، وكل ذلك دون أن يستشير الحكومة الفرنسية التى قبلت ذلك فيما بعد. . . " John S. Ambler, The French Army in Politics, 1945-1962, pp. 10-11 and22

٢٥) لم أسمع أبدا بأية كلمة سب فى لغات الاستخدامات الخاصة للأندونيسية والجاوية لكل من "هولندي" أو "أبيض" . وقارن ذلك بكثرّ الكلمات الأنجلو ساكسونية كـ"الزنوج" ومئات الكلمات الأخرى . ومن المحتمل أن تكون براءة الاستخدامات الخاصة للغة العنصرية حقيقية فى حالة الشعوب المستعمرة ، وقد طور الزنوج فى أمريكا ، وبالطبع وفى مناطق أخرى كلمات مضادة صالحة مثل "بونكيز" و"أوفاي" وغيرها .

٢٦) كما هو مقتبس فى Reynaldo Ileto, Pasyon and Revolution: Popular Movements in the Philippines, 1840-1910, p.218. دامت جمهورية ساكى الثورية حتى ١٩٠٧ عندما قبض عليه الأمريكيون وأعدموه . ويتطلب فهم الجملة الأولى تذكر أن ثلاثة قرون من الحكم الإسبانى والهجرة الصينية قد أنتجت شعبا مخلطا كبيراً من سكان الجزر.

## الفصل التاسع

# ملاك التاريخ

بدأنا هذه الدراسة البسيطة بالحروب الأخيرة بين جمهورية فيتنام الاشتراكية وجمهورية كمبوديا الديموقراطية وجمهورية الصين الشعبية ، ولذلك يبدو من المناسب أن نعود ثانية لنقطة انطلاقنا . هل يساعد أى شيء مما قلنا حتى الآن فى تعميق فهمنا لاندلاع تلك الحروب؟

وفى كتاب "تفكك بريطانيا" كان لتوم نايرين مؤلف الكتاب كلمات قيمة حول العلاقة بين النظام *السياسى البريطانى* بالأنظمة السياسية لباقى العالم الحديث(١):

> **وحده ، أى النظام البريطانى ، مثل "نموا تقليديا بطيئا على عكس الآخرين الذين هم نواتج الاختراع المتعمد الناتج عن نظرية." ولما جاءت هذه الأنظمة الأخرى متأخرة "حاولت أن تختصر ثمار خبرات الدولة التى نمت دستوريتها عبر قرون عدة" . . . . لأنها كانت خبرات إنجليزية ، ثم بعد ذلك بقيت بريطانية مميزة . ولأنها جاءت ثانيا – أى الأنظمة الأخرى– إلى عالم كانت فيه الثورة البريطانية قد سبقت بالفعل وتوسعت ، وبعد ذلك لم تستطع المجتمعات البرجوازية أن تكرر هذه الخطوة المبكرة ، وقد ولد تدارسهم وتقليدهم شيئا مختلفا تماما وهو النظرية الحديثة الحقيقية نظرية الدولة المعنوية أو "غير الشخصية" التى أصبح تقليدها ممكنا فى التاريخ اللاحق بسبب طبيعتها المعنوية.**

وقد ينظر *إلى ذلك* بالطبع على أنه المنطق العادى لعمليات التطور. فقد كان نموذجا مبكرا لما عظم بعد ذلك بأسماء مثل "قانون التنمية غير المستوية والمجموعة" ، وتندر إمكانية وجود التكرار والتقليد الحقيقيين سواء كان ذلك سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا أو تقنيا ؛ لأن الكون قد تغير تغيرا كبيرا عما كان عليه الوضع الأول الذى يمكن نقله .

وما يقوله نايرين عن الدولة الحديثة حقيقى ولا يقل صدقا عن المفهومين اللذين تعتبر دولنا الثلاثة -الصين وكمبوديا وفيتنام- تحققات معاصرة لهما ؛ ألا وهما الثورة والقومية . وربما يكون من السهل جدا أن ننسى أن هذا الزوج كالرأسمالية والماركسية هو زوج مخترع يستحيل الحفاظ على براءته ؛ فهو موجود -إذا صح أن نقول- من أجل السطو ؛ ومن هذا السطو والقرصنة وحدهما تجيئ تلك المجتمعات الشاذة مثل كوبا وألبانيا والصين التى تدرك أنها فى كونها اشتراكية ثورية "متقدمة" عن مجتمعات فرنسا وسويسرا والولايات المتحدة مثلا . أما بالنسبة لكونها موصومة بقلة الإنتاج والانخفاض الكبير فى مستوى المعيشة والتقنية المتخلفة ؛ فهى تدرك بنفس القدر من التأكد أنها "متخلفة" عنها . ومن هنا جاء حلم "تشاو إن لاي" البائس فى اللحاق ببريطانيا الرأسمالية بحلول عام ٢٠٠٠ .

وكما قلنا سابقا فقد كان هوبزبوم محقا عندما قال : "لم يقُد الثورة الفرنسية حزب مشكل أو حركة منظمة بمعناهما الحديث ؛ أى لم يقدها رجال يحاولون اتباع برنامج منظم" ، ولكن - وبفضل الرأسمالية الطباعية - فإن التجربة الفرنسية يصعب استئصالها من ذاكرة البشر . وبفضل الطباعة أيضا أصبح من الممكن التعلم منها. وجاء البلاشفة من قرن كامل تقريبا من التنظير والتجريب العملى ، وحققوا أول ثورة "منظمة" ناجحة -حتى إذا لم يكن من الممكن أن يتحقق هذا النجاح دون انتصارات هيندنبرج السابقة فى تانينبرج والبحيرات الميزورية- وحاولوا أن ينفذوا برنامجاً منظماً حتى ولو كان الارتجال والعفوية هما نظام اليوم . وكان من الواضح أيضا أنه بدون ذلك التخطيط والبرنامج فإن الثورة فى دولة لا تكاد تدخل عصر الرأسمالية الصناعية مستحيلة . وقد أصبح النموذج الثورى البلشفى نموذجا حاسما لكل ثورات القرن العشرين ؛ لأنها جعلت من السهل تخيل تلك الثورات فى مجتمعات لا تزال أكثر تخلفا من روسيا . فقد مكنت الثورة البلشفية من فصل التاريخ عن الماضى . وقد أثبتت تجارب "ماو تسى تونج" الأولى الماهرة قدرة هذا النموذج على العمل خارج أوروبا . ويستطيع المرء أن يرى نوعا من تأرجح تلك العملية فى حالة كمبوديا ؛ حيث كان -فى ١٩٦٢ - أقل من اثنين ونصف بالمائة من القوة العاملة البالغ عددها مليونان ونصف مليون بالغ قادر على العمل "طبقة عاملة" ، وكان أقل من نصف بالمائة من "الرأسماليين"(٢).

وبنفس الشكل لحد كبير فقد دخلت القومية منذ نهاية القرن الثامن عشر فى

عمليات من التكيف والتغيير باختلاف الحقب الزمنية والنظام السياسى والاقتصاد والتركيب الاجتماعى . وعلى ذلك فقد انتشر "المجتمع المتخيل" فى كل المجتمعات البشرية المعاصرة التى يمكن تخيلها . وإذا كان من المسموح أن نستخدم كمبوديا الحديثة لنمثل بها على تحول كبير فى "الثورة" فمن المسموح أن نستخدم فيتنام للتمثيل على التحول الكبير فى القومية بالكلام بعض الشىء عن اسم تلك القومية .

عند تتويج الملك "جيا لونج" فى ١٨٠٢ تمنى أن يسمى مملكته "نام فيت" ، وأرسل الرسل إلى بيكين ليحصل على الموافقة . ولكن ابن السماء المانشو أصر على أن يكون اسم المملكة "فيت نام" ، ويكمن سبب هذا القلب فى الاسم فى أن "فيت نام" أو "فيو نان" بالصينية تعنى "إلى جنوب فيت" التى كانت دولة هزمها الهان قبل ذلك بسبعة عشر قرنا ، والتى يقال إنها تغطى الآن مساحة المقاطعات الصينية "كوانجتونج" و"كوانزي" بالإضافة إلى وادى النهر الأحمر. ولكن اسم "نام فيت" الذى أطلقه جيا لونج يعنى "جنوب فيت" ، وبالتالى فهو يدعى الأحقية فى المملكة القديمة. ويقول أليكساندر وودسيد "لم يكن الاسم فيتنام محترما بشكل عام لدى الحكام الفيتناميين فى القرن الماضى ؛ لأنه جاء من بكين ، واستمر حتى هذا القرن وهى تسمية مصطنعة لم يستخدمها لا الصينيون ولا الفيتناميون بتوسع . وقد تمسك الصينيون بالكلمة العدائية "أنام" . . . وعلى الناحية الأخرى فقد اخترع البلاط الفيتنامى سراً اسماً آخر لملكته فى (١٨٣٨-١٨٣٩) ولم يكلف نفسه ويبلغ الصينيين . وظهر الاسم الجديد "داى نام" أو الجنوب العظيم أو الجنوب الاستعمارى بانتظام فى وثائق البلاط والتصنيف التاريخى الرسمى ، ولكنه لم يعش حتى الوقت الحاضر"[٣]. ويثير الاسم الجديد الانتباه فى أمرين : الأول أنه لا يحتوى على أى عنصر فيتنامى والثانى أن المكان الأرضى الذى يشير إليه الاسم نسبى بشكل كبير أى "جنوب" المملكة الوسطى[٤].

ويذكرنا دفاع فيتنام المغرور عن "فيت نام" التى أوجدها الملك المانشو فى القرن التاسع عشر بقول رينان المأثور عن أن القوميات "نسيت أشياء كثيرة" ، ويذكرنا أيضا -ويا للتناقض- بالقوة الخيالية للقومية.

فإذا التفتنا بأنظارنا إلى فيتنام فى الثلاثينيات من هذا القرن وكمبوديا فى الستينيات منه فإننا نجد بينهما تشابهات كثيرة فى طبقة الفلاحين الضخمة الجاهلة والمستغلة (بفتح اللام) وطبقة عمال ضئيلة وبرجوازية متناثرة وفئة صغيرة مقسمة من

المثقفين[٥] ، ولا يستطيع أى محلل معاصر واع - يراقب هذه الأحوال بموضوعية - أن يتنبأ بقدوم الثورات بتلك السرعة أو يتوقع انتصارها . وفى الواقع يمكن قول الكلام ذاته تقريبا ولنفس السبب على الصين فى ١٩١٠ ، والشيء ، الذى جعل كل ذلك ممكنا فى النهاية هو "التخطيط للثورة" وتخيل القومية"[٦].

ولا يمكن أن نعزو سياسة حكم "بول بوت" إلا فى مقدار ضئيل إلى الثقافة التقليدية للخامير ولا لقسوة قوادها وجنون عظمتهم . وقد كان للخامير نصيبهم من الطغاة مجانين العظمة ، ولكن بعضهم كان مسؤولا عن "أنجكور" والأكثر أهمية هى نماذج ما فعلته أو تستطيع أن تفعله أو يجب أو لا يجب أن تفعله الثورات المستقاة من فرنسا والاتحاد السوفييتى والصين وفيتنام وكل الكتب التى كتبت بالفرنسية عنها[٧] .

ويصدق نفس الشيء على القومية ، فالقومية المعاصرة هى وريثة قرنين من التغيرات التاريخية . ولكل الأسباب التى حاولت أن أبينها فإن تلك الوراثة تحمل رأس جانوس ولا يتضمن المورثون فقط سان مارتن وجاريبلدى ، ولكن أوفاروف وماكولى أيضا . وكما رأينا سابقا فإن "القومية الرسمية" كانت منذ البداية سياسة واعية حامية لذاتها ومرتبطة ارتباطا وثيقا بالحفاظ على مصالح الأسرات الإمبراطورية الحاكمة ، ولكنها بمجرد "ما ظهرت للعيان" كانت قابلة للتقليد كالإصلاحات العسكرية البروسية فى أوائل القرن التاسع عشر ومن نفس النظم السياسية والاجتماعية . وكانت السمة المميزة الملحة لذلك النوع من القومية ، وما يزال أنها رسمية ؛ أى شيء ينبع من الدولة ويخدم أولا وقبل كل شيء مصالح الدولة .

ولذلك يثبت نموذج القومية الرسمية صلاحيته قبل كل شيء عندما يسيطر الثوار بنجاح على السلطة فى الدولة ، ويصبحون لأول مرة فى مكانة تسمح لهم باستخدام سلطة الدولة كما يتراءى لهم ، وتكمن تلك الصلاحية فى أنه حتى أكثر الثوار راديكالية دائما ما يرثون -بدرجة أو بأخرى- الدولة من الحكم المنهار . وبعض هذه الموروثات رمزية ، ولكن أهميتها لا تقل لهذا السبب ؛ فبالرغم من عدم ارتياح تروتسكى عادت عاصمة الاتحاد السوفييتى إلى العاصمة القيصرية موسكو ولمدة ٦٥ عاما أسس قادة الحزب سياساتهم فى الكرملين قلعة السلطة القيصرية القديمة من دون كل الأماكن الممكنة فى أراضى الجمهوريات الاشتراكية الواسعة . وبنفس الشكل فإن عاصمة جمهورية الصين الشعبية هى بكين عاصمة المانشو بينما نقلها "شيانج كاى شك" إلى نانكينج ويجتمع قادة الحزب الشيوعى فى مدينة أبناء السماء المحرمة. فى الواقع

فإن هناك قلة -إن وجدت- من *القيادات الاشتراكية التي لم* تتسلق لتلك المقاعد القديمة الدافئة . وبدرجة أقل وضوحا ، فإن الثوار الناجحين يرثون كتابة الدولة القديمة وأحيانا يرثون الموظفين ودائما يرثون الملفات والأرشيف والقوانين والتسجيلات المالية والإحصاءات والخرائط والاتفاقات والمراسلات والمذكرات وما إلى ذلك مثل النظام الكهربى المعقد فى القصر الكبير عندما يهرب *المالك القديم* فتنتظر الدولة يد المالك الجديد على مفتاح النور لتعود إلى ما كانت عليه فى الماضى .

ولذلك فلا يجب أن يندهش المرء إذا لعبت القيادة الثورية بوعى أو غير وعى دور سيد القصر . ونحن لا نفكر هنا ببساطة فى توحيد "دجوجاشفيلي" لنفسه مع "إيفان جروزنى (الرهيب) "أو فى إعجاب "ماو" بالطاغية "تشين شيه هوانج تي" أو فى إحياء "جوسيف بروز" *للفخامة والطقوس الروريتانية*[8] ، وتدخل *"القومية الرسمية"* إلى أساليب القيادة فى مرحلة ما بعد الثورة بطرق أكثر عمقا ، وأعنى بذلك أن هذه القيادات تتبنى بسهولة الأساليب القديمة للأسر الحاكمة وللدول تحت حكم الأسرات . وفى حركة رد فعل مفاجئة أصبح الملوك الذين لم يكونوا يعرفون أى شيء عن الصين أو يوغوسلافيا أو فيتنام أو كمبوديا قوميين حتى ولو لم يكونوا فى بعض الأحيان يستحقون المواطنة . ومن هنا تأتى ميكيافيلية الدولة التى تمثل سمة واضحة لحكم ما بعد الثورة بالمقارنة بالحركات القومية الثورية . وكلما ازدادت الدولة القديمة القائمة على حكم الأسرة طبيعية كلما التفت بهرجتها القديمة حول أكتاف الثورة وصورة "أنجكور" ل"جايفارمان السابع" المزينة على علم كمبوديا الديموقراطية الماركسية -كما هم على أعلام جمهورية لون نول وكمبوديا سيهانوك الملكية- ليست كناية عن التقى بل عن القوة[9].

وأركز على القيادة ؛ لأن القيادة لا الشعب هى التى ترث لوحات التحكم والقصور القديمة . وأعتقد أن أحداً لا يتخيل أن الجماهير العريضة من الشعب الصينى لا تعبأ بما يحدث على الحدود الاستعمارية بين كمبوديا وفيتنام وليس أيضا من المعقول أن يكون الفلاحون الخامير والفيتناميون أرادوا حربا بين شعبيهما أو حتى استشارهم أحداً فى الأمر ، ولذلك فمن الحقيقى أن هذه الحروب كانت "حروبا مستشارية" والتى تحشد لها القومية الشعبية بشكل كبير بعد الحدث ودائما فى *لغة الدفاع عن النفس* ، ومن هنا جاء الحماس الضعيف فى الصين التى كانت فيها تلك اللغة غير ممكنة حتى تحت الشعارات النيون "للسيطرة السوفييتية"[10].

ولم تكن الصين وفيتنام وكمبوديا فى كل هذا فريدة بأى حال من الأحوال[١١] ، وهذا هو السبب فى وجود أرضيات صغيرة من الأمل فى أن السوابق التى وضعوها للحروب بين الدول الاشتراكية لن تتبع أو فى أن المجتمع المتخيل للقومية الاشتراكية سوف يتقادم. ولكن لا يمكن عمل أى شيء فعال لمنع هذه الحروب أو تحديدها إلا إذا هجرنا الخرافات من أمثال "الماركسيون ليسوا قوميين" أو "القومية هى علم أمراض تاريخ التطور الحديث" ، وبدلا من ذلك نبذل قصارى جهدنا لنتعلم تجارب الماضى الحقيقية والمتخيلة .

وكتب والتر بنيامين عن ملاك التاريخ أنه[١٢] :

> **اتجه وجهه ناحية الماضى ، وأينما ندرك سلسلة من الأحداث يرى كارثة واحدة تظل تكوم حطاما فوق حطام ، وتجمعه أمام قدميه يريد الملاك أن يبقى ، ويوقظ الموتى ، ويجمع ما كسر ، ولكن الريح تهب من الجنة ، ولكنها تحتبس فى جناحيه لدرجة أن الملاك لا يستطيع أن يضمهما من عنقها ، وتدفعه هذه العاصفة غير المقهورة إلى المستقبل الذى كان يدير ظهره إليه ، بينما تعلو كومة الحطام أمامه إلى السماء وهذه العاصفة هى ما نسميه التقدم .**

ولكن الملاك خالد ، ووجوهنا متجهة أمامنا ناحية المجهول .

## الهوامش

١) فى ص ١٧-١٨ والاقتباس الداخلى مأخوذ من Charles Fredeick Strong, Modern Political Constitutions, p.28.

٢) وطبقا لحسابات إدوين ويلز المستقاة من الجدول التاسع للنتائج النهائية لإحصاء السكان العام لعام ١٩٦٢ من وزارة التخطيط فى كمبوديا ، فإنه يقسم باقى طبقة العمال كالتالى : الموظفون الحكوميون والبرجوازيون الصغار الجدد ونسبتهم ٨ بالمائة ، والبرجوازية التقليدية الصغيرة كالتجار وما شابه ذلك ونسبتهم ٧ ونصف بالمائة ، العمال الزراعيين ونسبتهم ١ وثمانية من عشرة بالمائة ، والفلاحين ونسبتهم ٧٨ وثلاثة من عشرة بالمائة ، وكان هناك أقل من ١٣٠٠ من الرأسماليين الذين يملكون مؤسسات صناعية.

٣) Vietnam and the Chinese Model, pp. 120-21.

٤) ليس هذا غريبا كليا "كان الموظف الفيتنامى يبدو صينيا والفلاح الفيتنامى جنوب شرق آسيوى ، وكان لزاما على الموظف أن يكتب بالصينية ، ويرتدى رداء صينيا ويعيش فى بيت على الطراز الصينى ، ويركب عربة صينية الطراز ، ويتبع نفس العادات الاستهلاكية الصينية كضرورة أن يحتفظ بحوض لسمكة ال"جولد فيش" فى حديقة بيته الجنوب شرق آسيوي". المرجع السابق ص ١٩٩

٥) وطبقا لإحصاء ١٩٣٧ كان ٩٣ وخمسة وتسعون من مائة بالمائة من الشعب الفيتنامى يعيش فى المناطق الريفية ، ولم يكن هناك أكثر من عشرة بالمائة من المتعلمين لأى خط من الخطوط ، وفى الفترة ما بين ١٩٢٠ و١٩٣٨ لم يكمل أكثر من ٢٠,٠٠٠ شخص المدرسة الابتدائية العليا ، وقد كان عدد عائلات ما يسميه الماركسيون الفيتناميون "بالبرجوازية المحلية" والتى وصفها مار بأنها مجموعة من أصحاب الأرض مع بعض المقاولين وقليل من الموظفين الكبار لا يتجاوز ١٠,٥٠٠ عائلة أو حوالى خمسة بالمائة من السكان. Vietnamese tradition, 25-26, 34and37. قارن ذلك بالمعلومات فى الهامش ٢

٦) وكما كانت الحال مع البلشفيين كانت الكوارث السعيدة بالنسبة للصين والغزو الشامل لليابان فى ١٩٣٧ بالنسبة لفيتنام وانهيار خط ماجينو واحتلال اليابان المؤقت لها بالنسبة لكمبوديا وتدفق الحرب الأمريكية على فيتنام على حدودها الشرقية بعد مارس ١٩٧٠ ، وفى كل حالة من تلك الحالات فقد سقط الحكم القديم الموجود سواء كان كومينتانج أو فرنسى استعمارى أو ملكى إقطاعى على يد قوة خارجية.

٧) يستطيع المرء أن يقترح "نعم" للرعب وLevee en Masse ويقترح "لا" للترميدور والبونابارتية بالنسبة لفرنسا ، ويستطيع أن يقترح "نعم" لشيوعية العرب وشمولية وتجربة موسكو ، ويقترح "لا" للN.E.P والاستالينية بالنسبة للاتحاد السوفييتي. ويستطيع أن يقترح "نعم" لشيوعية حرب عصابات الفلاحين والقفزة الكبيرة للأمام والثورة الثقافية ويقترح "لا" للوشان بلينوم بالنسبة للصين. ويستطيع أن يقترح "نعم" لثورة أغسطس والحل السابق للحزب الشيوعى للهند الصينية فى ١٩٤٥ ، ويقترح "لا" لتحطيم الامتيازات الممنوحة للأحزاب الشيوعية الكبيرة كما هو ممثل فى اتفاقيات جنيف بالنسبة لفيتنام.

٨) انظر النص غير العادى الذى لا يمثل هجوما مطلقا بأى حال من الأحوال فى Milovan Djilas, Tito: the Story From Inside, chapter4 especially pp.133 ff.

٩) من الواضح أن النزعات التى تكلمنا عنها سابقا لم تكن مميزة بأى حال من الأحوال لأنظمة الحكم الثورية الماركسية وحدها . ولكن التركيز هنا على هذا النوع من الحكم بسبب الالتزام الماركسى التاريخى بعالمية الطبقات العاملة وتحطيم الدول الإقطاعية الرأسمالية وبسبب الحروب الجديدة فى الهند الصينية .

ولتفسير أيقونية حكم سوهارتو اليميني في إندونيسيا انظر كتابي Language and Power: Exploring Political Cultures in Indonesia, chapter5

١٠) والفرق بين اختراع "القومية الرسمية" واختراع أنواع أخرى عادة هو الفرق بين الكذب والأسطورة.

١١) وعلى الناحية الأخرى فمن الممكن بحلول نهاية هذا القرن أن يعزو المؤرخون المغاليات في "القومية الرسمية" التي ارتكبتها أنظمة الحكم الاشتراكي فيما بعد الثورة إلى الفاصل الكبير بين النموذج الاشتراكي والواقع الزراعي.

١٢) Illumination, p.259. العين الملاك هي عين كاميرا نهاية الأسبوع المتحركة المستديرة للخلف التي يتجمع أمامها الحطام مؤقتا فوق الطريق الذي لا يبدو أنه سينتهي أبدا قبل أن يختفي في الأفق.

# الفصـل العاشر

## التعداد ، الخريطة ، المتحف

كتبت فى النسخة الأصلية من كتاب "مجتمعات متخيلة" أن "المرء يرى كثيرا فى سياسات بناء الأمة فى الدول الجديدة كلا من حماس قومى شعبى حقيقى وعمليات زرع منظمة وميكيافيلية للأيديولوجية القومية عبر وسائل الإعلام ونظام التعليم والقوانين الإدارية وما إلى ذلك"[1] ، وكانت فرضيتى المحدودة النظرة إذ ذاك هى أن القومية الرسمية فى العالم المستعمر فى إفريقيا وآسيا كانت تقليدا مباشرا لنموذج الممالك القائمة على حكم الأسرات فى أوروبا فى القرن التاسع عشر . ولكن التأمل اللاحق أقنعنى أن هذه النظرة كانت متسرعة وسطحية ، وأنه يجب علينا تتبع الأصول المباشرة فى تخيلات الدولة المستعمرة . وقد تبدو تلك النتيجة غريبة للوهلة الأولى لأن الدول المستعمرة كانت ضد القومية وغالبا ما كانت ضدها بعنف . ولكن إذا ما نظر المرء وراء الأيديولوجيات والسياسات الاستعمارية وكذلك إلى السياق الذى استخدمت فيه تلك الأيديولوجيات والسياسات بداية من منتصف القرن التاسع عشر ؛ فيستتضح الخط أكثر وأكثر.

ولا شيء يوضح هذا السياق فى رسوم بارزة مرئية أكثر من ثلاث مؤسسات ذات قوة ، والتى -بالرغم من كونها اخترعت قبل منتصف القرن التاسع عشر- غيرت شكلها ووظيفتها عندما دخلت المناطق المستعمرة عصر الإنتاج الآلى ، وتلك المؤسسات الثلاث هى التعداد والخريطة والمتحف . وقد شكلت مجتمعة وبشكل جوهرى الطريق الذى تخيلت من خلاله الدول المستعمرة مناطق نفوذها وطبيعة البشر الذين تحكمهم وجغرافية مكانها وشرعية سلفها . ولكى نكتشف شخصية تلك السلسلة المترابطة فسأركز اهتمامى فى هذا الفصل على جنوب شرقى آسيا ، وذلك لأن نتائجى غير نهائية فى أماكن أخرى وتوجهات تخصصى محدودة بتلك المنطقة . ومع ذلك فإن جنوب شرق آسيا يقدم لمن لديه اهتمامات تاريخية مقارنة ميزة خاصة ؛ لأنها تتضمن أراض احتلتها من قبل كل القوى الاستعمارية "البيضاء"وهى بريطانيا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال وهولندا والولايات المتحدة ، وكما تحوى أيضا سيام غير المستعمرة

وسوف يكون القراء ذوى المعرفة بمناطق أخرى من إفريقيا وآسيا أكثر منى قدرة على الحكم بما إذا كانت آرائى منطبقة أيضا على نطاق تاريخى وجغرافى أوسع.

## التعداد

لقد بدأ عالم الاجتماع تشارلز هيرشمان فى بحثين معاصرين قيمين دراسة عقلية صناع التعداد البريطانيين الاستعماريين فى عمل تعداد لمستوطنات المضايق وشبه جزيرة الملايو ودراسة عقلية خلفهم الذين يعملون لحساب دولة ماليزيا المستقلة المختلطة[٢] ، وتظهر النسخ طبق الأصل ل"تصنيفات الهوية" من تعدادات متتالية من أواخر القرن التاسع عشر وحتى الوقت الحاضر . لدى هيرشمان سلسلة من التغيرات السريعة بشكل كبير والعشوائية فى ظاهرها والتى تتكتل فيها التصنيفات وتفصل ويعاد تجميعها وتختلط ويعاد تنظيمها بشكل مستمر ولكن تصنيفات الهوية القومية سياسيا دائما ما تتصدر القائمة ، ويصل من خلال عمليات التعداد تلك لنتيجتين أساسيتين: الأولى هى لما تحولت الفترة الاستعمارية أصبحت تصنيفات التعداد عنصرية بشكل أوضح وأكثر حسما[٣] ، ومن ناحية أخرى فقد اختفت الهوية الدينية كتصنيف إحصائى أولى بالتدريج ، وقد اختفى الهندوس الذين كانوا يصنفون مع الكلنجيين والبنغاليين بعد أول تعداد فى ١٨٧١ ، وبقى البارسيون حتى تعداد عام ١٩٠١ الذى ظهروا فيه أيضا تحت التصنيف الواسع "التاميل والسكان الأصليين الآخرين فى الهند" مجموعين مع البنغاليين والبورميين والتاميل . والنتيجة الثانية التى وصل إليها هى أنه على العموم قد حوفظ على التصنيفات العنصرية الكبيرة بل حتى كثفت بعد الاستقلال ، ولكنها الآن -أى بعد الاستقلال- أعيد تصنيفها وترتيبها لتكون "صينية" أو "ماليزية" أو "هندية" وما إلى ذلك ، ولكن الشواذ استمرت فى الظهور حتى الثمانينيات من هذا القرن ففى تعداد ١٩٨٠ ما زال السيخ يظهرون كتصنيف عرقى جانبى تحت الاسم العام "هندية" مع الملاياويين والتيليجو والباكستانيين والبنجلادشيين والتاميل السرلانكيين وباقى السريلانكيين.

ولكن نسخ هيرشمان الأصلية تشجعنا على أن نتخطى اهتماماته التحليلية ؛ فخذ على سبيل المثال تعداد عام ١٩١١ فى ولايات الملايو المتحدة الذى يتضمن تحت عنوان "الشعب الملاوى بالأجناس" الملاويين والجاويين والساكاى والبنجاريين والبويانيين والمندلينج والكرنشى والجامبى والأخينيين البوجيين وغيرهم ، وقد جاءت كل تلك المجموعات فيما عدى معظم الملاويين والساكاى من جزر سومطرا وجاوا وجنوب

بورينو ، وكلها أجزاء من مستعمرة الهند الشرقية الهولندية الضخمة المجاورة . ولكن تلك الأصول من خارج الفيدرالية الماليزية لا تحظى بأى اعتراف من القائمين على التعداد الذين -فى بنائهم للاويهم- يحددون نظرة أعينهم بتواضع لحدود مستعمرتهم . ولا نحتاج أن نقول إنه عبر البحر كان الهولنديون القائمون على التعداد يبنون توهما مختلفا للملايو كعرقية تحتية بجانب - وليست أعلى من - الأخينية والجاوية وما شابه ذلك وتشير جامبى وكرنشى إلى أماكن -وليست إلى أشياء- يمكن التعرف عليها ولو من بعيد على أنها كيان عرقى لغوى . ولكنه من غير الممكن أن تكون أكثر من فئات صغيرة من تلك الجماعات المصنفة تصنيفات أساسية وتحتية فى ١٩١١ قد أدركت نفسها وعرفتها تحت تلك التصنيفات والمسميات . وما تزال تلك "الهويات" التى تخيلتها العقول التصنيفية المضطربة للدولة الاستعمارية تنتظر أن توضع فى حيز مادى والذى سيوفره تدخل الإدارة الاستعمارية بشكل سريع . ويلاحظ المرء بالإضافة إلى ذلك حب القائمين على التعداد للاكتمال والوضوح ، ومن هنا يأتى عدم تسامحهم مع الهويات المتغيرة أو الغامضة . ومن هنا تأتى التصنيفات التحتية المتعددة "الآخرين" تحت كل مجموعة عنصرية والتى مع ذلك لا تتشابه مع باقى "الآخرين" وخيالية التعداد هى أن كل إنسان داخل فيه وكل فرد له مكان واحد فقط خاص به واضح تمام الوضوح .

وكان لهذا الشكل من التخيل الذى توهمته الدولة الاستعمارية أصول أقدم من تعدادت السبعينيات من القرن التاسع عشر ، ولذلك - من أجل أن نفهم جيدا لماذا كانت تعدادات أواخر القرن التاسع عشر بالرغم من ذلك جديدة جدا - فسيكون من النافع أن ننظر للوراء إلى الأيام الأولى للدخول الأوروبى فى جنوب شرقى آسيا . وسينفعنا هنا مثلان مأخوذان من أرخبيلى الفلبين وإندونيسيا . وقد حاول ويليام هنرى سكوت فى كتاب جديد ومهم بكل تدقيق أن يعيد بناء الطبقات الفلبينية قبل الإسبان على أساس التسجيلات الإسبانية المبكرة(٤) ، ومن منطلق كونه مؤرخا محترفا فقد كان سكوت واعيا تماما أن الفلبين تأخذ اسمها من فيليب الثانى ملك إسبانيا ، وأنه لو لم تكن هناك فرصة أو لحسن الحظ فقد كان من الممكن أن يقع الأرخبيل فى أيدى الهولنديين أو الإنجليز أو يقسم سياسيا أو يضم لفتوح أخرى(٥) ، ومن المغرى إذن أن نعزو اختياره الغريب للموضوع لإقامته الطويلة فى الفلبين وتعاطفه الشديد مع القومية الفلبينية على درب جنات عدن السكان الأصليين منذ قرن وحتى الآن . ولكن من المرجح أن الجذور العميقة لتشكيل فكرته كانت هى المصادر

التى أجبر على الاعتماد ؛ عليها ، لأن الحقيقة هى أنه أينما ذهب الفاتحون ورجال الدين الأوائل فى الجزر فقد رأوا الأمراء والنبلاء والأناس العاديين والعبيد. وهذا التصنيف مأخوذ من التصنيف الاجتماعى فى أيبيريا فى أواخر العصور الوسطى . وتقدم الوثائق التى تركوها الكثير من القرائن على أن النبلاء لم يكونوا واعين بوجود بعضهم البعض بشكل كبير فى الأرخبيل المتناثر الضخم غير المأهول فى معظمه . وعندما كانوا واعين بهذا الوجود كانوا ينظرون لبعضهم البعض ليس على أنهم نبلاء بل أعداء أو عبيد المستقبل . ولكن قوة الشبكة كانت عظيمة لدرجة أنها همشت تلك القرائن فى توهم سكوت ؛ ولذلك فقد كان من الصعب عليه أن يرى أن "التركيب الطبقي" لفترة ما قبل الاستعمار ما هو إلا تخيل "تعدادي" خلقته مؤخرات الغليونات الإسبانية ، فأينما ذهبت تلك السفن فقد ظهر النبلاء والعاديون بنفس هذا التركيب ؛ لأنه لم يكن من الممكن أن تجمعهم الدولة الاستعمارية الأولية إلا كذلك ؛ أى فى شكل بنيوى .

وبفضل أبحاث ماسون هودلى عن إندونيسيا فإن لدينا وصفا مفصلا لقضية هامة فصل فيها فى مدينة كيريبون الساحلية فى جاوا فى أواخر القرن السابع عشر(٦) ، ولحسن الحظ فإن التسجيلات الهولندية والكيريبونية المحلية ما زالت متاحة ؛ فإذا بقى الوصف الكيريبونى وحده فكنا سنعرف أن المتهم بالقتل كان موظفا كبيرا فى البلاط الكيريبونى ، وكنا سنعرف لقبه فقط "كى أريا مارتا نينجرات" وليس اسمه الشخصى وتعرفه التسجيلات الهولندية مع ذلك على أنه صينى . وفى الواقع فإن هذه هى أهم المعلومات التى تقدمها تلك التسجيلات عنه . ومن الواضح إذن أن البلاط الكيريبونى صنف الناس طبقا للمكانة والمرتبة ، بينما صنفت الشركة الناس بشيء "كالجنس" ولا يوجد أى سبب لنعتقد أن المتهم بالقتل الذى تبرر مكانته العالية انضمامه وأسلافه للبلاط الكيريبونى بغض النظر عن أصولهم يفكر فى نفسه على أنه صينى . ولكن كيف وصل الهولنديون لهذا التصنيف؟ ومن أى المعلومات استطاعوا أن يصلوا إلى أنه صيني؟ بالطبع من تلك السفن التجارية التى دارت بلا توقف بسبب الإدارة المركزية من ميناء لميناء بين خليج ميرجوى وفم يانجاتسى كيانج . وقد توهمت الشركة ناسية الشعوب غير المتجانسة فى المملكة الوسطى وعدم الفهم بين العديد من لغات الحديث فيها والأصول الجغرافية والاجتماعية لتشتيتهم فى سواحل جنوب شرق آسيا ، توهمت بعينها العابرة للمحيط عددا كبيرا لا نهاية له من الصينيين . كما رأى الفاتحون أعدادا لا حصر لها من النبلاء. وعلى أساس ذلك التعداد الخلاق بدأت تصر

على أن يرتدى الواقعون تحت سيطرتها والذين صنفتهم كصينيين يقيمون ويتزوجون ويدفنون ويملكون طبقا لهذا التعداد . ويبدو من الغريب أن الأيبيريين ذوى العقول التجارية تخيلوا تصنيفات إحصائية مختلفة تماما فى الفلبين وهو ما سموه سانجلى وهى عملية "التاجر" الهوكينى للإسبانية(٧) ، ويستطيع المرء أن يتخيل رجال التعداد الإسبان الأوائل وهم يسألون التجار الذين جلبتهم لمانيلا تجارة الغليون "من أنتم؟" ويتلقون الإجابة ببساطة "نحن تجار."(٨) ولما كان الإسبان لا يبحرون فى البحور الآسيوية السبعة فقد بقى الأيبيريون لمدة قرنين فى غموض مفهومى محلى مريح وتحول السانجالى ببطء لصينى ؛ حتى اختفت الكلمة فى أول القرن التاسع عشر لتفسح الطريق لكلمة تشينو.

وكان التجديد الحقيقى -لذلك- لعمال التعداد فى ١٨٧٠ ليس فى تكوين تصنيف عرقى جنسى ، ولكن فى قياسهم المنظم . وقد حاول حكام عالم المالايو الجاوية قبل الاستعمار إقامة تعدادات الشعوب الواقعة تحت سيطرتهم ، ولكنها أخذت شكلها لجمع الضرائب أو قوائم التجنيد ، وكانت أغراضهم محددة وملموسة ألا وهى الاحتفاظ بمعلومات عن أولئك الذين يمكن أن تفرض عليهم الضرائب والخدمة العسكرية ، وذلك لأن هؤلاء الحكام كانوا مهتمين أساسا بالفائض الاقتصادى والقوة العسكرية . ولم تختلف أنظمة الحكم الأوروبية الأولى فى المنطقة كثيرا فى هذا المجال عن سابقاتها. ولكن بعد ١٨٥٠ استخدمت السلطات الاستعمارية وسائل إدارية معقدة بشكل متزايد لتعداد السكان متضمنين النساء والأطفال الذين تجاهلهم الحكام القدامى طبقا لمتاهة من الشبكات التى لم يكن لها غرض مالى أو عسكرى مباشر. ففى الماضى كان الأفراد الذين تجب عليهم الضرائب أو التجنيد يعرفون جيدا كثرة عددهم . عادةً كان الحاكم والمحكوم يفهمون بعضهم البعض جيدا ولو بشكل عدائى فى تلك المسألة . ولكن بحلول ١٨٧٠ استطاعت المرأة الكوتشين الصينية التى لا تدفع الضرائب والتى لا تخدم فى الجيش أن تعيش حياتها بسعادة أو ببؤس فى مستوطنات المضايق دون أن تكون واعية أن حياتها تلك مقننة ومخططة من أعلى . وتتضح هنا خصوصية التعدادات الجديدة ؛ فقد حاولت بكل عناية أن تحصى عناصر تخيلها المحموم مع الطبيعة الاستغراقية للنظام التصنيفى ومنطق القياس نفسه ؛ فكان الكوتشين الصينى يفهم على أنه رقم واحد ضمن سلسلة قابلة للتعداد من الكوتشين الصينيين القابلين للحلول مكان بعضهم البعض – بالطبع داخل نطاق الدولة

. وقد عمقت الطبوغرافيا السكانية الجديدة جذورا اجتماعية وسياسية عميقة كلما تضاعف حجم الدولة الاستعمارية ووظيفتها . فقد نظمت، مصحوبة فى ذلك بخريطتها المتخيلة ، بيروقراطياتها القضائية والتعليمية والصحية وبيروقراطيات الهجرة التى كانت تقوم على مبدأ الأهرام العنصرية العرقية ، التى كانت دائما مع ذلك تفهم فى سياق سلاسل متوازية . وقد أوجد انسياب رعايا الشعوب من خيوط شبكة المدارس المختلفة والبلاط والعيادات ومراكز الشرطة ومكاتب الهجرة "عادات مرورية" أعطت بمرور الزمن حياة اجتماعية حقيقية لخيالات الدولة المبكرة .

ولا نحتاج أن نقول إن الأمر لم يكن سهلا ، وإن الدولة كثيرا ما وجدت حقائق مزعجة ، كان أهمها على الإطلاق هو الانتساب الدينى الذى كان يمثل أساسا لمجتمعات متخيلة قديمة جدا وثابتة جدا لا تتوحد إطلاقا مع خريطة شبكة السيطرة للدولة الدنيوية المدنية . وقد كان الحكام فى مختلف مستعمرات جنوب شرق آسيا وبدرجات متفاوتة مضطرين لتوفير مكان بشكل عشوائى وخاصة للإسلام والبوذية . واستمرت المزارات الدينية والمدارس وبعض أنواع البلاط المعينة فى الازدهار . وكان الدخول إليها محكوما بالاختيار الفردى الشعبى لا التعداد. ولا تستطيع الدولة أن تفعل أكثر من أن تحاول تنظيم وتحديد وعد وتقنين وإخضاع تلك المؤسسات لها بشكل هرمي(٩). والسبب فى ذلك بمنتهى الدقة هو أن المعابد والمساجد والدارس والساحات كانت ذات شكل طبوغرافى غير عادى ؛ لدرجة أنها كانت تعرف بأنها مناطق للحرية وساعة الحاجة قلاعا يستطيع أن يخرج منها المناهضون للاستعمار من المتدينين ، والقوميين بعد ذلك ، للمعركة . وفى نفس الوقت كانت هناك محاولات متعددة لفرض تحالف أفضل بين مجتمعات التعداد والمجتمعات الدينية المتخيلة عن طريق تعريق -بقدر ما كان متاحا- المجتمعات الدينية المتخيلة من قبل السياسة والقانون . فى الولايات الفيدرالية فى الملايو الاستعمارية ، كانت تلك المهمة سهلة نوعا ؛ فهؤلاء الذين نظر إليهم الحكم على أنهم من سلسلة الملايو قد دفعوا إلى محاكم سلاطينهم المخصيين التى كانت تدار فى أغلبها بالشريعة الإسلامية(١٠) . وقد عومل "الإسلامي" على أنه اسم آخر "للملايو" ، وفى عام ١٩٥٧ وبعد الاستقلال بذلت بعض الجماعات السياسية مجهودا لقلب ذلك المنطق عن طريق قراءة "الملايو" على أنه اسم آخر "للإسلامي". وفى الهند الهولندية الواسعة المتعددة الأجناس التى حققت فيها - بنهاية الفترة الاستعمارية - مجموعة من المنظمات التبشيرية المتصارعة عمليات تحويل دينى

واسعة فى مناطق متفرقة واسعة فقد واجهت نزعة موازية عقبات كبيرة . وحتى هناك فقد شهدت العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن نشأة المسيحية العرقية كالكنيسة الباتاكية وكنيسة الكارو ، وبعد ذلك كنيسة الداياك ، والتى ظهرت جزئيا بسبب تخصيص الدولة مناطق دعوة للجماعات التبشيرية المختلفة بحسب طبوغرافية التعداد الخاصة بالدولة . ونجحت باتافيا مع الإسلام نجاحا مماثلا ؛ فلم تجرؤ أن تمنع الحج إلى مكة مع أنها حاولت أن تمنع ازدياد أعداد الحجاج وخفرت رحلاتهم وتجسست عليهم من نقطة مراقبة فى جدة أقيمت خصيصا لذلك . ولم تكف أى من تلك الإجراءات لمنع تكثيف الاتصالات بين المسلمين الهنود والعالم الإسلامى الواسع بالخارج وخاصة التيارات الفكرية الجديدة الخارجة من القاهرة[١١].

## الخريطة

ولكن ، فى نفس الوقت ، بدأ ينظر إلى كل من القاهرة ومكة بشكل جديد غريب ؛ فلم يعد ينظر إليهما على أنهما مكانين فى جغرافية إسلامية مقدسة ، ولكن أيضا على أنهما نقطتان على ورق يحتوى أيضا على نقط لباريس وموسكو ومانيلا وكاراكاس . وتحددت العلاقة الواضحة بين تلك النقط الدنيوية والمقدسة بطيران الخط المستقيم المحسوب رياضيا ليس غير . فقد بدأت الخريطة المركاتورية ( هى الخريطة التى تظهر فيها خطوط الطول والعرض على شكل خطوط مستقيمة وليست منحنية) التى أحضرها المستعمرون الأوروبيون فى تشكيل تخيل الجنوب شرق آسيويين من خلال الطباعة .

وتتبع المؤرخ التايلندى "تونجشاى ويتشاكول" فى رسالة حديثة رائعة العمليات المعقدة التى جاءت سيام ذات الحدود من خلالها إلى الوجود فى الفترة ما بين ١٨٥٠ و١٩١٠[١٢] وأطروحته نافعة ؛ لأن سيام لم تقع تحت الاستعمار بالرغم من أن ما أصبح فى النهاية حدودها حدده الاستعمار . ولذلك وفى حالة تايلند يستطيع المرء أن يرى وبوضوح على غير العادة ظهور عقلية دولة جديدة داخل بنية قوة سياسية "تقليدية" .

وحتى تتويج الذكى راما الرابع فى ١٨٥١ المونجكوت فى كتاب "الملك وأنا" كان هناك نوعان من الخرائط فى سيام ، وكلا النوعين كان يدويا ؛ فلم يكن عصر الإنتاج الآلى قد بدأ هناك بعد . النوع الأول هو ما يمكن تسميته "الكوزموغراف" وهو التمثيل

الرمزى الرسمى للعوالم الثلاثة الموجودة فى رؤية العالم البوذية التقليدية . ولم يكن الكوزموغراف منظما تنظيما أفقيا مثل خرائطنا ، ولكنها سلسلة من السماوات فوق الأرض ومجموعة من الجحيم تحت الأرض تتصل بالعالم المرئى من خلال محور رأسى واحد ، ولم تكن تلك الخريطة نافعة لأى رحلة إلا رحلة الفوز والخلاص . والنوع الثانى من الخرائط نوع عادى وليس مقدسا أبدا ، ويتكون من مرشدات وصفية للحملات العسكرية والشحن الساحلى . وكانت صفاتها الأساسية ملحوظات مكتوبة فى أوقات الزحف والإبحار المطلوبة ؛ لأن صناع تلك الخرائط لا يملكون مفاهيم تقنية بالمقاييس ؛ لأنها منظمة بحسب الكوادرانت ( آلة لقياس الأبعاد) ؛ ولما كانت تلك الخرائط تغطى مساحات أرض ليست مقدسة فقد كانت دائما مرسومة بمنظور منحرف أو مائل أو مرسوم بخليط من المناظير كما لو كانت عين الراسم معتادة من الحياة اليومية على أن ترى الأرض بشكل أفقى على مستوى النظر. ولكن ذلك النوع من الخريطة تأثر بالكوزموغراف فى رأسيته . ويوضح ثونجوشاى أن تلك الخرائط الإرشادية -وقد كانت دائما محلية- لم توضح أبدا فى سياق جغرافى أكبر ، وكان مفهوم الخرائط الحديثة فى النظرة الشمولية العالية غريبا تماما عنها .

ولم يحدد كلا النوعين من الخرائط الحدود ، وكان محددوا ، وكان رسامو الحدود يجدون تلك الصياغة الأنيقة التالية التى صاغها ريتشارد موور غير مفهومة:[١٢]

> **إن للحدود الدولية أهمية خاصة فى تحديد حدود السلطة الرسمية وتعريف المساحة الأرضية للمناطق السياسية التابعة ، لأنها قائمة عند نقاط الالتقاء بين أراضى الدول المتجاورة . . . وتظهر الحدود أينما تقطع نقاط الالتقاء الرأسية بين سيادات الدول سطح الأرض . . . . وليس للحدود امتداد أفقى بما أنها نقاط التقاء رأسية. . .**

وقد كانت أحجار الحدود والمحددات المماثلة موجودة ، وتضاعفت فى الواقع على طول الأطراف الغربية للدولة لما كان البريطانيون يضغطون من بورما السفلى. ولكن لم توضع حجارة الحدود تلك بشكل مستمر عند النقاط الجبلية الاستراتيجية والأماكن التى يسهل خوضها فى النهر ، وكانت غالبا على مسافة كبيرة من حجارة الحدود المماثلة التى يضعها الأعداء . فقد كان الناس يدركونها أفقيا على مستوى البصر كنقاط امتداد للسلطة الملكية "ولا يرونها من الهواء". وفقط فى السبعينيات من القرن التاسع عشر بدأ القادة التايلنديون فى التفكير فى الحدود على أنها علامات خط

مستمر على الخريطة ، والذى لا يماثل شيئا مرئيا على الأرض ، ولكنه خط يميز سيادة بين سيادات أخرى . وفى ١٨٧٤ ظهر أول كتاب جغرافيا كتبه المبشر الأمريكى "ج . و . فان دايك" ، وكان ذلك منتجا مبكرا للرأسمالية الطباعية التى كانت ساعتها تدخل سيام بقوة . وفى ١٨٨٢ أسس راما الخامس مدرسة خرائط متخصصة فى بانكوك ، كما جعل وزير التعليم الأمير دامرونج راجانوفاب الجغرافيا مادة إجبارية فى المرحلة الثانوية فى نفس العام فى إطار تشغيل نظام تعليم على الطراز الحديث فى الدولة . وفى حوالى ١٩٠٠ نشر كتاب "جغرافية سيام" لكاتبه و. ج . جونسون، الذى يعد نموذج كل كتب الجغرافيا المطبوعة عن الدولة منذ ذلك التاريخ فصاعدا[١٤] . ويذكر ثونجشاى أن التداخل الناجح بين الرأسمالية الطباعية والمفهوم الجديد عن الحقيقة المكانية الذى تقدمه تلك الخرائط كان له أثر مباشر على مفردات السياسة التايلندية . وفى الفترة بين ١٩٠٠ و١٩١٥ اختفت كلمات تقليدية مثل "كرونج" و"موانج" لحد كبير ؛ لأنها صورت مناطق السيادة فى شكل عواصم مقدسة ومراكز سكنية مرئية منفصلة [١٥] وحل محلها كلمات مثل "براتهيت" أى "البلد" التى صورت مناطق النفوذ على أساس غير مرئى من مساحة مكانية محددة[١٦].

وقد عملت الخرائط المصنوعة على الطراز الأوروبى مثلما كان الحال مع التعداد على أساس تصنيف إجمالى ، وقادت منتجيها ومستهلكيها البيروقراطيين تجاه سياسات ذات نتائج ثورية . ومنذ اختراع جون هاريسون لكرونوميتر فى ١٧٦١ والذى سهل الحساب الدقيق لخطوط الطول فقد خضع كل سطح الأرض المستدير للشبكة الهندسية التى رسمت فى مربعات البحور الفارغة والمناطق غير المكتشفة فى صناديق محسوبة[١٧]. وكانت مهمة "ملء" الصناديق ملقاة على عاتق المكتشفين والماسحين والقوات المسلحة . وفى جنوب شرق آسيا كان النصف الثانى من القرن التاسع عشر هو العصر الذهبى للماسحين العسكريين الاستعماريين ، ثم التايلنديين بعد ذلك بقليل ؛ فقد كانوا على الطريق لوضع المساحة المكانية تحت نفس الإشراف الذى حاول رجال التعداد وضع البشر تحته. وقد استمر تحالف الخريطة مع القوة فى كل مسح وحربا حربا واتفاقية اتفاقية ، وكما تقول كلمات ثونجشاى المناسبة[١٨]:

> **انطلاقا من معظم نظريات التواصل ومن القياس العقلى ؛ فإن الخريطة تجريد علمى للواقع وكل ما تفعله الخريطة هو تمثيل لشيء ما موجود فعلا وجودا مكانيا . وفى التاريخ الذى وصفته كانت تلك**

**العلاقة مقلوبة ؛ فالخريطة هى التى تسبق الواقع المكانى وليس العكس . وبصياغة أخرى فإن الخريطة نموذج لما تنوى تمثيله وليس نموذجا منه . . . فقد أصبحت وسيلة حقيقية لتجسيد المناظير على سطح الأرض . فالخريطة الآن ضرورية لآليات الإدارة الجديدة والقوات لتمتنع عن ادعاءاتها . . . إن منطق الخريطة كان الإطار الذى عملت من خلاله العمليات الإدارية والعسكرية وخدمته .**

وبانقلاب القرن وضعت أنشطة الإدارة فى المملكة فى النهاية على أسس من الخرائط الأرضية الشاملة متبعة بذلك الممارسات السابقة فى المستعمرات المجاورة ، وذلك مع إصلاحات الأمير ديمارونج فى وزارة الداخلية .

ولن يكون من الحكمة أن نتجاهل التداخل الحاسم بين الخريطة والتعداد ؛ لأن الخريطة الجديدة ساهمت إسهاما كبيرا فى حل السلاسل اللا نهائية من "*الهاكا*" و"السريلانكيين غير التاميل" و"الجاويين" التى اصطنعتها الأساليب الرسمية للتعداد بالتحديد المكانى للمكان الذى انتهوا فيه لأغراض سياسية. وبهذا الشكل وبنوع من التقسيم السكانى ، فقد ملأ التعداد سياسيا الطوبوغرافية الرسمية للخريطة.

وقد نتج عن هذه التغيرات تجسيدان نهائيان للخريطة -وقد أسستهما الدولة الاستعمارية فى أواخر أيامها- والتى تتنبأ بالقومية الرسمية فى جنوب شرق آسيا فى القرن العشرين . وقد حاول الأوروبيون مرارا -لأنهم يأتون من حضارة كان فيها وراثة وانتقال حيازة الملكية المكانية قانونيا قد استقر منذ زمن طويل[١٩]- أن ينقلوا انتشار قوتهم إلى حيز الشرعية عن طريق وسائل تصتبغ بصبغة قانونية ؛ لأنهم كانوا يعرفون جيدا وضعهم المتطفل فى المناطق الاستوائية البعيدة . ومن ضمن أشهر تلك الوسائل "وراثتهم" للسيادات المشكوك فيها للحكام من السكان الأصليين الذين محاهم الأوروبيون أو وضعوهم تحت سيطرتهم . وفى كلا الحالين كان المغتصبون للسلطة مشغولين -وخاصة فى مواجهة الأوروبيين الآخرين- بإعادة بناء تاريخ الملكية لممتلكاتهم الجديدة ؛ ومن هنا جاء ظهور "*الخرائط التاريخية*" ، وخاصة فى أواخر القرن التاسع عشر والتى صممت -فى المنطق الكرتوجرافى الجديد- لتبين قدم وحدات مكانية معينة متحدة اتحاداً كبيرا . وقد جاء إلى الوجود نوع من القص السياسى الذى يحكى -أحيانا بعمق تاريخى كبير- سيرة المملكة من خلال توالى الخرائط المرتبة ترتيبا زمنيا[٢٠] ، وقد تبنت الدول القومية التى أصبحت وريثة الولايات

الاستعمارية فى القرن العشرين هذا القص(٢١).

والتجسيد الثانى هو الخريطة فى شكل اللوجو ، وقد كانت أصولها بريئة لحد كبير . وهذه الجذور هى تلوين الدولة الاستعمارية لمستعمراتها على الخريطة بالأصباغ الاستعمارية ؛ ففى لندن كانت المستعمرات البريطانية مصبوغة بلون أحمر قرمزى وكانت المستعمرات الفرنسية زرقاء والهولندية بنية .. وهكذا . وصبغ المستعمرات بهذا اللون يجعل كلا منها تظهر وكأنها قطعة يمكن فصلها مثل أحجيات الصور المقطوعة puzzle ، وعندما أصبح مفهوم العزل هذا عاديا بات من الممكن عزل كل "قطعة" عن سياقها الجغرافى ؛ فأصبح من الممكن إلغاء الشروح التفسيرية فى شكلها النهائى كإلغاء خطوط الطول وخطوط العرض وأسماء الأماكن وعلامات الأنهار والبحار والجبال وإلغاء الجيران أحيانا . ولم تعد العلامات الصرف تلتف حول العالم ، وبهذا الشكل دخلت الخريطة سلسلة من الإنتاج وإعادة الإنتاج القابل لأن يتحول إلى ملصقات وأختام رسمية ورؤوس خطابات وأغطية مجلات وكتب ومفارش للمنضدة وحوائط الفنادق . ولأنها كانت سهلة التعرف بسرعة وموجودة فى كل مكان ، فقد توغلت الخريطة اللوجو فى الخيال الشعبى مشكلة رمزا قويا للقومية الوليدة المعادية للاستعمار(٢٢).

وتقدم لنا إندونيسيا الحديثة مثلا جيدا ومؤلما لهذه العملية ، ففى ١٨٢٨ أقيمت أول مستوطنة هولندية على جزيرة غينيا الجديدة . وبالرغم من أن تلك المستوطنة كان يجب أن تهجر فى ١٨٣٦ ، فقد أعلن التاج الهولندى سيادته على تلك البقعة من الجزيرة على خط طول ١٤١ –وهو خط غير مرئى لا يوافق شيئا على الأرض ، ولكنه مرسوم فى صندوق فى مساحات كونراد البيضاء المتناهية – فيما عدى بعض الامتداد الساحلى المعروف أنه تحت سيطرة سلطان تيودور. وفى ١٩٠١ فقط اشترى الهاجو السلطان وضموا غرب غينيا الجديدة للهند الهولندية فى الميعاد المناسب لعملية التكعيب أو اللوجو (هى عملية ضم وقص ولصق للمستعمرات لتكون كلا متكاملا) ، وبقيت أجزاء كبيرة من المنطقة بيضاء بمفهوم كونراد حتى نهاية الحرب العالمية الثانية . وكان أغلب الهولنديين القليلين الموجودين هناك من المبشرين والمنقبين عن المعادن وحكام بعض معسكرات والسجون لتعذيب القوميين الإندونيسيين الراديكاليين حتى الموت . وقد اختيرت المستنقعات فى شمال ميراوك فى أقصى الجنوب الشرقى لغينيا الجديدة الهولندية كأماكن لهذه الأمور؛ لأن المنطقة معزولة تماما عن باقى المستعمرة ،

وكان ينظر إلى السكان المحليين سكان "العصر الحجري" على أن التفكير القومى لم يلوثهم[٢٣].

وقد أعطى اعتقال ودفن الشهداء القوميين هناك غربى غينيا الجديدة مكانة هامة في فولكلور الصراع ضد الاستعمار ، وجعلتها مكانا مقدسا فى الخيال القومى فإندونيسيا الحرة تمتد من سابانج فى أقصى شمال غرب سومطرا إلى ميراوك . ولم يكن فى الأمر مشكلة سوى أنه فيما عدى المئات القليلة من المعتقلين لم يشاهد أى قومى غينيا الجديدة بعينيه حتى الستينات من هذا القرن . ولكن خرائط اللوجو الهولندية للمستعمرة امتدت فى المستعمرة طولا وعرضا موضحة غرب غينيا الجديدة دون شرقها ومقوية بشكل غير واع الروابط المتخيلة . وعندما أجبر الهولنديون على التخلى عن السيادة على الأرخبيل لولايات إندونيسية المتحدة فى أعقاب الحروب الشرسة المعادية للاستعمار فى الفترة ما بين ١٩٤٥-٤٩ ١٩ حاولوا -لأسباب لا نحتاج أن نقف أمامها الآن - فصل غرب غينيا الجديدة مرة أخرى والمحافظة عليها بشكل مؤقت تحت الحكم الاستعمارى وإعدادها لقومية جديدة مستقلة . ولم تترك هولندا هذه المسألة حتى ١٩٦٣ كنتيجة للضغط الدبلوماسى الأمريكى الضخم والغارات العسكرية الإندونيسية . وعندئذ زار الرئيس سوكارنو فى سن الثانية والستين المكان الذى طالما تحدث عنه طويلا لمدة أربعين عاما لأول مرة . ويمكن أن نعزو العلاقات المؤلمة بين شعب غرب غينيا الجديدة ومبعوثى الدولة الإندونيسية المستقلة ؛ لأن الإندونيسيين كانوا ينظرون إلى هذه الشعوب بإخلاص على أنهم "أخوة وأخوات" بينما كانت الشعوب نفسها تنظر للأمر بشكل مختلف تماما[٢٤].

وهذا الاختلاف مدين كثيرا للتعداد والخريطة . وقد خلق بعد غينيا الجديدة ووعورة تضاريسها تشرذما لغويا غير عادى عبر مدة طويلة من الزمن . وعندما غادر الهولنديون المنطقة فى ١٩٦٣ قدروا وجود أكثر من ٢٠٠ لغة غير مفهومة لبعضها البعض فى مجموع السكان البالغ عددهم ٧٠٠,٠٠٠ نسمة[٢٥] ، ولم تكن المجموعات القبلية الأبعد واعية على الأقل بوجود بعضها البعض . ولكن ، وخاصة بعد ١٩٥٠ ، حاول المبشرون والموظفون الهولنديون محاولات جادة لأول مرة لتوحيدها بعمل التعداد وتوسيع شبكات الاتصالات وبناء المدارس وتأسيس بناء حكومى فوق القبائل . وقد قامت بهذا المجهود دولة استعمارية كانت فريدة -كما قلنا سابقا- فى أنها حكمت الهند ليس من خلال لغة أوروبية ، ولكن من خلال "الملاوية الإدارية"[٢٦] . ومن هنا

تربت منطقة غرب غينيا الجديدة بنفس اللغة التى تربت بها إندونيسيا سابقا والتى أصبحت اللغة القومية بعد ذلك . وثمة تناقض فى أن اللغة الإندونيسية أصبحت اللغة المشتركة للقومية الوليدة لغرب نيو غينيا وغرب بابوان[٢٧].

ولكن الشيء الذى جمع الشباب القومى البابوانى الغربى الكثير التشاجر سويا – وخاصة بعد ١٩٦٣– كان الخريطة . وبالرغم من أن الدولة الإندونيسية غيرت اسم المنطقة من غرب غينيا الجديدة إلى إيريان الغربية أولا ثم إلى إيريان جاوا ، فقد قرأت واقعها المحلى من خلال أطلس الفترة الاستعمارية ، وقد يعرف الأنثروبولوجيون والمبشرون والموظفون المتفرقون ، ويفكرون فى الإندانيس والأسماتيس والباوديس ، ولكن الدولة نفسها ومن خلالها الشعب الإندونيسى بوجه عام يرون فقط شبحا هو الإيريانيون الذين يسمون على اسم الخريطة . وتم تخيل الشبح فى شكل لوجو ظاهرى يعنى صفات النيجرويد وغشاء القضيب وما إلى ذلك . ويذكرنا هذا –بشكل ما– بظهور إندونيسيا التى تخيل داخل البنيات العنصرية فى الهند الشرقية الهولندية فى بداية القرن العشرين كمجتمع قومى أولى إيريانى محدود بخط ١٤١ والمحافظات المجاورة فى شمال وجنوب ملقة . وعندما قتل أكثر متحدثيها الرسميين جاذبية وأثبتهم واسمه أرنلد آب على يد الدولة فى ١٩٨٤ كان يعمل أمين متحف بنته الدولة مكرسا للثقافة الإريانية المحلية .

## المتحف

وليست الرابطة بين وظيفة آب واغتياله عفوية أبدا ؛ لأن المتحف والخيال المتحفى كليهما سياسيان بشكل كبير . إن تأسيس جاكارتا البعيدة النائية لمتحفه يوضح كيف تعلمت الدولة القومية الجديدة، إندونيسيا، من سابقتها وهى الهند الشرقية الاستعمارية الهولندية . ويقترح الانتشار الحالى للمتاحف فى جنوب شرق آسيا عملية نشطة من الوراثة السياسية ، ويتطلب أى فهم لهذه العملية دراسة للأركيولوجية الاستعمارية الجديدة فى القرن التاسع عشر والتى مكنت من ظهور تلك المتاحف .

وحتى أوائل القرن التاسع عشر ، أبدى الحكام الاستعماريون فى جنوب شرق آسيا اهتماما قليلا جدا بالآثار القديمة للحضارات التى استولوا عليها . وكان توماس ستامفورد رافيليس المبعوث المشؤوم لكلكاتا من قبل ويليام جونز أول مسؤول استعمارى كبير ليس فقط فى تجميع مجموعة شخصية كبيرة من الأعمال الفنية المحلية ، ولكنه أيضا درس تاريخها بشكل منظم[٢٨] . وبعد ذلك وبسرعة متزايدة بدأت

عظمة بروبودور وأنكور وباجان وأماكن أخرى قديمة تبرز وتنظم وتقاس وتصور ، ويعاد بناؤها وتسور وتحلل وتعرض[٢٩] ، وأصبحت الخدمات الأركيولوجية الاستعمارية مؤسسات قوية وذات مكانة تقوم على خدمات بعض الموظفين القادرين فنياً [٣٠].

ولكى نتفحص بكل دقة لماذا حدث ذلك عندما حدث ، فسنحيد كثيرا عن طريقنا ، وقد يكون من الكافى هنا أن نقول إن التغيير كان مرتبطاً بأفول نظامى الحكم الاستعماريين التجاريين لشركتى الهند الشرقية العظيمتين وقيام المستعمرة الحديثة الحقيقية المرتبطة بشكل مباشر بالدولة الأم[٣١] . وعلى ذلك فقد كانت مكانة الدولة الاستعمارية مرتبطة جدا بالدولة فى الوطن الأم . ومن الملحوظ أن الجهود الأركيولوجية كانت متركزة على إعادة الرونق والهيبة للآثار ومتركزة أيضا على كيفية وضع تلك الآثار على الخرائط للتوزيع العام والتثقيف . فكان هناك ، إذن، فى الطريق نوع من التعداد الذى يحمل صفة سجل لتلك الآثار مع ملحوظات قصيرة عنها . ولا شك فقد عكس هذا التركيز نزعات استشراقية عامة ، ولكن الميزانيات الكبيرة المستثمرة تسمح لنا أن نشك أن الدولة كانت لها أسبابها الخاصة غير العلمية ، وتقدم ثلاثة من هذه الأسباب نفسها مباشرة وآخرها هو أهمها بالتأكيد.

وفى المقام الأول تزامن توقيت الدفعة الأركيولوجية مع الصراع السياسى الأول على السياسات التعليمية للدولة[٣٢] ؛ فقد شجع "التقدميون" من السكان الأصليين والمستعمرين على حد السواء الاستثمارات الكبيرة فى التعليم ، وفى مقابلهم كان هناك المحافظون الذين خافوا كثيرا من تأثيرات هذا التعليم على المدى البعيد وفضلوا أن يبقى السكان الأصليون سكانا أصليين . وفى هذا الضوء فمن الممكن أن نرى الإحياءات الأركيولوجية التى ذيلت مباشرة بطبع نصوص التراث الأدبى تحت رعاية الدولة على أنها نوع من برامج التعليم المحافظة والتى عملت أيضا كعامل على مقاومة ضغط التقدميين . ثانيا وضعت برامج إعادة بناء الأيديولوجية الرسمية بناة الآثار والسكان الأصليين للمستعمرة فى نوع من الهرم . وفى بعض الحالات كما فى حالة الهند الشرقية الهولندية وحتى مطلع القرن الحالى كانت الفكرة السائدة هى أن بناة الآثار ليسوا من نفس "الجنس" الذى جاء منه السكان الأصليون - أى أنهم حقا مهاجرون "هنود"[٣٣] ، وفى حالات أخرى - كما فى بورما - كان الشيء المتخيل هو الانحطاط الدنيوى والذى جعل السكان الأصليين المعاصرين غير قادرين على تحقيق

إنجازات أسلافهم المزعومين . وبناء على ذلك فقد كانت الآثار التى أعيد بناؤها بالمقارنة مع الفقر الريفى المحيط بها تقول للسكان الأصليين إن وجودها فى حد ذاته يعنى أنهم كانوا دائما أو أصبحوا منذ مدة طويلة غير قادرين لا على تحقيق العظمة ولا على حكم أنفسهم .

ويأخذنا السبب الثالث أكثر وأقرب للخريطة ، وقد رأينا سلفا فى مناقشتنا "للخريطة التاريخية" كيف بدأت أنظمة الحكم الاستعمارية فى ربط نفسها بالقديم ، كما كانت تربط نفسها بالغزو لأسباب فى أصلها تقنينية ميكيافيلية مباشرة تماما ، ولكن وبمرور الزمن فقد قل الكلام الوحشى المفتوح عن الحق فى الغزو وازدادت المجهودات أكثر وأكثر لإيجاد شرعيات بديلة ؛ فقد ولد أوروبيون أكثر وأكثر فى جنوب شرق آسيا وقدمت إليهم إغراءات ليتخذوها وطنهم . وقد سمحت أركيولوجية الآثار المرتبطة بالسياحة بشكل متزايد للدولة بأن تبدو وكأنها راعية تراث عام ، ولكنه فى نفس الوقت محلى ؛ فأدخلت الأماكن المقدسة القديمة فى خريطة المستعمرة ، وخيمت مكانتها -التى إذا اختفت كما كان يحدث فى أغلبية الأحيان تحاول الدولة إحياءها- على صناع الخريطة . وتمثل الحقيقة التى تقول إن الآثار التى أعيد بناؤها كانت تمتلك حولها مروجا خضراء ولوحات تفسيرية مشفوعة بالتواريخ فى كل مكان على ذلك الموقف المتناقض خير تمثيل . وعلاوة على ذلك فقد كانت دائما ما تبقى خالية من الناس إلا من السياح الماسحين ، ولا توجد احتفالات دينية أو رحلات حج بقدر الإمكان . ولما وضعت الآثار فى شكل متحف كهذا فقد أعيد تصنيفها كحقوق ملكية للدولة الاستعمارية العلمانية.

ولكن كما قلنا سابقا فإن السمة المميزة لآليات تلك الدولة العادية غير المقدسة كانت إعادة الإنتاج غير المحدود التى أصبحت ممكنة تقنيا من خلال الطباعة والتصوير ، ولكنها أصبحت ممكنة سياسيا وثقافيا من خلال كفر القادة أنفسهم بقداسة تلك الأماكن المحلية. ويمكن تتبع نوع من التقدم فى كل مكان:

١) تقارير أركيولوجية معقدة تقنيا تكملها عشرات الصور وتسجيل عملية إعادة بناء بعض الأطلال المميزة بعينها .

٢) كتب تحتوى على صور مكثفة للاستخدام العام متضمنة لوحات تمثيلية لكل الأماكن الكبيرة التى أعيد بناؤها فى المستعمرة . ويكون من الأفضل -كما كان الحال

فى الهند الهولندية- لو وضعت الأحرمة المقدسة البوذية والهندوسية فى موضع المقارنة بالمساجد الإسلامية التى أعيد بناؤها[٣٤] ، وبفضل الرأسمالية الطباعية أصبح نوع من التعداد التصويرى لميراث الدولة متاحا لرعايا الدولة حتى لو كان ذلك مكلفا جدا.

٣) أصبحت عملية لوجو (عملية تجميع أجزاء لتكوين كل عام ) عامة ممكنة عن طريق عمليات محو القداسة التى ذكرناها سابقا . وتعد طوابع البريد بمحتوياتها المميزة كالطيور الاستوائية والفواكه وحيوانات المنطقة -والآثار أيضا بالطبع- أمثلة لتلك المرحلة . ولكن الكروت والكتب المدرسية تتبع نفس المنطق . وقد كانت تلك خطوة أولية نحو السوق ؛ فظهرت أشياء "كفندق باجان" و"دجاجة بروبودور المحمرة" وما إلى ذلك.

وبينما كان هذا النوع من الأركيولوجية الذى ازدهر فى عصر الاستنساخ الآلى سياسيا بدرجة كبيرة ، فقد كان سياسيا لدرجة أن كل الناس تقريبا – بمن فيهم العاملون فى الدولة الاستعمارية الذين أصبحوا سكانا أصليين بنسبة ٩٠ بالمائة بحلول الثلاثينات من هذا القرن فى معظم جنوب شرق آسيا – غير واعين بتلك الحقيقة ؛ فقد أصبح كل شيء عاديا ومن الممارسات اليومية ، وكانت إعادة الإنتاج اليومية غير المحدودة لرموز الملكية هى التى كشفت قوة الدولة .

وليس مدهشا جدا أن الدول فى ما بعد الاستقلال والتى تواصلت مع سابقاتها الاستعمارية فى السوق ورثت هذا الشكل من المتحف السياسى . وعلى سبيل المثال فى التاسع من نوفمبر ١٩٦٨ أمر نوردوم سيهانوك بعرض نموذج من الخشب والورق لمعبد بايون العظيم فى "أنكور" فى الاستاد الرياضى فى بنوم بنه بمناسبة الاحتفال بالعيد الخامس عشر لاستقلال كمبوديا[٣٥] ، وكان النموذج سيئا وبدائيا بشكل كبير ، ولكنه أدى وظيفته وهى التعرف السريع من خلال تاريخ اللوجو فى الفترة الاستعمارية ، فيقول الناس "نعم هذا معبد بويان" ، ولكنهم سينسون تماما ذكريات الأثريين الفرنسيين الذين أعادوا المعبد لحالته . وقد أصبح "الوات" الذى أعاد الفرنسيون بناءه – كما ذكرنا فى الفصل السابق – الرمز الرئيسى للأعلام المتتالية لحكم سيهانوك الملكى وحكم لون نول العسكرى وحكم بول بوت الجاكوبي.

والشيء الأكثر غرابة هو الدليل على الوراثة على المستوى الشعبى وأحد الأمثلة المفيدة هى مجموعة من الرسومات لحلقات من التاريخ القومى على حساب وزارة التعليم الإندونيسية فى الخمسينيات ، وأنتجت تلك الصور إنتاجا واسعا ، وتوزع من

خلال التعليم الابتدائى ليعلقها الإندونيسيون الشباب على حوائط فصولهم فى كل مكان لتكون تمثيلا مرئيا لماضى بلادهم . وقد صممت معظم الخلفيات على الطراز الطبيعى العاطفى المتوقع فى فن الإعلانات فى أوائل القرن العشرين ، وأخذت الصور البشرية إما من صور ديوراما متاحف الفترة الاستعمارية أو من الدراما الشعبية شبه التاريخية وايونج أورانج ، ولكن أكثر تلك السلسلة إثارة للاهتمام تقدم للأطفال تمثيلا للبروبودور . وفى الحقيقة فإن هذا الأثر الضخم يعتبر مخزنا رائعا للنحت الجاوى القديم بما فيها من صور بوذا الـ٥٠٤ و١٤٦٠ حجر تصويرى و١٢١٢ حجر تزيينى . ولكن الفنان الجيد يتخيل تلك المعجزة فى أعز أيامها فى القرن التاسع بعد الميلاد بخطأ دال . وكان البروبودور مدهونا بالأبيض تماما بدون أى أثر ظاهر للنحت ، وقد أحيطت بمروج مزينة وطرق ترتص الأشجار على جانبيها ولا يوجد فيها إنسان واحد(٣٦) ، ويستطيع المرء أن يقول إن هذا الخلو يعكس قلق الرسام والمسلم المعاصر فى مواجهة الحقيقة البوذية القديمة ، ولكننى أظن أن ما نراه حقيقة هو الاتباع المباشر وغير الواعى للأركيولوجية الاستعمارية فى أن البروبودور ملك للدولة وهو أيضا بالطبع لوجو والبروبدور أيضا قوى كرمز للهوية القومية ؛ لأن كل فرد يعى تماما بوضعه وماكنه فى سلسلة لا نهائية من البروبودورات المتماثلة .

وتلقى الخريطة والتعداد والمتحف مترابطين بعضهم بالبعض الضوء على أسلوب الدولة الاستعمارية فى آخر أيامها فى التفكير فى منطقة نفوذها . وكان دولاب هذا التفكير هو شبكة تجميعية تصنيفية يمكن تطبيقها بمرونة على أى شيء تحت السيطرة الحقيقية أو حتى المتخيلة للدولة كالناس والأماكن والأديان واللغات والمنتجات والآثار وما إلى ذلك . وكان نتيجة تلك الشبكة دائما أن تستطيع أن تقول إن هذا الشيء ينتمى إلى هنا ولا ينتمى إلى هناك ؛ فكل شيء كان محدودا معروفا ، ولذلك كان فى المفهوم قابلا للعدد ويخفى التصنيف الأساسى والتصنيفات التحتية الإحصائية المضحكة المسماة "وآخرين" شواذ الحياة الواقعية بواسطة تنظيم بيروقراطى . وكان النسيج هو ما يستطيع المرء أن يسميه السلسلة ، وهى الفرضية التى تقول بأن العالم صنع من تجميعات قابلة للتكرار . ويقف الفرد الخاص كممثل مفترض للسلسلة ، ويجب أن يعامل من هذا المنطلق ، ولذلك تخيل الدولة الاستعمارية سلسلة صينية قبل أن يتوهمها الصينيون ، وكذلك سلسلة من القوميين قبل وجود أى قوميين.

ولم يجد أحد تشبيها لهذا السياق العقلى أفضل من الروائى الإندونيسى العظيم

براموديا أنانتا توار الذى سمى الكتاب الأخير من ثلاثيته عن فترة الاستعمار "روماه كاكا" ؛ أى البيت الزجاجى وهى صورة قوية قوة منظور بانثام للفحص العام ، وذلك لأن الدولة الاستعمارية لم تطمح فى مجرد أن تخلق -تحت سيطرتها- امتدادا من البشر كامل المنظر والوضوح ، وشرط ذلك الوضوح أن كل فرد وكل شىء يحصل على رقم مسلسل[٣٧]. ولم يأت هذا النوع من التخيل من فراغ بل كان ناتج تقنيات البحرية والفلك وقياس الوقت والمسح والتصوير والطباعة ، وكل ذلك بعيدا عن القوة التحتية السيادية للرأسمالية.

وعلى ذلك فقد شكلت الخريطة وشكل التعداد السياق الذى سيوجد بحلول الوقت المناسب بورما والبورميين وإندونيسيا والإندونيسيين . ولكن تجسيد هذه الإمكانيات - تجسيدات حية اليوم حياة قوية بعد نهاية الدولة الاستعمارية بمدة طويلة- مدين كثيراً لتوهم الدولة الاستعمارية الغريب للتاريخ والقوة . ولم تكن الأركيولوجية شيئا متخيلا فى جنوب شرق آسيا قبل الاستعمار واستخدمتها سيام غير المستعمرة بعد مدة طويلة من بداية اللعبة وبنفس أسلوب الدولة الاستعمارية ، وخلقت سلسلة "الآثار القديمة" متفرقة داخل الوحدة التصنيفية الجغرافية الديموغرافية "الهند الهولندية" و"بورما البريطانية" . ولما كانت الأطلال خاضعة للفهم فى داخل هذه السلسلة غير المقدسة ؛ فإن كل طلل بمفرده أصبح متاحا للإشراف والتكرار غير المحدود . ولما جعلت خدمات الدولة الاستعمارية الأركيولوجية من الممكن تقنيا تجميع السلاسل فى شكل خريطة وأشكال مصورة ؛ فإن الدولة نفسها تنظر إلى السلاسل -فى اللحظات التاريخية- على أنها ألبومات لأسلافها . ولم يكن الشىء الجوهرى أبدا هو البروبودور فى حد ذاته أو الباجان فى حد ذاته اللذان لا تهتم بهما الدولة اهتماما كبيرا ، واللذان لا ترتبط بهما الدولة سوى أركيولوجيا ، ومع ذلك فإن السلاسل القابلة للتقليد خلقت عمقا تاريخيا للميدان والذى ورثه بسهولة خليفة الدولة بعد مرحلة الاستعمار . والناتج المنطقى النهائى هو اللوجو مثل باجان أو الفلبين الذى جمع بين التعداد والخريطة ؛ أى النسيج والدثر فى تعانق لا ينفك من خلال فراغه وعدم سياقيته وصورته المرئية وإنتاجه غير المحدود فى كل اتجاه .

## الهوامش

١) انظر الأعلى ص ١١٣-١١٤ (راجع أول صفحة فى الفصل السابع)

٢) Charles Hirschman, 'The meaning and Measurement of Ethnicity in Malaysia: and Analysis of Census Classifications,' J. of Asian Studies,46:3 (August 1987), pp.552-82; and 'The Making of Race in Colonial Malaya: Political Economy and Racial Ideology' Sociological Forum,1:2 (Spring1986), pp. 330-62

٣) وفى كل الفترة الاستعمارية كان هناك عدد متنوع من الأوروبيين ولكن بينما كانوا ما يزالون فى ١٨٨١ مجموعين تحت اسم "مقيم" "سواح" "سجناء" فقد تجمعوا وتآخوا فى ١٩١١ ليكونوا "أبناء جنس أبيض" . وكان من المتفق عليه أن القائمين على التعداد كانوا فى حيرة من أمرهم أين يضعون ما عرفوهم باليهود.

٤) William Henry Scott, Cracks in the Parchment Curtain, chapter7, 'Filipino Class structure in the Sixteenth Century.'

٤) وفى النصف الأول من القرن السابع عشر تعرضت المستوطنات الأسبانية فى الأرخبيل لهجمات متكررة من قوات شركة الهند الشرقية المتحدة -أكبر هيئة متعددة الجنسيات فى الفترة - ويدين المستوطنون الكاثوليك الأتقياء بحياتهم لمثل الحماية الخارج (على الدين ) الذى جعل ظهر أمسترادام للحائط فى أغلب فترات حكمه . ولو كانت VOC نجحت لأصبحت مانيلا بدلا من باتافا -جاكارتا- مركز الإمبراطورية الهولندية فى جنوب شرق آسيا . وفى ١٧٦٢ أخذت لندن مانيلا من أسبانيا واحتفظت بها لمدة عامين تقريبا ومن المدهش أن نذكر أن مدريد استردتها عن طريق مبادلتها ب"فلوريدا" دونا عن كل الأماكن وباقى الممتلكات الأسبانية شرق الميسيسبى . ولو كانت المفاوضات أخذت مجرى آخر فقد كان من الممكن أن يرتبط الأرخبيل سياسيا بالملايو وسنغافورا أثناء القرن التاسع عشر.

٦) Mason C. Hoadley, 'State vs. Ki Aria Marta Ningrat (1696) and Tian Siangko (1720-21)' (unpublished ms.,1982

٧) انظر Edgar Wickberg, The Chinese in Philippine Life, 1850 - 1898 , chapters 1 and 2

٨) كانت تجارة الغليون التى كانت مانيلا مركزها لأكثر من قرنين تبادل الحرير والبورسلان الصينى بالفضة المكسيكية.

٩) انظر الفصل السابع ص ١٢٥ عن ذكر صراع الاستعمار الفرنسى لفصل البوذية فى كمبوديا عن روابطها القديمة مع سيام.

١٠) انظر William Roff, The Origins of Malay Nationalism, pp.72-4.

١١) انظر Harry J. Benda, The Crescent and the Rising sun, chapter 1,2.

١٢) Thongchai Winichakul, 'Siam Mapped: A History of the Geo-Body of Siam' (Ph.d. Thesis, University of Sydney,1988).

١٣) Richard Muir, Modern Political geography, p.119.

١٤) Thongchai, 'Siam Mapped,' pp. 105-10,286.

١٥) لمناقشة كاملة عن مفاهيم القوة القديمة فى جاوا والتى توافقت مع وجود اختلافات بسيطة مع مفاهيم القوة الموجودة فى سيام القديمة، انظر كتابي، Language and Power, chapter1.

١٦) Thongchai, 'Siam Mapped,' p.110.

١٧) David S. Landes, Revolution in Time: Clockes and the Making of the Modern World, chapter9.

١٨) 'Sian Mapped, ' p.310

١٩) لا أعنى فقط وراثة الممتلكات الخاصة من الأراضى وبيعها بالمعنى العادى بل كانت الممارسات الأوروبية للتحويل السياسى للأرض بسكانها من خلال الزيجات الملكية هى الأكثر أهمية ، ففى الزواج كانت الأميرات يجلبن لأزواجهن دوقيات وإمارات صغيرة وكان هذا الانتقال يخضع للمفاوضات "والتوقيع" الرسمي. وليست اللاحقة: Bella Gerant alii, tu, Felix Austria, nube مفهومة بالنسبة لأى دولة فى آسيا ما قبل الاستعمار.

٢٠) انظر Thongchai, 'Siam Mapped, p.387, حول اكتساب الطبقة الحاكمة فى تايلاند لذلك النمط من التخيل. "وعلاوة على ذلك – وكما توضح تلك الخرائط التاريخية – ليس الجسم الجغرافى شيئا خاصا بالعصر الحديث ولكنه شيء دفع للوراء أكثر من ألف عام ولذلك تساعد الخرائط التاريخية فى رفض أى اقتراح بأن القومية ظهرت فى الماضى القريب فقط . والمنظور الذى يقول بأن سيام الحالية هى نتيجة القطيعة أيضا منظور مرفوض ، وكذلك فكرة أن التفاعل بين سيام والقوى الأوروبية نتجت عنه سيام فكرة مرفوضة.

٢١) لم يكن هذا التبنى أبدا حيلة ميكيافيلية . وقد ترك القوميون الأوائل فى كل مستعمرات جنوب شرق آسيا تشكيل الدولة الاستعمارية ومؤسساتها يشكلان وعيهم بشكل كبير. انظر الفصل السابع .

٢٢) يستطيع المرء أن يرى فى كتابات نيك جوكين –أفضل الأدباء الفلبينيين المعاصرين ووطنى لا غبار عليه – كيف يعمل الرمز بقوة فائقة فى العقول المثقفة. وكتب جوكين عن الجنرال أنطونيو لونا البطل التراجيدى للصراع ضد الأمريكيين فى الفترة من ١٨٩٨ إلى ١٨٩٩ أنه أسرع "ليؤدى الدور الذى أصبح فطريا فى الكريولى لمدة ثلاثة قرون ألا وهو الدفاع عن شكل الفلبين ضد القادم الأجنبي." A Question of Heroes, p.164. ويلاحظ فى مكان آخر بغرابة أن "حلفاء إسبانيا الفلبيفين المتحولين عن دينهم والمرتزقة الذين أرسلوا ضد الثوار الفلبينيين ربما قد حافظوا على الأرخبيل إسبانيا ومسيحيا ولكنهم فى نفس الوقت حافظوا عليه متوحدا" وكتب أيضا أنهم "كانوا يحاربون ليحافظوا على الفلبينيين متوحدين مهما كانت نوايا الإسبان" المرجع السابق ص٥٨

٢٣) انظر Robin Osborne, Indonesia's Secret War, The Guerrilla Struggle in Iria Jaya, pp.8-9

٢٤) لقد كانت هناك سلسلة من العمليات الدموية فى غرب غينيا الجديدة التى تسمى الآن إيريان جايا منذ ١٩٦٣ ربما يكون ذلك بسبب جعل الدولة الإندونيسية دولة عسكرية منذ ١٩٦٥، كما قد يكون السبب فى

ذلك جزئياً هو أعمال حرب العصابات الفعالة لما يسمى بمنظمة تحرير بويا ولكن هذه الأعمال الوحشية تنوب أمام وحشية جاكرتا فى تيمور الشرقية التى كانت مستعمرة برتغالية سابقة حيث -بعد أول ثلاث سنوات من غزو عام ١٩٧٦- قدر أن حوالى ثلث عدد السكان البالغ ستمائة ألف ، ماتوا بسبب الحرب والمجاعة والمرض "والتهجير" ولا أظن أنه من الخطأ أن نقترح أن الفرق يرجع جزئيا إلى أن تيمور الشرقية كانت غائبة عن اللوجو الخاص بالهند الشرقية الهولندية ، كما كانت غائبة عن لوجو إندونيسيا حتى عام ١٩٧٦

٢٥) Osborne, Indonesia's Secret war, p.2.

٢٦) انظر الأعلى ص ١١٠(آخر الفصل السادس)

٢٧) أفضل دلالة على ذلك أن اسم منظمة حرب العصابات القومية المناهضة لإندونيسيا مكون من كلمات إندونيسية .

٢٨) وفى ١٨١١ أخذت قوات شركة الهند الشرقية كل الممتلكات الهولندية فى الهند وقد كان نابليون قد ضم هولندا لفرنسا العام السابق وحكم رافيليس فى جاوا حتى ١٨١٥ وظهر كتابه "تاريخ جاوا" فى ١٨١٧ أى قبل عامين من تأسيسه لسنغافورا.

٢٩) ويمثل جعل البروبودور -أكبر قبة بوذية فى العالم - متحفا على هذه العملية وقد اكتشفها حكم رافيليس وأمر بتنظيفها عام ١٨١٤ وفى ١٨٤٥ أقنع الفنان المغامر العصامى الألمانى شيفر السلطات الهولندية فى باتافيا أن تدفع له ليصنع أول صور داغرية (طريقة قديمة للتصوير الفوتوغرافى على ألواح من الفضة) وفى ١٨٥١ أرسلت باتافيا فريقا من الموظفين تحت قيادة المهندس المدنى ف سى ويلسون ؛ ليقوموا بمسح منظم وينتجوا مجموعة كاملة من الطباعة على الحجر. وفى ١٨٧٤ نشر دكتور سى ليمانز مدير متحف القديم فى ليدن بتكليف من وزير المستعمرات أول مونوجراف علمى كبير ، وقد اعتمد فى ذلك اعتمادا كبيراً على عمل ويلسون ؛ لأنه لم يزر المكان بنفسه . وفى الثمانينيات من القرن التاسع عشر أنتج المصور المحترف كيفاس مسحا فوتوغرافيا عميقا للتراث الحديث . وفى ١٩٠١ أسس الحكم الاستعمارى لجنة للآثار ، وفى الفترة ما بين ١٩٠٧ و١٩١١ أشرفت اللجنة على ترميم كل الأبراج التى كان ينفذها فريق تحت قيادة المهندس المدنى فان إرب وتحت نفقة الدولة . وبدون شك واعترافا بهذا النجاح ، فقد رقيت اللجنة لتصبح فى ١٩١٣ هيئة للآثار والتى حافظت على الآثار أنيقة وجديدة حتى نهاية الحكم الاستعمارى . انظر C. Leemans, Boro-Boudour, pp. ii-lv; وانظر أيضـــاً N.J. Krom, Inleiding tot de Hindoe-Javansche Kunst, 1, chapter 1.

٣٠) وكتب جروسلير عن فيكيروى كورزون ١٨٩٩-١٩٠٥ المعجب بالآثار والذى نشط الدراسات الأركيولوجية فى الهند وقال "إنه من واجبنا نحن أيضا. . . . . أن نحفر ونكتشف ونصنف ونعيد الإنتاج ونصف . إنه من واجبنا أن ننسخ ونكتشف ونرعى ونحافظ" ولا يستطيع فوكو أن يقول كلاما أفضل من ذلك . وفى ١٨٩٩ تأسست إدارة الآثار فى بورما التى كانت جزءاً من الهند البريطانية وسرعان ما بدأت أعمال ترميم باجان . وتأسست قبل ذلك بعام واحد المدرسة الفرنسية للشرق الأقصى فى سايجون ، وتبعها بعد ذلك مباشرة تأسيس إدارة الآثار والمتاحف فى الهند الصينية . وبمجرد استيلاء فرنسا على سيمريب وباتامبانج من سيام فى ١٩٠٧ تأسست مديرية أنكور للحفاظ على آثار الهند الصينية العظيمة القديمة. انظر Bernard PhilippeGroslier, Indochina, pp. 155-7, 174-7. وكما قلنا سلفا فقد تأسست لجنة الآثار الهولندية فى ١٩٠١ . وتوضح مصادفة التواريخ ١٨٩٩ و١٨٩٨ و١٩٠١ ليس فقط العناية التى راقبت بها القوى الاستعمارية المتنافسة بعضها البعض ، ولكنها أيضا توضح التغيرات الكبيرة فى الاستعمار التى كانت

فى الطريق بحلول القرن الجديد . وكما كان من المتوقع ، فقد سارت سيام المستقلة على الدرب ببطء ، فقد أنشأت هيئة الآثار فيها فى ١٩٢٤ وتأسس متحفها القومى فى ١٩٢٦ انظر Charles Higham, The Archaeology of Mainland Southeast Asia, p.25.

٣١) وقد انتهت ال VOC بالإفلاس فى ١٧٩٩ ، ومع ذلك فإن تاريخ المستعمرات الهولندية هو ١٨١٥ عندما استعاد التحالف المقدس استقلال هولندا وأجلس ويليام الأول من أسرة أورانج على عرش هولندى اخترعه نابليون وأخوه العطوف لوى فى ١٨٠٦ واستمرت شركة الهند الشرقية البريطانية حتى الثورة الهندية الكبرى فى ١٨٥٧

٣٢) وقد تأسست لجنة الآثار بنفس الحكومة التى أسست فى ١٩٠١ "السياسات العرقية الجديدة" فى الهند وهى السياسة التى كانت تهدف فى المقام الأول إلى إنشاء نظام تعليم على الطراز الأوروبى لأعداد كبيرة من سكان المستعمرات . وقد أسس الحاكم العام بول دومير ١٨٩٧-١٩٠٢ مديرية المتاحف والآثار فى الهند الصينية والنظام التعليمى الحديث فى المستعمرة . وفى بورما بدأ التوسع الكبير فى التعليم العالى الذى زاد فى الفترة ما بين ١٩٠٠ و١٩٤٠ عدد طلبة المدارس الثانوية بنسبة ثمانية أضعاف من ٢٧,٤٠١ إلى ٢٢٣,٥٤٣ وزاد عدد طلبة الكليات عشرين ضعفا من ١١٥ إلى ٢,٣٦٥ عندما بدأت إدارة الأركيولوجية فى بورما تعمل . انظر Robert H. Taylor, The State in Burma, p.114.

٣٣) ويصر المثقفون والأركيولوجيون والموظفون التايلنديون المحافظون حتى اليوم على إعزاء أنكور ل"خوم" مجهول اختفى بدون أثر لا تجمعه بالكمبوديين المحتقرين اليوم أية رابطة.

٣٤) وأحد الأمثلة الحديثة الإثمار هو "الفن الإندونيسى القديم" وهو كتاب كتبه العالم الهولندى برنر كيمبرز والذى كان يصف نفسه بأنه "المدير السابق للآثار فى إندونيسيا" . ويجد المرأ فى صفحات ٢٤ و٢٥ خرائط توضح الأمكان القديمة وأول هذه الخرائط مفيدة جدا ؛ لأن شكلها المستطيل المحدود بخط ١٤١ من الشرق وتتضمن الفلبين والميداناو ، بالإضافة لشمال بيراو الملاوية البريطانية وشبه جزيرة الملايو وسنغافورا وكل تلك الأماكن على الخريطة بيضاء خالية حتى من الأسماء فيما عدى "كيداه" واحدة ، والتحول من البوذية الهندوسية إلى الإسلام يظهر فقط فى صفحة ٣٤٠ .

٣٥) انظر ,Kambuja,45 (15 December1968) هناك بعض الصور اللطيفة الجذابة.

٣٦) وتستقى المناقشة هنا من معلومات ومواد سبق تحليلها بدقة فى كتاب ,Language and Power الفصل الخامس.

٣٧) وتعتبر البطاقة الشخصية التصنيفية التى يجب أن يحملها الآن البالغون الإندونيسيون فى كل وقت مثلا للنتيجة السياسية لتوهم البيت الزجاجى ، وهى النتيجة التى يعرفها جيدا السجين السياسى السابق "براموديا" . وهذه البطاقة الشخصية متماثلة مع التعداد فهى تمثل نوعا من التعداد السياسى مع نوع من العقاب المنتمين للتصنيف الجانبى "للمخربين" و"الخونة" . ومن الملحوظ أن هذا النوع من التعداد أتقن إتقانا تاما بعد تحقيق الاستقلال القومى .

## الفصل الحادى عشر

# الذاكرة والنسيان
# المكان حديثا وقديما

نيويورك، نوفا ليون، نوفال أورلينز، نوفا ليسبوا نيو أمستردام . بدأ الأوروبيون فعلا فى القرن السادس عشر فى عادة غريبة وهى تسمية أماكن بعيدة فى أمريكا وأفريقيا أولا ، ثم فى آسيا وأستراليا والمحيط الهادى بعد ذلك ، بأسماء تبدأ بكلمة "نيو" لتكون أشكالا جديدة من أماكن كانت أيامها قديمة فى بلادها الأصلية . وعلاوة على ذلك فقد احتفظوا بالتقليد حتى إذا انتقلت الأماكن لسيادات استعمارية جديدة ؛ ولذلك أصبحت نوفال أورلينز نيو أورليانز وأصبحت نوى زيلاند نيو زيلاند.

وعموما لم تكن تسمية الأماكن السياسية أو الدينية بـ«نيو» فى حد ذاتها هى الشيء الجديد ، ففى جنوب شرق آسيا مثلا يجد المرء مدننا قديمة وتتضمن أسماؤها كلمات تدل على الحداثة فشيانجماى تعنى "المدينة الجديدة" وكوتا باهارو "المدينة الجديدة" وبيكامبارو "السوق الجديد" ولكن المصطلح الدال على الحديثة هنا "جديدة" يعنى فى كل الأحوال "خليفة" أو "وريث" شيء انتهى ، فكلمتا "الجديد" و"القديم" هنا متراتبتان زمنيا وتظهر الكلمة الأولى على أنها دائما ما تستلهم البركة المجهولة من الموتى . والشيء المدهش فى التسميات الأمريكية من القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر هو أن "جديدة" و"قديمة" كانتا مفهومتين سنكرونيا وموجودتين فى نفس الوقت فى الزمن المتجانس الفارغ ، فكانت فيزكايا موجودة بجانب نيوفا فيزكايا، وكانت نيو لندن موجودة بجانب لندن ؛ لذلك كانت تلك المصطلحات للتنافس الأخوى وليست للدلالة على الوراثة.

ويمكن لهذه الحداثة السنكرونية الجديدة أن تظهر تاريخيا فقط عندما تستطيع جماعات كبيرة من الناس أن تعتقد أنها تعيش حياة موازية لحيوات جماعات أخرى كبيرة من الناس وحتى لو لم يلتقوا أبدا إلا أنهم بالتأكيد يسيرون على نفس المسار والنهج . وفى الفترة ما بين ١٥٠٠ و١٨٠٠ جعل تكدس الاختراعات التكنولوجية – فى

مجالات بناء السفن والإبحار وقياس الزمن ورسم الخرائط والتى كانت الرأسمالية الطباعية الوسيط فيها - هذا النوع من التخيل ممكناً[١]. وأصبح من الممكن للإنسان أن يستقر فى الألتيبلانو فى بيرو أو على البامباس فى الأرجنتين أو فى موانئ نيو إنجلاند ولكنه يشعر مع ذلك أنه مرتبط بمناطق أو مجتمعات معينة على بعد آلاف الأميال فى إنجلترا أو شبه جزيرة أيبيريا ، ويستطيع المرء أن يكون واعيا تماما باشتراكه فى اللغة والعقيدة الدينية والعادات -بدرجات مختلفة- والتراث مع آخرين دون أى أمل كبير فى مقابلة شركائه أبدا[٢].

وكان من الضرورى لهذا التوازى والتزامن ليس فقط ليظهر بل ليكون ذا نتائج سياسية واسعة وأن تكون المسافة بين الجماعات المتوازية مسافة كبيرة ، وأن تكون الجماعات الأحدث ذات حجم كبير ومستقرة استقرارا تاما بالإضافة إلى كونها تابعة للجماعات الأقدم . وقد كانت تلك الشروط متوفرة فى الأمريكتين كما لم تكن فى مكان من قبل . وفى المقام الأول جعل اتساع المحيط الأطلنطى والوضع الجغرافى المختلف تماما بين جانبيه من المستحيل أن تنوب الشعوب تدريجيا فى وحدات سياسية حضارية أكبر كالتى حولت لاس إسباناس إلى إسبانا وأدخلت إسكتلندا فى المملكة المتحدة . ثانيا وكما ذكرنا فى الفصل الرابع حدثت الهجرة الأوروبية إلى الأمريكتين بمعدلات مدهشة فبنهاية القرن الثامن عشر كان هناك ما لا يقل عن ٣,٢٠٠,٠٠٠ من البيض متضمنين ١٥٠,٠٠٠ من مواطنى شبه الجزيرة على الأكثر من مجموع ١٦,٩٠٠,٠٠٠ مواطن من شعب إمبراطورية البربون الأسبان الغربية[٣] ، وقد ضمن حجم مجتمع المهاجرين فى حد ذاته - كما ضمنت قوتهم العسكرية والاقتصادية والتقنية الهائلة فى مقابل السكان الأصليين - أن يحافظ ذلك المجتمع على تجانسه ووحدته الثقافية الخاصة به وسيطرته السياسية المحلية[٤] . ثالثا تكونت الدول الاستعمارية الأم مطبوعة على أجهزة بيروقراطية وأيديولوجية راسخة قوية سمحت لها أن تفرض إرادتها لعدة قرون على الكريوليين وعندما يفكر المرء فى مشاكل الجنود ونقلهم وتموينهم فإن القدرة التى كانت عند لندن ومدريد على القيام بحروب طويلة مضادة لثورة الثوار المستعمَرين الأمريكيين قدرة مدهشة ومثيرة للإعجاب.

وتتضح حداثة كل هذه الظروف من خلال التباين الكبير الذى قدمته مع الهجرات الصينية والعربية الكبيرة والمتزامنة تقريبا إلى جنوب شرق آسيا وشرق أفريقيا . ولم تكن أى دولة أم قد نظمت تلك الهجرات إلا فى النادر ، والأندر من ذلك أيضا أنها

أنتجت علاقات تبعية ثابتة . وفى الحالة الصينية كان الموازى الوحيد القريب هو سلسلة الرحلات غير العادية عبر المحيط الهندى والتى قادها فى القرن الخامس عشر الأدميرال المخصى العظيم "تشينج هو" ، وكانت النية من وراء تلك الأفعال الجريئة التى اتخذت بناء على أوامر من الإمبراطور "يونج لو" هى تدعيم سيطرة البلاط على التجارة الخارجية مع جنوب شرق آسيا والمناطق الواقعة إلى الغرب منها ضد استيلاء التجار الصينيين من القطاع الخاص(٥) . واتضح فشل تلك السياسة بحلول منتصف القرن ، وبناء على ذلك فقد هجر المينج مغامرات أعالى البحار وفعلوا كل شيء فى استطاعتهم ليمنعوا الهجرة من المملكة الوسطى . وقد تسبب سقوط جنوب الصين فى أيدى المانشو فى ١٦٤٥ فى موجة كبيرة من اللاجئين الصينيين فى جنوب شرق آسيا والذين لم تكن تربطهم بالأسرة الحاكمة الجديدة أية روابط سياسية ولم تختلف سياسة التشى إينج بعد ذلك كثيرا عن سياسة المينج الأخيرة ، فعلى سبيل المثال فى ١٧١٢ حظر قرار للإمبراطور ك أنج هسى أى تجارة مع جنوب شرق آسيا وأعلن أن حكومته "سوف تطلب من الحكومات الأجنبية أن تعيد كل هؤلاء الصينيين الموجودين فى الخارج إلى وطنهم كى يحاكموا"(٦) وحدثت آخر موجة هجرة كبيرة إلى ما وراء البحار فى القرن التاسع عشر عندما انحلت الأسرة الحاكمة وزادت الطلبات على العمالة الصينية غير المدربة فى مستعمرات جنوب شرق آسيا وسيام . ولما كان كل المهاجرين تقريبا منعزلين سياسيا عن بيكين وكانوا أيضا أميين يتكلمون لغات غير مفهومة لبعضها البعض فقد كانوا إما ممتصين فى الثقافات المحلية بشكل أو بآخر أو كانوا تابعين بشكل كامل للأوروبيين المتقدمين(٧).

أما بالنسبة للعرب فكانت معظم رحلات هجرتهم تبدأ من حضرموت التى لم تكن دولة استعمارية حقيقية فى فترة الإمبراطورية العثمانية والمغولية فقد يكون من الممكن أن يجد الأفراد أصحاب الأعمال سبيلا لتأسيس إمارات محلية مثل التاجر الذى أسس مملكة بونتيانك فى بوروتو الغربية فى ١٧٧٢ ولكنه تزوج زواجا محليا وسرعان ما فقد عروبته إن لم يفقد إسلامه كذلك . وظل تابعا للإمبراطوريات الهولندية والإنجليزية الصاعدة فى جنوب شرق آسيا ولم يخضع لأية قوة فى الشرق الأوسط . وفى ١٨٣٢ أسس سيد سعيد أمير مسقط قاعدة قوية على ساحل شرق أفريقيا وأقام على جزيرة زنزبار التى جعلها مركزا لاقتصاد زراعة القرنفل المزدهر ولكن البريطانيين استخدموا القوة العسكرية ليجبروه على قطع علاقاته بمسقط(٨) ، ولذلك لم يستطع العرب ولا الصينيون - رغم أنهم حاولوا كثيرا عبر البحار بأعداد كبيرة فى

نفس القرون التى حاول فيها الأوروبيون الغربيون تقريبا - النجاح فى تأسيس مجتمعات متجانسة غنية واعية بنفسها على أنها مجتمعات كريول وخاضعة لعاصمة دولة أم كبيرة عظيمة لذلك لم يشهد العالم قيام بصرة جديدة ولا وهان جديدة

ويساعدنا ازدواج الأمريكتين وأسبابه التى ذكرناها سابقا فى تفسير ظهور القومية فى العالم الجديد أولا وليس فى القديم [٩]. ويلقون الضوء أيضا على صفتين خاصتين فى الحروب الثورية التى شبت فى العالم القديم فى الفترة ما بين ١٧٧٦ و١٨٢٥ فمن ناحية لم يحلم أى من الثوار الكريوليين بالمحافظة على الإمبراطورية سليمة كما هى ولكنهم أرادوا إعادة ترتيب التوزيع الداخلى للقوة فيها وتغيير علاقة الخضوع السابقة بنقل الدولة الأم من مكان فى أوروبا إلى مكان أمريكي [١٠] ، وبمعنى آخر لم يكن الهدف هو جعل نيو لندن تخلف لندن القديمة أو تدمرها أو تطيح بها بل كان الغرض هو تأمين توازيهما المستمر . ويمكن استنتاج لأى مدى كان هذا الأسلوب فى التفكير حديثا من تاريخ الإمبراطوريات السابقة الزائلة التى دائما ما كان فيها حلم بتغيير المركز القديم . ومن ناحية أخرى فبالرغم من أن تلك الحروب قد سببت الكثير من المعاناة وكانت البربرية صفة مميزة لها فقد كان التعذيب شيئا نادرا بشكل غريب فلم يكن الكريوليون يخافون فى أمريكا الشمالية أو الجنوبية الإبادة الجسدية أو الاستعباد كما خافت شعوب أخرى كثيرة وقفت فى طريق القوة الاستعمارية الأوروبية اللاحقة . فقد كانوا قبل كل شيء بيضا ومسيحيين ويتكلمون الإسبانية أو الإنجليزية ، وكانوا أيضا الوسطاء الضروريين للدولة الأم إذا كان للثروات الاقتصادية فى الأمبراطورية أن تظل تحت السيطرة الأوروبية . ولذلك فقد كانوا الجماعة غير الأوروبية المهمة والواقعة تحت السيطرة الأوروبية ولكنها فى نفس الوقت لا تحتاج لأن تخاف أوروبا خوفا شديدا ولكن الحروب الثورية ما زالت مطمئنة رغم حدتها وعنفها لأنها كانت حروباً بين أقارب [١١] وأكدت تلك الرابطة العائلية أنه بعد انقضاء فترة توتر معينة يمكن إعادة نسج الروابط الثقافية وأحيانا السياسية والاقتصادية الوثيقة بين الدول الأم السابقة والأمم الجديدة .

## الزمن قديمًا وحديثًا

إذاً كانت أسماء الأماكن الغريبة التى تكلمنا عنها سابقا بالنسبة للكريوليين فى العالم الجديد تمثل تصويريا قدرتهم الصاعدة ليتخيلوا أنفسهم مجتمعات متوازية وقابلة للمقارنة مع مجتمعات أوروبا فقد أعطت أحداث غير عادية فى الربع الأخير من

القرن الثامن عشر هذا التحديد معنى جديدا تماما . وكان أول هذه الأحداث بالطبع هو إعلان "الثلاث عشرة مستعمرة" الاستقلال فى ١٧٧٦ والدفاع العسكرى الناجح عن هذا الإعلان فى السنوات التالية وشعور أن هذا الاستقلال وحقيقة أنه استقلال جمهورى شيء غير مسبوق ولكن وفى نفس الوقت بمجرد أن ظهر فقد شعر بأنه شيء معقول تماما ولذلك ولما مكن التاريخ الثوار الفينزويليين فى ١٨١١ من تأسيس دستور لأول جمهورية فينزويلية فلم يروا الأمر مهينا أن يستعيروا حرفيا من دستور الولايات المتحدة الأمريكية[١٢] لأن ما كتبه الناس فى فلاديلفيا لم يكن فى أعين الفينزويليين شيئاً أمريكيا شماليا ولكنه كان شيئاً يحمل حقيقة وقيمة عالمية ، وبعد ذلك بفترة قصيرة أى فى ١٧٨٩ أصبح لانفجار العالم الجديد موازيا فى العالم القديم عن طريق الانفجار البركانى للثورة الفرنسية[١٣].

ومن الصعب اليوم أن نخلق ظروفا حياتية فى الخيال تكون فيها الأمة موضع شعور بأنها شيء جديد للغاية ولكنها كانت كذلك فى تلك الحقبة الزمنية. ولم يشر إعلان الاستقلال فى ١٧٧٦ أبدا إلى كروستوفر كولومبوس ولا رونوك ولا إلى أى من الآباء الحجاج ، ولم يمهد لتبرير الاستقلال بأى حال من الأحوال من الناحية "التاريخية" بمعنى توضيح وإبراز قدم الشعب الأمريكى وحقيقة أنه لم تذكر حتى الأمة الأمريكية فقد بدأ يظهر شعور عميق بأن هناك قطيعة راديكالية مع الماضى فبدأ ينتشر تفجير وفتح آلية استمرارية التاريخ ولا شيء يمثل لهذا الحدث أفضل من القرار الذى اتخذته الجمعية الوطنية فى الخامس من أكتوبر ١٧٩٣ بتحطيم التأريخ المسيحى المستقر منذ سنين وبداية حقبة جديدة فى العالم من العام رقم واحد ابتداءا بمحو الحكم القديم وإعلان الجمهورية فى ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢[١٤]. ولم يكن لأى ثورة تالية بعد تلك مثل هذه الثقة الرسامية بالجدة والحداثة وذلك فى الأغلب ؛ لأن الثورة الفرنسية كان ينظر إليها على أنها هى الأصل.

وجاء أيضا من هذا الإحساس العميق بالجدة nuestra santa revolucion وهو التعبير الجديد الذى خلقه خوزى مارتا موراليس إى بافون معلن جمهورية المكسيك فى ١٨١٣ قبل أن يقتله الأسبان بفترة وجيزة[١٥] ومن نفس الإحساس أيضا جاء قرار سان مرتين فى ١٨٢١ أنه "فى المستقبل سوف لن يسمى الأبوريجيين هنودا أو سكانا أصليين بل هم أبناء ومواطنو بيرو وسوف يعرفون بأنهم بيروييون"[١٦] ، وقد فعلت تلك الجملة لكلمتى "هنود" وسكان أصليين" ما فعلته الجمعية بباريس بالتأريخ المسيحى

فقد مسحت تسميات العهد السابق المهينة وأقامت عصرا جديدا تماما وعلى ذلك فتحدد "بيويين" و"العام رقم واحد" نظريا قطيعة كاملة مع العالم الموجود.

ولكن لم تستطع الأشياء أن تستمر هكذا لمدة طويلة لنفس الأسباب التى عجلت بمفهوم الفصل فى المقام الأول وفى الربع الأخير من القرن الثامن عشر كانت بريطانيا وحدها تصنع ما بين ١٥٠,٠٠٠ و٢٠٠,٠٠٠ ساعة فى العام الواحد وكان الكثير منها للتصدير ومن المحتمل أن مجمل التصنيع الأوروبى كان يقرب من ٥٠٠,٠٠٠ عنصر سنويا[١٧] وكانت الصحف التى تنشر متسلسلة ساعتها جزءاً عاديا من الحضارة المدنية وكذلك كانت الرواية بإمكانياتها الكبيرة لتمثيل الأحداث المتزامنة فى الزمن المتجانس الفارغ[١٨] وكان استخدام الساعة فى كل العالم والذى جعل من الممكن تصور الازدواجية المتزامنة عبر البحار يشعر به بشكل متزايد على أنه يستتبع نظرة متسلسلة دنيوية للعلية الاجتماعية ، وكان مفهوم العالم هذا يعمق سيطرته بسرعة على الخيال الغربي. وعلى ذلك فمن الممكن أن ندرك أنه بعد حقبتين من إعلان العام رقم واحد تأسس أول كرسى أكاديمى فى التاريخ فى ١٨١٠ فى جامعة برلين وفى ١٨١٢ فى الصربون عند نابوليون وتأسس التاريخ بحلول الربع الثانى من القرن التاسع عشر رسميا كعلم يملك مجموعته الخاصة من المجلات المتخصصة الواسعة[١٩] وسرعان ما ترك العام رقم واحد مكانه لعام ١٧٩٢ بعد الميلاد وعمليات الفصل الثورى فى عامى ١٧٧٦ و١٧٨٩ أصبحت تُصور على أنها داخلة فى سلسلة تاريخية وبناء على ذلك فقد صورت على أنها سوابق ونماذج تاريخية[٢٠].

وعلى ذلك لم يعد من الممكن لأعضاء ما يمكن أن نسميه "بالجيل الثاني" من الحركات القومية التى تطورت فى أوروبا فى ما بين ١٨١٥ و١٨٥٠ وأيضا للجيل الذى ورث الدول القومية المستقلة فى الأمريكتين أن يمسكوا بأول فصل صغير لسلفهم من الثوريين. ولأسباب مختلفة ونتائج مختلفة فقد بدأت الجماعتان فى عملية قراءة جينيولوجية للقومية كتعبير عن الموروث التاريخى للاستمرار المتسلسل.

وفى أوروبا بدأت القوميات فورا تقريبا تتخيل نفسها "تستيقظ من نوم عميق" وهى صورة غريبة تماما عن الأمريكتين وكما رأينا فى الفصل الخامس وفى ١٨٠٣ قال القومى اليونانى الشاب أدامانتيوس كوراس لجمهور باريسى متعاطف "لأول مرة تتفحص القومية اليونانية منظور جهلها البشع وترتعد عندما تقيس بنظرها المسافة التى تفصلها عن مجد أسلافها." ويمثل هذا تمثيلا دقيقا على التحول من الزمن

الحديث للقديم فما زال صدى فصل ١٧٧٦ و١٧٨٩ يرن فى "لأول مرة" ، ولكنّ عينى كوراس الجميلتين تحولتا مرتعدتين إلى الخلف إلى مجد الأجداد وليس إلى الأمام إلى مستقبل سان مرتين ، ولن يستغرق الأمر زمنا طويلا لكى تنوب تلك الازدواجية البهيجة وتحل محلها صحوة "مستمرة" بديلة تبدأ من "بعد ميلاد" يقاس زمنيا وهى عودة مضمونة للجوهر الأصلى .

وبدون شك فقد ساهمت عناصر كثيرة مختلفة فى الشعبية الجارفة لتلك الصورة[٢١] وسوف أذكر اثنين منها فقط لأغراضنا الحالية : الأول هو أن الصورة أخذت فى اعتبارها فكرة التوازى التى خرجت منها القوميات الأمريكية والتى دعمتها فى أوروبا نجاحات الثورات القومية الأمريكية تدعيما كبيرا وقد قدمت التفسير لماذا نمت الحركات القومية وتجمعت بشكل غريب فى العالم القديم متأخرة بشكل ملحوظ عن العالم الجديد البربري[٢٢] ولأنها كانت تفهم على أنها صحوة -حتى ولو كانت صحوة آثارها مكان بعيد- فقد فتحت ماضيا واسعا خلف النوم الطويل. ثانيا قدمت الصورة رابطة استعارية هامة بين القوميات الأوروبية الجديدة واللغة ، وكما لاحظنا سابقا فقد كانت الدول الكبرى فى أوروبا فى القرن التاسع عشر أنظمة متعددة اللغات بشكل واسع والتى لم يتسق فيها توزيع الحدود مع الجماعات اللغوية ، وقد ورث معظم أبنائها المتعلمون من العصور الوسطى عادة أن يعتقدوا أن بضع اللغات المعينة مثل -إن لم تعد اللاتينية واحدة منهم- الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية على أنها لغات حضارة فكان المواطن الهولندى الغنى فى القرن الثامن عشر يفخر بأنه يتكلم الفرنسية فى البيت دون غيرها ، وكانت الألمانية هى لغة الثقافة فى الكثير من غرب الإمبراطورية القيصرية ولا يقل فيها استخدام الألمانية عن بوهيميا التشيكية. ولم يفكر أحد فى تلك اللغات حتى أواخر القرن الثامن عشر على أنها تنتمى لجماعة محددة تحديدا مكانيا ، ولكن بعد ذلك بفترة وجيزة ولأسباب ذكرناها فى الفصل الثالث بدأت اللغات المحلية "غير المتحضرة" تؤدى دورا سياسيا بنفس الطريقة التى أداه بها المحيط الأطلنطى قبل ذلك ، فقد "فصل" بين المجتمعات القومية الخاضعة وبين الدول الملكية القديمة . ولما كانت طليعة معظم الحركات القومية الأوروبية الشعبية من المتعلمين غير المتعودين على استخدام تلك اللغات المحلية فإن ذلك التناقض يحتاج لتبرير ولا يوجد تبرير أفضل من "النوم" لأنه سمح لهؤلاء المثقفين والبرجوازيين الذين بدأوا يدركون أنفسهم على أنهم تشيك أو مجريون أو فنلنديون أن يصوروا دراستهم

للغة التشيكية والماجيارية والفنلندية والفولكلور والموسيقى على أنه "إعادة اكتشاف" لشيء ما مدفون في الأعماق معرووف دائما ، وعلاوة على ذلك بمجرد أن يبدأ المرأ بالتفكير في الجنسية من ناحية الاستمرار فإن بعض الأشياء تبدو غائرة بجذورها تاريخيا مثل اللغة والتي لا يمكن أن يقدم لها أصولا مؤرخة[٢٣].

ووضعت المشكلة بشكل مختلف في الأمريكتين فمن ناحية كان الاستقلال القومي معترفا به في كل مكان تقريبا على المستوى الدولي بحلول الثلاثينات من القرن التاسع عشر ولذلك فقد أصبح موروثا ولما كان موروثا فقد دخل سلسلة جينيولوجية ولكن لم تكن الآليات الأوروبية النامية متاحة بعد فلم تكن اللغة أبدا أمرا ذا شأن في الحركات القومية الأمريكية ، وكما رأينا قبل ذلك فقد كان اشتراكها مع الدول الأم في لغات مشتركة وديانات وثقافات مشتركة هو الذي أوجد أول تخيلاتها القومية وبالتأكيد فقد كانت هناك بعض الحالات الملفتة للنظر التي يستطيع المرء فيها أن يتتبع نوعا من التفكير "الأوروبي" العامل فعلى سبيل المثال كان من المفروض أن يقدم المعجم الأمريكي للغة الإنجليزية الذي كتبه نوح وبستر في ١٨٢٨ إشارة بدأ للغة أمريكية تكون ذات خط مختلف عن اللغة الإنجليزية وقد مكن تقليد استخدام الجزويت للجواراني في براجواي في القرن الثامن عشر لغة أصلية بعيدة عن الإسبانية بعدا تاما من أن تصبح اللغة القومية تحت حكم هوزيه جاسبر رودريجوس دوفرنكايا (١٨١٤–١٨٤٠) الدكتاتوري المصاب بخوف مرضي من الأجانب ، ولكن وفي العموم تواجه أي محاولة لإعطاء عمق تاريخي للجنسية من خلال وسائل لغوية عقبات لا يمكن تخطيها فكان كل الريوليين تقريبا منتمين من خلال المؤسسات الاجتماعية عن طريق المدارس والطباعة والعادات الإدارية وما إلى ذلك إلى لغات أوروبية وليست محلية أمريكية وهدد التركيز الشديد على الخط اللغوي بتضييع بالتحديد "ذاكرة الاستقلال تلك" التي كان من الضروري الاحتفاظ بها.

وكان الحل القابل للتنفيذ في كل من العالم القديم والجديد هو التاريخ أو التاريخ المصاغ في أشكال خاصة وقد لاحظنا السرعة التي تبعت فيها كراسي التاريخ العام رقم واحد وكما يلاحظ هيدن وايت فإنه مما لاشك فيه أن هناك غرابة من أن العباقرة الخمسة العظام في التأريخ الأوروبي ولدوا جميعا في الربع قرن بعد فصل الجمعية الوطنية للزمن فقد ولد رانكة في ١٧٩٥ وميخائيليت في ١٧٩٨ وتوفي في ١٨٠٥ وولد ماركس وبوركهاردت في ١٨١٨[٢٤] ، وربما يكون من الطبيعي أن يكون ميخائيليت

الذى عين نفسه مؤرخ الثورة من دون باقى الخمسة هو أوضح مثل على التخيل القومى الوليد ؛ لأنه كان الأول فى الكتابة بوعى بالنيابة عن الموتى(٢٥) ، ويعتبر النص التالى مميزا:

**يترك كل المتوفى جزءا جيدا من نفسه وهى ذاكرته ؛ ويطلب منا أن نهتم بها وأما من لا صديق له فيجب أن يعوضه القضاء ، لأن القانون والعدالة سيحافظان على حقه فى ذلك أكثر من حناننا وعواطفنا السريعة النسيان ودموعنا التى سرعان ما تجف ، وهذا القضاء هو التاريخ والموتى ، كما يقول القانون الرومانى ، هم الأشخاص المساكين والذين يجب أن يكونوا محل اهتمام القاضى ، ولم أنس أبدا فى مهنتى أن ألقى نظرة على ذلك الواجب المنوط بالمؤرخ ، وقد أعطيت الموتى المنسيين المساعدة التى سأحتاجها أنا يوما من الأيام وأهل الموتى لحياة أخرى وهم يعيشون الآن معنا ونحن آباؤهم وأصدقاؤهم ، وهكذا تتكون عائلة ومدينة مشتركة بين الأحياء والأموات .**

وقد وضح ميشيل هنا وفى مواضع أخرى أن الذين أخرجهم من ظلام الإهمال لم يكونوا أبدا تجمعا عشوائيا من الموتى المنسيين المجهولين بل هم الذين أوجدت تضحياتهم عبر التاريخ فصل ١٧٨٩ والظهور الواعى للقومية الفرنسية حتى ولو لم تكن الضحايا تفهم تلك التضحيات كتضحيات ، وفى ١٨٤٢ قال عن هؤلاء الموتى: "يلزمهم أوديب ليفسر لهم ألغازهم الخاصة بهم والتى لا يعرفون تفسيرها ، ويعلمهم ما يريدون قوله من أحاديث وتحركات لا يفهمونها(٢٧)".

وربما تكون تلك الصياغة غير مسبوقة ولم يدع ميخائيليت فقط أنه يتكلم بالنيابة عن أعداد كبيرة من الموتى المجهولين فحسب بل أصر على أنه -بتمكن شديد- يستطيع أن يقول ما كانوا يعنون أن يقولوا حقيقة ؛ لأنهم أنفسهم لم يفهموا ومن ساعتها لم يعد صمت الموتى عقبة فى طريق استخراج ما يختلج فى أعماقهم.

وبهذا الشكل تعلم القوميون من "الجيل الثاني" فى الأمريكتين وأماكن أخرى أكثر وأكثر ليتكلموا عن الموتى الذين كان من المستحيل أو من غير المرغوب فيه أن يبنى معهم تواصلاً لغوياً وهذا التكلم من البطن المعكوس قد ساعد فى فتح الطريق أمام

عمليات الانتقال إلى التأصيل وخاصة فى أمريكا الجنوبية ؛ فعلى الحافة كان المكسيكيون يتكلمون بالإسبانية بالنيابة عن الحضارات الهندية فى مرحلة ما قبل كولومبوس والذين لا يفهمون لغاتها(٢٨) ، ويتضح مدى ثورية عملية النبش هذه بجلاء إذا قارناها بصياغة فيرمين دى فرجاس المقتبسة فى *الفصل الثانى* ؛ لأنه بينما كان فيرمين يفكر بكل طمأنينة فى إفناء الهنود الأحياء ؛ إلا أن الكثير من أحفاده السياسيين شغلتهم فكرة تذكر الهنود والكلام عنهم ، وربما يكون السبب فى ذلك بالتحديد أن الهنود تعرضوا ساعتها كثيرا جدا لعمليات الإبادة.

**التأكيد على قتل الأخ.**

ومن الغريب أنه فى صياغات جيل ميخائيليت الثانى كان التركيز عادة على استخراج الناس والأحداث الذين يقعون فى خطر *النسيان*(٢٩) ، وهو لا يرى حاجة فى التفكير فى النسيان ، ولكن عندما نشر رينان فى ١٨٨٢ وبعد أكثر من قرن من إعلان الاستقلال فى فلاديلفيا وبعد ثمانية أعوام من موت رينان نفسه كتابه "*ما هى الأمة؟*" وقد كانت الحاجة للنسيان هى التى تشغله ، وعلى سبيل المثال أعد قراءة الصياغة المقتبسة سلفا فى الفصل الأول(٣٠) أو:

> **وعلى ذلك فإن عبق هذه الأمة أن كل الأفراد يمتلكون أشياء وكلهم نسوا كثيرا . . . وكل المواطنين الفرنسيين نسوا بالتأكيد سانت بارتليم ومذبحة ميدى فى القرن الثالث عشر**

وقد تبدو هاتان الجملتان مباشرتان للوهلة الأولى (٣١) ، ولكن التأمل للحظات يبين مدى غرابتها الحقيقية ويلاحظ المرء على سبيل المثال أن رينان لم يرَ وجود سبب ليشرح لقرائه معنى La Saint-Barthelemy أو Les Massacres du Midi au xIIIe siecle ولكن من غير الفرنسيين يستطيع أن يفهم حالا أن La Saint-Barthelemy تشير إلى المذبحة السيئة ضد هوجونو والتى كانت فى ٢٤ أغسطس عام ١٥٧٢ وشنها الملك شارل الرابع وأمه ؛ والفرنسيون وحدهم يفهمون أن Les Massacresdu Midi تشير إلى إفناء الإلبينيزيانيين عبر المنطقة الواسعة بين البرنييه وجنوب الألب والتى حرضها إنوسنت الثالث بابا مذنب من ضمن خط طويل من البابوات المذنبين. ولم يجد رينان أيضا أى شيء غريب فى افتراض وجود "ذاكرة فى عقل قراءه" حتى ولو كانت الأحداث نفسها قد حدثت قبل ذلك بثلاثة أو ستة قرون ، ويدهش المرء أيضا من تركيب الجملة الحاسم القاطع فى Doit avoir oublie أى

"يجب أن يكونوا قد نسوا" بدلا من doit oublier و"ممكن أن يكونوا قد نسوا" التى تقترح فى نغمة عسكرية حاسمة أن "نسوا بالفعل" مآسى الماضى واجب مدنى معاصر. وعلى ذلك فقد أخبر قراء رينان أنهم من المفروض أن يكونوا قد نسوا بالفعل ما تفترض كلمات رينان نفسها أنهم يتذكرون بالفعل.

ولكن كيف يمكننا أن نفهم هذا التناقض؟ ويمكننا أن نبدأ بملاحظة أن الاسم الفرنسى المفرد La Saint-Barthelemy يتضمن القتلة والمقتولين ؛ أى أنه يتضمن الكثوليك والبروتوستانت الذين لعبوا دورا محليا فى الحرب المقدسة وغير المقدسة الواسعة التى اجتاحت وسط وشمال أوروبا فى القرن السادس عشر ، والذين لم يفكروا فى أنفسهم بالتأكيد ببساطة على أنهم فرنسيون معا ، وكذلك تخفى "مذبحة ميدى فى القرن الثالث عشر" الضحايا والقاتلين الذين لا أسماء لهم خلف فرنسية ميدى الصرفة ، ولا حاجة لتذكرة قرائه أن معظم الألبينيزيين المقتولين كانوا يتكلمون البروفينسيال أو الكاتالية ، وأن قاتليهم جاءوا من مناطق متعددة فى أوروبا ، أثر هذا المجاز هو أن يصور فصولا من الصراعات الدينية الواسعة فى أوروبا فى العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث على أنها حروب قبل الإخوة بين الإخوان الفرنسيين ولما كان من الممكن أن نثق أن الأغلبية العظمى من الفرنسيين ، المعاصرين لرينان لن يسمعوا أبدا - إذا تركوا لأنفسهم- بSaint-Barthelemy أو مذبحة ميدى ، فإننا ندرك أن هناك حملة تاريخية منظمة تقوم بها الدولة من خلال النظام المدرسى الأساسى للدولة لتذكير كل شاب وفتاة فرنسية بسلسلة من المذابح القديمة التى تعزى الآن "لتاريخ العائلة" ، وظهر أن وجوب نسيان المآسى التى يحتاج المرء أن يذكره أحد دائما بها أداة مميزة فى عمليات البناء الحديثة للجينيولوجيات القومية ، ومن المفيد أن رينان لم يقل إن كل مواطن فرنسى يجب عليه أن يكون قد نسى بالفعل كميون باريس (وهى اللجنة الثورية التى حلت محل البلدية بعد الثورة ، وما لبثت أن استولت على السلطة هناك) ، وكانت ذكراها فى ١٨٨٢ ما تزال حقيقية لا أسطورية ومؤلمة لدرجة أنه يصعب أن تقرأها تحت علامة تأكيد قتل الأخ.

ولا نحتاج أن نقول إنه لا يوجد شيء هنا فرنسى بصفة خاصة فتعمل الصناعة التعليمية بلا هوادة لتجبر الشباب الأمريكى أن يتذكر وينسى عداوات (١٨٦١-١٨٦٥) على أنها حرب "أهلية" عظيمة بين "إخوان" وليس بين دولتين ذوات سيادة كما كانتا لفترة محدودة ، ويمكننا أن نكون - مع ذلك - متأكدين أنه إذا كانت الكمفدرالية قد

نجحت في الحفاظ على استقلالها فإن تلك "الحرب الأهلية" كانت ستستبدل في الذاكرة بشيء غير أخوى على الإطلاق ، وتقدم كتب التاريخ المدرسى الإنجليزية نظرة مختلفة، نظرة وجود أب مؤسس عظيم الذى يتعلم كل طفل فى المدرسة أن يسميه ويليام الفاتح ولا يخبر أحد ذلك الطفل بأن ويليام لم يتكلم الإنجليزية قط، وكيف يتكلمها والإنجليزية لم تكن موجودة ساعتها، ولم يعلم الطفل أيضا فاتح ماذا؟ لأن الإجابة العصرية الوحيدة المقبولة هى أنه فاتح إنجلترا ، وستحول تلك الإجابة بالطبع ذلك الجد النورمانى إلى نموذج سابق ناجح من نابليون وهتلر ، وعلى ذلك فإن كلمة الفاتح تقوم بنفس وظيفة الحذف فى "سيان باتليمي" وهى أن تذكر المرء بشيء يجب نسيانه حالا ، وعلى ذلك يتقابل ويليام النورماني وهارولد السكسونى على أرض معركة هاستينجز لم يكونا كشريكين فى الرقص فيلتقيان على الأقل كأخوين.

وبالطبع من السهل جدا أن نعزو التأكيد على قتل الأخ هذا – بكل بساطة – إلى تدبير موظفى الدولة البارد. وعلى صعيد آخر فهى تعكس إعادة تشكيل التخيل الذى لم تكن الدولة واعية به تماما تقريبا والذى لم ولن تسيطر عليه إلا سيطرة بسيطة ؛ ففى الثلاثينات من هذا القرن ذهب الكثيرون من جنسيات مختلفة للحرب فى شبه جزيرة أيبيريا ؛ لأنهم رأوها الساحة التى تقع فيها القوى والأسباب التاريخية العالمية فى خطر ، وعندما أسس حكم فرنكو الطويل وادى الموتى فقد خص بعضوية مدينة الموتى الحزينة هؤلاء الذين –من وجهة نظره– ماتوا فى الصراع العالمى ضد البلشفية والكفر ، ولكن وعلى هوامش الدولة بدأت ذاكرة حرب أهلية إسبانية فى الظهور وبعد موت الطاغية الجبار والتحول السريع المدهش للديموقراطية البرجوازية أصبحت تلك الذاكرة رسمية ولعبت دورا حيويا فى تلك الديموقراطية وبنفس الشكل فقد تذكر– نسى الناس حرب الطبقات الكبيرة التى اندلعت فى الفترة ما بين ١٩١٨ و١٩٢٠ بين البامير والفيستولا فى الأفلام والروايات السوفييتية على أنه حربنا الأهلية ، بينما تمسكت الدولة السوفييتية بوجه عام بقراءة مركسية متشددة للصراع.

ومن هذا المنظور تعتبر القوميات الكريولية فى الأمريكتين هامة بشكل خاص ؛ لأنه من ناحية كانت الدول الأمريكية ضعيفة وغير مركزية ومتواضعة فى طموحاتها التعليمية لحقب كثيرة ، ومن ناحية أخرى كانت المجتمعات الأمريكية التى كان فيها المستوطنون البيض موضوعين فى مقابل العبيد الزنوج والسكان الأصليين نصف المبادين ممزقة داخليا لدرجة لم تصل إليها المجتمعات فى أوروبا ، ومع ذلك فإن تخيل

تلك الأخوة الذى بدونه لا يمكن التأكيد على قتل الأخ يظهر مبكرا بشكل ملحوظ ، ولا يخلو من عمومية حقيقية مثيرة للدهشة ، وتعتبر الولايات المتحدة الأمريكية تمثيلا جيدا بصفة خاصة على ذلك التناقض.

فى ١٨٤٠ وفى وسط حرب وحشية دامت ثمان سنوات ضد السميتول فى فلوريدا ، وكما كان ميخائيليت يستدعى أوديبه الخاص فقد نشر جيمس فنيمور كوبر "واجد الطريق" وهى الرابعة من خمس حكايات واسعة الانتشار ومن المركزى فى هذه الرواية وكل زملائها فيما عدى الأولى ما يسميه ليزلى فيدلر "بالحب الشديد غير المعلن تقريبا ، ولكنه مؤكد" الذى يجمع بين الحطاب الأبيض ناتى بومبو وديلاوار النبيل زعيم التشينجاشجوك –شيكاجو–[٣٢] ومع ذلك فإن أخوة الدم بينهما ليس فترة الثلاثينات من القرن التاسع عشر الدموية ، ولكنها كانت السنوات المنسية/المذكورة الأخيرة من الحكم البريطانى الاستعمارى فكلا الرجلين مرسومين على أنهما أمريكيان يحاربان من أجل الحياة ضد الفرنسيين وحلفائهم من السكان الأصليين –المينجو الأشرار– وعملاء جورج الثالث الخونة.

وفى ١٨٥١ وعندما رصد هيرمان مالفيل إيشمال وكيكيج فى الفراش سويا فى فندق سباوتر –"إذا، هناك وفى شهر عسل قلوبنا نمت مع كيكيج"– فقد أدرك المتوحش النبيل بتهكم كما يلي:[٣٣]

> **. . ومن ناحية الجمجمة كانت دماغه رائعة بالتأكيد ، وقد تبدو سخيفة ، ولكنها تذكرنا بدماغ جورج واشنتون الموجودة فى تماثيله النصفية المشهورة ؛ فإن لها نفس الانحدار الطويل المتدرج للخلف فوق الحاجبين التى كانت تبدو كنتوأين كبيرين فى القمة ، فقد كان كيكيج جورج واشنتون بشكل وحشي.**

وقد بقى لمارك توين فى ١٨٨١ ، أى بعد الحرب الأهلية وإعلان العتق الذى أعلنه لينكولن أن يرسم أول صورة لا تمحى للزنوج والبيض على أنهم أخوة أمريكيين ، فجيم وهاك يمشيان سويا فى الميسيسبى الواسع[٣٤] ، ولكن المكان يذكر/ينسى على أنه مكان ما قبل الحرب والذى ما يزال الزنجى فيه عبد.

وتبين تخيلات الأخوة المدهشة تلك فى القرن التاسع عشر والتى تظهر –طبعا– فى مجتمع تمزقه أعنف العداوات العنصرية والمكانية بكل وضوح أن القومية فى زمان رينان وميخائيليت كانت تمثل شكلا جديدا من الوعى ، وهو الوعى الذى ظهر عندما لم

يعد من الممكن معايشة الأمة معايشة جديدة في قمة موجة الفصل.

## سيرة الأم

وتجلب كل التغيرات الجوهرية في الوعي معها حالات فقدان ذاكرة مميزة لها وفي ظروف تاريخية معينة تتدفع القصص من هذا النسيان ، وبعد ممارسة التغيرات الفيزيولوجية والعاطفية التي تسببها المراهقة يصبح من المستحيل تذكر حالات وعي الطفولة فكم من آلاف الأيام مرت بين الطفولة والرجولة المبكرة تختفي من الذاكرة المباشرة ، ويا له من شيء غريب أن تحتاج مساعدة الآخرين لتعلم أن هذا الطفل العاري في الصورة المصفرة ويمدد قدميه على سجادة أو على سريره الطفولي هو أنت ، وتعتبر الصورة -صورة الطفل اللطيف في عصر الإنتاج الآلي- أكثر دليل من كومة الأدلة التوثيقية المعاصرة مثل شهادة الميلاد والمذكرات والتقارير والخطابات والتقارير الطبية وما إلى ذلك حسما ، والذي يسجل استمرارية معينة واضحة ، ويركز على ضياعها من الذاكرة ، ويأتي من هذا التغريب مفهوم الشخصية والهوية -"نعم أنت وهذا الطفل العاري شيء واحد"- التي يجب أن تقص ؛ لأنها سقطت من الذاكرة ، وتغرق كتب السير الذاتية أسواق الرأسمالية الطباعية عاما بعد عام في مقابل حقيقة علم الأحياء التي تقول بأن كل خلية في الجسم البشري تدخل عملية إحلال كامل بعد كل سبع سنوات.

وتسكن تلك القصص مثل الروايات والجرائد التي تكلمنا عنها في الفصل الثاني في الزمن المتجانس الفارغ ، ولذلك فإن محيطهم تاريخي ومكانهم اجتماعي ، وهذا هو السبب الذي من أجله تبدأ معظم السير الذاتية بظروف الأبوين والجدين التي يملك كاتب السيرة لها قرائن سياقية فقط ، وهذا أيضاً هو السبب الذي من أجله يكلف كاتب السيرة نفسه عناء كبيرا في رصد التواريخ من بعد الميلاد لحدثين لا يمكن أن يتذكرهما بطل السيرة ؛ وهما تاريخ الميلاد والوفاة ، وأكثر الأشياء التي تقدم تذكرا دقيقا لحداثة هذا القص هي بداية إنجيل متى ؛ لأن القديس يعطينا قائمة كبيرة من ثلاثين رجلا ولد أحدهم الآخر بداية من الأب إبراهيم حتى يسوع المسيح ، ولم تذكر النساء إلا مرة واحدة ليس لأنها والدة بل لأنها مربية غير يهودية ولم تقدم تواريخ لأي من أسلاف المسيح ناهيك عن أي معلومات اجتماعية أو ثقافية أو فيسيولوجية أو سياسية عنهم. وأسلوب القص هذا معقول جدا بالنسبة للقديس الجينيولوجي ؛ لأنه لم يفكر في المسيح على أنه شخصية تاريخية ، ولكنه فكر فيه فقط على أنه ابن الله الحقيقي.

وكان الحال مع الأمم كما كان مع الأشخاص المحدثين ، ويولد الوعى بكون المرء مزروعا فى زمن متسلسل دنيوى بكل ما يوحى به ذلك من استمرارية وفى نفس الوقت نسيان خبرات ذلك الاستمرار الناتج من فصل أواخر القرن الثامن عشر الحاجة لقص خاص بالهوية ، وتوكل تلك المهمة إلى قاضى ميخائيليت ، ولكن هناك فرقا أساسيا فى الاستخدام بين قص الأشخاص وقص القوميات ، فتوجد فى قصة الفرد الدنيوية بداية ونهاية، فهى شخصية من جينات الأب والظروف الاجتماعية إلى مرحلة تاريخية قصيرة ، وتلعب هناك دورا حتى تموت ، ولا يوجد بعد ذلك سوى ظل السمعة الباقية أو التأثير ، وتخيل كيف يكون الأمر غريبا اليوم أن تنتهى قصة حياة هتلر بالقول إنه فى ٣٠ أبريل عام ١٩٤٥ ذهب مباشرة للجحيم وعلى العكس فليس للقوميات تاريخ ميلاد محدد قاطع وليست ميتاتها -إذا كانت هناك ميتات- ميتات طبيعية[٣٥] ؛ لأنه لا يوجد مبدأ . وعلى ذلك فلا يمكن أن تكتب سير القوميات بشكل تنازلى عبر الزمن من خلال سلسلة طويلة من الأبناء والأحفاد ، والخيار الوحيد هو أن تكتب السير بترتيب تصاعدى عبر الزمن تجاه رجل بيكين أو رجل جاوا أو الملك أرثر إلى أى مكان يرسل إليه مصباح الأركيولوجية شعاعه الخامس ، ومع ذلك فإن هذا الأسلوب يميزه الموت الذى يبدأ من حاضر موجود وهو انحراف مثير للانتباه عن الجينيولوجية التقليدية ، فالحرب العالمية الثانية تلد الحرب العالمية الأولى ، ويأتى أوسترليتز من سيدان وجد انتفاضة وارسو هى دولة إسرائيل.

ولكن الميتات التى تبنى سيرة القومية هى ميتات من نوع خاص ، ولم يذكر أى شيء عن بارتيليمى فى كل ال-١,٢٠٠ صفحة من كتاب فيرناند بروديل العظيم "البحر المتوسط وعالمه فى عصر فيليب الثاني" بالرغم من أنها حدثت فى منتصف حكم فيليب الثانى تماما ، فالميتات التى كانت مهمة لبروديل هى تلك التى هى تكن الأحداث المجهولة التى لا عد لها التى تسمح له -بتجميعها وتصنيفها فى معدلات وفايات دنيوية- أن يرصد الظروف الحياتية التى تتغير ببطء عند الملايين من البشر المجهولين ؛ فكان آخر سؤال يسأل عنهم هو جنسيتهم.

ولكن تنتزع سيرة القومية من مقابر بورديل الجماعية فاقدة الإحساس -فى مقابل معدل الوفايات المستمر- عينات من حالات الانتحار والاستشهاد المثيرة للمشاعر والاغتيالات وحالات الإعدام والحروب وعمليات الحرق ، ولكن ومن أجل خدمة غرض القص فيجب أن تذكرو تنسى تلك الميتات على أنها "ميتاتنا الخاصة".

## الهوامش

١) وصل التراكم مداه الجنوني في البحث الدولي أي الأوروبي عن مقياس دقيق لخط الطول. موجود في كتاب .Landes, Revolutions in Time, chapter9 وفي ١٧٧٦ عندما أعلنت الولايات الثلاث عشرة استقلالها ضمنت مجلة "مجلة الرجل النبيل" هذا النعي المختصر لجون هاريسون: "كان ميكانيكيا عبقريا وكسب جائزة ال٢٠,٠٠٠ جنيه من وستمينيستر لاكتشافه خط الطول."

٢) وتظهر إشارات لطيفة للانتشار المتأخر لذلك الوعي في آسيا في الصفحات الأولى من رواية "أرض الإنسان" التاريخية العظيمة للكاتب براموديا أنانتا توير ويتعجب البطل القومي الشاب من أنه ولد في نفس التاريخ الذي ولدت فيه ملكة المستقبل فيلهالمينا في الحادي والثلاثين من أغسطس ١٨٨٠: "ولكن بينما كانت جزيرتي ملفوفة بدثار ظلام الليل كانت دولتها تستحم في الشمس وإذا كانت ظلمة الليل تحتضن دولتها فإن جزيرتي تلمع في الظهر الاستوائي." ص٤

٣) ولا نحتاج أن نقول إن البياض كان تصنيفا قانونيا يتمتع بعلاقات عرضية مميزة مع الواقع الاجتماعي المعقد ، وكما يقول المحرر نفسه: "نحن النسل الوضيع للصوص الإسبان الذين جاءوا إلى أمريكا ليبيضوها ويعيشوا مع ضحاياهم ، وبعد ذلك اتحد النسل غير الشرعي لهذا الاتحاد مع نسل العبيد المنقولين من أفريقيا." .Lynch, The Spanish-American Revolutions, p.249 ولا بد أن يحذر المرء من الافتراض بوجود أي شيء أوروبي أبدا هنا. ويساعد تذكر كل الدا سوزا البوذيين السنهاليين والدا سيلفا الكاثوليكيين الأتقياء والسوريانو الكاثوليك الذين يلعبون دورا اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا عاديا في سريلنكا وإندونيسيا والفلبين المعاصرة المرء على إدراك أن الأوروبيين –تحت الظروف المناسبة– كانوا من الممكن أن يذوبوا بدقة في الثقافات غير الأوروبية.

٤) قارن ذلك بمصير الشعب الأفريقي الكبير المهاجر ولم تكد آليات الرق الوحشية التشرذم السياسي الثقافي فقط ولكنها أزاحت بسرعة أي إمكانية لتوهم مجتمع زنجي في فينزويلا وغرب أفريقيا اللتين تسيران في مسار متوازي.

٥) انظر .O. W. Wolters, The Fall of srivijaya in MalayHistory, Appendix C

٦) هذا الكلام مقتبس في .G. William Skinner, Chinese Society in Thailand, pp. 15-16

٧) ظهرت المجتمعات الصينية عبر البحار لدرجة أنها أثارت البرنويا الأوروبية العنيفة حتى منتصف القرن الثامن عشر عندما توقفت المذابح الغربية ضد الصينيين أخيرا وبعد ذلك انتقل هذا التقليد الرذيل للشعوب الأصلية.

٨) انظر .Marshal G. Hodgson, The Venture of Islam, Vol,3 pp. 333-5

٩) ومن الإشارات المذهلة على عمق التمركز في أوروبا (وهي حالة إحساس أن أوروبا هي مركز كل شيء ومحط نظر الشخص كمنبع كل شيء) أن الكثيرين من العلماء الأوروبيين يصرون –بالرغم من كل الأدلة– على النظر إلى القومية على أنها اختراع أوروبي.

١٠) ولكن لاحظ حالة البرازيل ففي ١٨٠٨ هرب الملك جوا السادس إلى ريو دي جينيرو هروبا من جيوش نابوليون وبالرغم من أن ويلينجتون طرد الفرنسيين في ١٨١١ فقد بقي الملك الهارب في أمريكا الجنوبية حتى ١٨٢٢ خوفا من الاضطرابات الجمهورية في بلاده وعلى ذلك فقد كانت ريو في الفترة ما بين ١٨٠٨ و١٨٢٢ مركز إمبراطورية عالمية تمتد لأنجولا وموزمبيق وماكاو وتيمور الشرقية ولكن حكم أوروبي تلك الإمبراطورية

ولم يحكمها أمريكي.

١١) وبالطبع فقد كان ذلك هو ما سمح للمحرر أن يتعجب فى نقطة معينة قائلا إن ثورة زنجى أى عبد ستكون "أسوأ ألف مرة من غزو أسباني". انظر فى الأعلى ص٤٩ فإذا نجحت ثورة الفلاحين العبيد فإن ذلك قد يعني الإفناء الجسدى للكريوليين.

١٢) انظر .Masur, Bolivar, p.131

١٣) وجاء للثورة الفرنسية بدورها معادل فى العالم الجديد باندلاع عصيان توسان لوفورتيور المسلح فى ١٧٩١الذى نتج عنه بحلول ١٨٠٦ تأسيس عبيد الماضى فى هيتى لثانى جمهورية مستقلة فى نصف الكرة الغربى

١٤) كان الشاب وردزورث فى فرنسا فى ١٧٩١-١٧٩١ وكتب بعد ذلك فى "المقدمة" هذين السطرين المشهورين المعبين:

نعمة هى أن يكون المرأ حيا فى هذا الفجر

ولكن الشباب هو الجنة

١٥) .Lynch, The Spanish-American Revolutions, pp. 314-15

١٦) كما كان مقتبسا سلفا .

١٧) .Landes, Revolution in Time, pp. 330-31, 442-43

١٨) انظر الفصل الثاني.

١٩) انظر Hayden White, Metahistory: The Historical Immagination in Nineteenth-Century Europe, pp. 135-43, لمناقشة أعمق لهذا التحول.

٢٠) ولكنه كان تاريخا يبدأ من بعد الميلاد بشيء مختلف ومع ذلك وقبل الفصل فقد كان ما يزال -بشكل هش- فى الأماكن المستثيرة عبيرا يفوح من اللاتينية فى العصور الوسطى وتذكرنا أنو دومينى بدخول الخلود فى الزمن الأرضى الدنيوى وذلك ما حدث فى بيت لحم وبعد الفصل اختصرت الكلمتان إلى A. D. وانضمت للتعبير الإنجليزى المحلى B.C. (قبل المسيح) وضمت الكلمتان تاريخ العالم فى شكل سلسلة بدأ علم الجيولوجيا يقدم لإثباته إسهاما جيدا ، ويمكننا إذا أن نحكم على اتساع الهوة بين أنو دومينى وB.C. أو A.D. عن طريق ذكر أنه لم يكن العالم البوذى أو الإسلامى إلى يومنا هذا ليتخيل حقبة "ما قبل الجوتاما بوذا" أو "قبل الهجرة" فكلا التقويمان يعملان بعد رضى بالتعبير الأجنبى B.C.

٢١) وفى فترة متأخرة إلى ١٩٥١ استطاع العالم الاشتراكى الإندونيسى لينتونج موليا سيتوروس أن يكتب كلمات مثل: "حتى نهاية القرن التاسع عشر كانت الشعوب الملونة تغط فى نوم عميق بينما كانت الشعوب البيضاء تعمل بنشاط فى كل مجال" History of the Indonesian Nationalist Movement, p.5.

٢٢) قد يستطيع المرء إن يقول أن تلك الثورات فى أعين الأوروبيين كانت حقيقة أول الأحداث السياسية المهمة التى حدثت وراء الأطلنطي.

٢٣) مع ذلك فإن العمق التاريخى ليس مطلقا ، ففى لحظة من اللحظات تتزاوى الإنجليزية فى الفرنسية

النورمانية أو الأنجلو ساكسونية ، وقد تنوب الفرنسية أمام اللاتينية أو الفرنكشية الألمانية وهكذا. وسوف نرى فيما بعد كيف حدث عمق أكثر فى المجال.

٢٤) Metahistory, p.140. وكان هيجل المولود فى ١٧٧٠ قد بلغ أواخر أيام مراهقته عندما اندلعت الثورة ولكن نشرت محاضراته عن فلسفة تاريخ العالم فى ١٨٣٧ أى بعد وفاته بست سنوات.

٢٥) white, Metahistory, p.159.

٢٦) Jules Michelet, Oeuvres Completes, XXI, p.268 فى مقدمة المجلد الثانى 'Jusqu'au 18e Brumaire' من كتابه الذى لم يكتمل "تاريخ القرن الرابع عشر" وأنا مدين بالمرجع لكتاب Meta-history ولكن الترجمة التى يستخدمها وايت ليست كافية.

٢٧) مقتبس فى Roland Barthes, ed., Michelet par lui-meme, p.92 ولم ينشر المجلد الذى يحوى هذا النص المقتبس بعد.

٢٨) يوجد تمثال واحد فى المكسيك كلها لهيرنان كورتيز وذلك الأثر الذى وضع فى أحد أماكن مدينة المكسيك بعناية أقيم فقط فى نهاية السبعينات من هذا القرن بأمر من حكم خوزى لوبيز بورتيلو البغيض.

٢٩) وبالطبع لأنه عانى فى معظم حياته تحت الشرعية العائدة أو البديلة فإن انتماءه لـ١٧٨٩ ولفرنسا يتضح بشكل مثير للعواطف فى رفضه أن يقسم قسم الولاء للويس نابليون وقد عاش فى حالة تشبه الفقر حتى وفاته فى ١٨٧٤ ؛ لأنه طرد مباشرة من وظيفته كأرشيفى قومى لفرنسا ، ولكن مع ذلك عاش كفاية ليشهد سقوط الدجال وابتعادة الدستور الجمهوري.

٣٠) ولد رينان فى ١٨٢٣ أى بعد ربع قرن من ميلاد ميخائيليت وقضى كثيرا من أيام شبابه تحت حكم قاتل ميخائيليت القومى الرسمي.

٣١) وقد فهمتهم كذلك فى ١٩٨٣ للأسف.

٣٢) انظر كتابه "الحب والموت فى الرواية الأمريكية" ص١٩٢ وقد قرأ فيدلر تلك العلاقة قراءة سيكولوجية وتاريخية على أنها دليل على فشل الرواية الأمريكية فى التعامل مع الحب البالغ بين الجنسين وانشغاله بالموت وزنى المحارم والشذوذ وليس على أنها إثارة قومية وأنا أشك أنها كانت قومية مستثارة وتوازى العلاقات بين الذكور فى مجتمع بروتوستانتى يمنع من البداية ويعنف تزاوج الأجناس علاقات حب مقدس بين الجنسين فى الرواية القومية فى أمريكا اللاتينية التى سمحت فيها الكاثوليكية بنمو شعب مختلط "ميستوزو" كبير ومن النافع جدا أن الإنجليزية استعارت كلمة "ميستوزو" من الإسبانية.

٣٣) Herman Melville, Moby Dick, p.71

٣٤) ومن الجيد أن نتذكر أن نشر رواية "هاكيلبيرى فين" سبق استخدام رينان لـ"سان برثيليمي" بعدة شهور فقط.

٣٥) وقد نحت مصطلح "الإبادة الجماعي" حديثا جدا لمثل تلك النبوءات.

# المحتويـــات

# المشروع القومى للترجمة

| العنوان | المؤلف | المترجم |
| --- | --- | --- |
| اللغة العليا | جون كوين | ت : أحمد درويش |
| الوثنية والإسلام | ك. مادهو بانيكار | ت : أحمد فؤاد بلبع |
| التراث المسروق | جورج جيمس | ت : شوقى جلال |
| كيف تتم كتابة السيناريو | انجا كاريتنكوفا | ت : أحمد الحضرى |
| ثريا فى غيبوبة | إسماعيل فصيح | ت : محمد علاء الدين منصور |
| اتجاهات البحث اللسانى | ميلكا إفيتش | ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد |
| العلوم الإنسانية والفلسفة | لوسيان غولدمان | ت : يوسف الأنطكى |
| مشعلو الحرائق | ماكس فريش | ت : مصطفى ماهر |
| التغيرات البيئية | أندرو س. جودى | ت : محمود محمد عاشور |
| خطاب الحكاية | جيرار جينيت | ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى |
| مختارات | فيسوافا شيمبوريسكا | ت : هناء عبد الفتاح |
| طريق الحرير | ديفيد براونيستون وايرين فرانك | ت : أحمد محمود |
| ديانة الساميين | روبرتسن سميث | ت : عبد الوهاب علوب |
| التحليل النفسى والأدب | جان بيلمان نويل | ت : حسن المودن |
| الحركات الفنية | إدوارد لويس سميث | ت : أشرف رفيق عفيفى |
| أثينة السوداء | مارتن برنال | ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب |
| مختارات | فيليب لاركين | ت : محمد مصطفى بدوى |
| الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية | مختارات | ت : طلعت شاهين |
| الأعمال الشعرية الكاملة | جورج سفيريس | ت : نعيم عطية |
| قصة العلم | ج. ج. كراوثر | ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح |
| خوخة وألف خوخة | صمد بهرنجى | ت : ماجدة العنانى |
| مذكرات رحالة عن المصريين | جون أنتيس | ت : سيد أحمد على الناصرى |
| تجلى الجميل | هانز جيورج جادامر | ت : سعيد توفيق |
| ظلال المستقبل | باتريك بارندر | ت : بكر عباس |
| مثنوى | مولانا جلال الدين الرومى | ت : إبراهيم الدسوقى شتا |
| دين مصر العام | محمد حسين هيكل | ت : أحمد محمد حسين هيكل |
| التنوع البشرى الخلاق | مقالات | ت : نخبة |
| رسالة فى التسامح | جون لوك | ت : منى أبو سنه |
| الموت والوجود | جيمس ب. كارس | ت : بدر الديب |
| الوثنية والإسلام (ط٢) | ك. مادهو بانيكار | ت : أحمد فؤاد بلبع |
| مصادر دراسة التاريخ الإسلامى | جان سوفاجيه – كلود كاين | ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب |
| الانقراض | ديفيد روس | ت : مصطفى إبراهيم فهمى |
| التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية | أ. ج. هوبكنز | ت : أحمد فؤاد بلبع |
| الرواية العربية | روجر آلن | ت : د. حصة إبراهيم المنيف |

الأسطورة والحداثة — بول . ب . ديكسون — ت : خليل كلفت

نظريات السرد الحديثة — والاس مارتن — ت : حياة جاسم محمد

واحة سيوة وموسيقاها — بريجيت شيفر — ت : جمال عبد الرحيم

نقد الحداثة — آلن تورين — ت : أنور مغيث

الإغريق والحسد — بيتر والكوت — ت : منيرة كروان

قصائد حب — آن سكستون — ت : محمد عيد إبراهيم

ما بعد المركزية الأوربية — بيتر جران — ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد

عالم ماك — بنجامين باربر — ت : أحمد محمود

اللهب المزدوج — أوكتافيو باث — ت : المهدى أخريف

بعد عدة أصياف — ألدوس هكسلى — ت : مارلين تادرس

التراث المغدور — روبرت ج ليتيا – جون ف أ فاين — ت : أحمد محمود

عشرون قصيدة حب — بابلو نيرودا — ت : محمود السيد على

تاريخ النقد الأدبى الحديث (١) — رينيه ويليك — ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد

حضارة مصر الفرعونية — فرانسوا دوما — ت : ماهر جويجاتى

الإسلام فى البلقان — هـ . ت . نوريس — ت : عبد الوهاب علوب

ألف ليلة وليلة أو القول الأسير — جمال الدين بن الشيخ — ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى

مسار الرواية الإسبانو أمريكية — داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى — ت : محمد أبو العطا

العلاج النفسى التدعيمى — بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل — ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش

الدراما والتعليم — أ . ف . ألنجتون — ت : مرسى سعد الدين

المفهوم الإغريقى للمسرح — ج . مايكل والتون — ت : محسن مصيلحى

ما وراء العلم — چون بولكنجهوم — ت : على يوسف على

الأعمال الشعرية الكاملة (١) — فديريكو غرسية لوركا — ت : محمود على مكى

الأعمال الشعرية الكاملة (٢) — فديريكو غرسية لوركا — ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى

مسرحيتان — فديريكو غرسية لوركا — ت : محمد أبو العطا

المحبرة — كارلوس مونييث — ت : السيد السيد سهيم

التصميم والشكل — جوهانز ايتين — ت : صبرى محمد عبد الغنى

موسوعة علم الإنسان — شارلوت سيمور – سميث — مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى

لذّة النّص — رولان بارت — ت : محمد خير البقاعى .

تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢) — رينيه ويليك — ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد

برتراند راسل (سيرة حياة) — آلان وود — ت : رمسيس عوض .

فى مدح الكسل ومقالات أخرى — برتراند راسل — ت : رمسيس عوض .

خمس مسرحيات أندلسية — أنطونيو جالا — ت : عبد اللطيف عبد الحليم

مختارات — فرناندو بيسوا — ت : المهدى أخريف

نتاشا العجوز وقصص أخرى — فالنتين راسبوتين — ت : أشرف الصباغ

العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين — عبد الرشيد إبراهيم — ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى

ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية — أوخينيو تشانج رودريجث — ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

| | | |
|---|---|---|
| السيدة لا تصلح إلا للرمى | داريو فو | ت : حسين محمود |
| السياسى العجوز | ت . س . إليوت | ت : فؤاد مجلى |
| نقد استجابة القارئ | چين . ب . توميكنز | ت : حسن ناظم وعلى حاكم |
| صلاح الدين والمماليك فى مصر | ل . ا . سيميتوفا | ت : حسن بيومى |
| فن التراجم والسير الذاتية | أندريه موروا | ت : أحمد درويش |
| چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى | مجموعة من الكتاب | ت : عبد المقصود عبد الكريم |
| تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢ | رينيه ويليك | ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية | رونالد روبرتسون | ت : أحمد محمود ونورا أمين |
| شعرية التأليف | بوريس أوسبنسكى | ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى |
| بوشكين عند «نافورة الدموع» | ألكسندر بوشكين | ت : مكارم الغمرى |
| الجماعات المتخيلة | بندكت أندرسن | ت : محمد طارق الشرقاوى |
| مسرح ميجيل | ميجيل دى أونامونو | ت : محمود السيد على |
| مختارات | غوتفريد بن | ت : خالد المعالى |
| موسوعة الأدب والنقد | مجموعة من الكتاب | ت : عبد الحميد شيحة |
| منصور الحلاج (مسرحية) | صلاح زكى أقطاى | ت : عبد الرازق بركات |
| طول الليل | جمال مير صادقى | ت : أحمد فتحى يوسف شتا |
| نون والقلم | جلال آل أحمد | ت : ماجدة العنانى |
| الابتلاء بالتغرب | جلال آل أحمد | ت : إبراهيم الدسوقى شتا |
| الطريق الثالث | أنتونى جيدنز | ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين |
| وسم السيف | ميجل دى ثربانتس | ت : محمد إبراهيم مبروك |
| المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق | باربر الاسوستكا | ت : محمد هناء عبد الفتاح |
| أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر | كارلوس ميجل | ت : نادية جمال الدين |
| محدثات العولمة | مايك فيترستون وسكوت لاش | ت : عبد الوهاب علوب |
| الحب الأول والصحبة | صمويل بيكيت | ت : فوزية العشماوى |
| مختارات من المسرح الإسبانى | أنطونيو بويرو باييخو | ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف |
| ثلاث زنبقات ووردة | قصص مختارة | ت : إدوار الخراط |
| الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى | نماذج ومقالات | ت : أشرف الصباغ |
| تاريخ السينما العالمية | ديڤيد روبنسون | ت : إبراهيم قنديل |
| السياسة والتسامح | عبد الكريم الخطيبى | ت : عز الدين الكتانى الإدريسى |
| مساءلة العولمة | بول هيرست وجراهام تومبسون | ت : إبراهيم فتحى |
| النص الروائى (تقنيات ومناهج) | بيرنار فاليط | ت : رشيد بنحدو |
| قبر ابن عربى يليه آياء | عبد الوهاب المؤدب | ت : محمد بنيس |

## ( تحت الطبع )

المختار من نقد ت . س . إليوت
صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر
أوبرا ماهوجوني
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
حروب المياه
الأدب الأندلسي
الأدب المقارن
راية التمرد
ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي
الفجر الكاذب
الشعر الأمريكي المعاصر
مدخل إلى النص الجامع
نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان
الشرق يصعد ثانية
الجانب الديني للفلسفة

الولاية
ثقافة العولمة
الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية
حيث تلتقي الأنهار
النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس
المدارس الجمالية الكبرى
التحليل الموسيقي
الإسكندرية : تاريخ ودليل
مختارات من الشعر اليوناني الحديث
بارسيفال
اثنتا عشرة مسرحية يونانية
مصر القديمة التاريخ الاجتماعي
الخوف من المرايا
النساء في العالم النامي
المرأة و الجريمة

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٥٤٢٤ / ١٩٩٨

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 088 - 2)

# IMAGINED COMMUNITIES

BENDECT ANDERSON

يعتبر كتاب « الجماعات المتخيلة » من الكتب العمد فى مجال الدراسات الأنثروبولوجية المتخصصة فى دراسة القومية . ويعتبر الكتاب مرجعًا أساسيًا للكثر من الدراسات الإنسانية الحديثة فى مجال الأدب وعلم الاجتماع والدراسات السياسية التى تتعلق بدراسة علاقة الإنسان الفرد بالمؤسسات الاجتماعية والسياسية الحديثة . يتمتع الكتاب بتلك المكانة بسبب تغطيته العميقة للأصول الحضارية والسياسية التى أسهمت فى ظهور فكرة الدول القومية فى مختلف أنحاء العالم . ويتمتع كذلك بتغطية العديد من النماذج المختلفة للقومية واختلاف الأسباب لتنوع تلك النماذج . وقد استقى الكتاب مادته من استقراء كبير ومتعمق لتواريخ مناطق متعددة فى العالم القديم والجديد على حد السواء . المادة الكتابية التى استخدمها المؤلف قائمة كبيرة من الكتابات الإبداعية والتاريخية والفلسفية وكتابات الرحالة .

ومن أهم مميزات الكتاب ، مع ذلك ، تمييزه الكبير بين مايسميه المؤلف بـ « القومية الرسمية » فى مقابل « القومية الشعبية » وجدلية هذين النوعين . ويحاول الكتاب أيضا أن يقدم مظاهر التقويم وآلياته التى من الممكن أن تكون أمام أعيننا ولا نراها لتعودنا عليها .